لیو جین یون

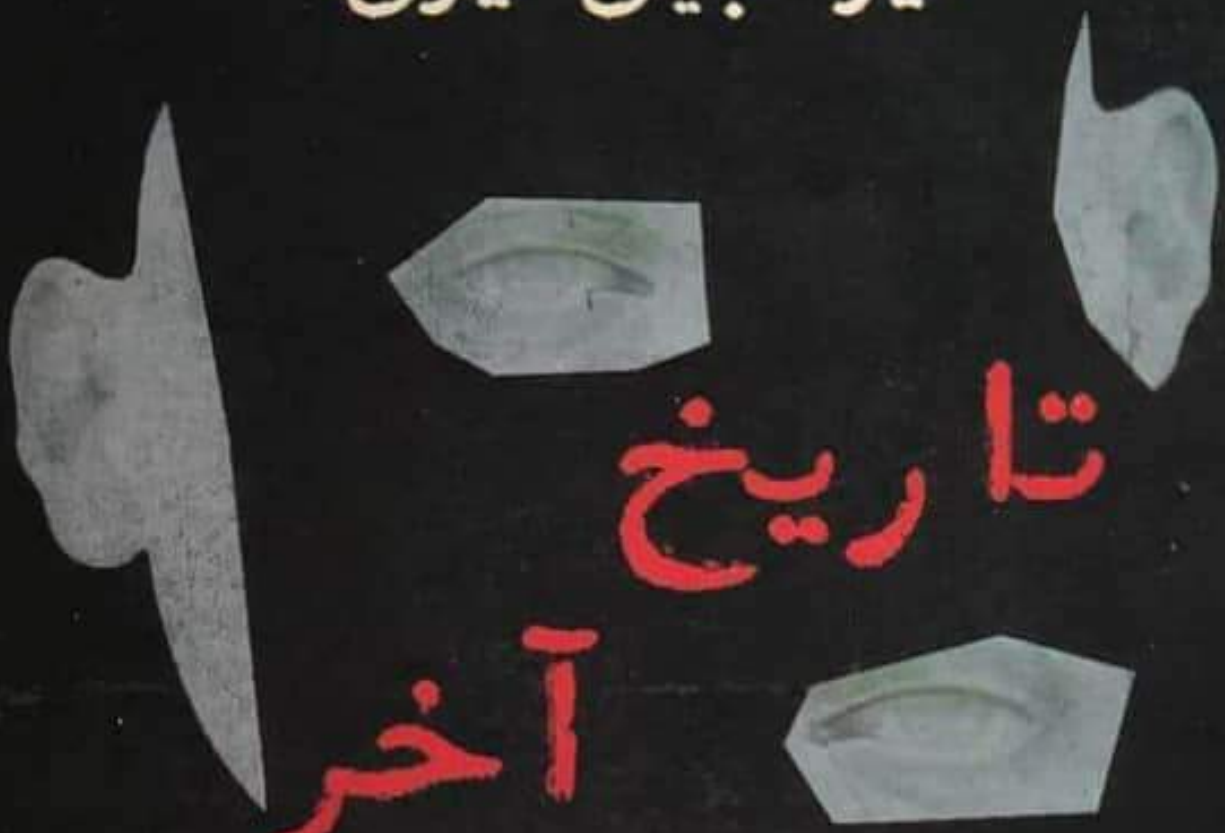

تاريخ آخر للضحك

رواية

Telegram:@mbooks90

ترجمها عن الصينية

أحمد السعيد - يحيى مختار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اسم الكتاب: تاريخ آخر للضحك

ترجمها عن الصينية: أحمد السعيد – يحيى مختار

الناشر: مجموعة بيت الحكمة للصناعات الثقافية

ليو جين يون
تاريخ آخر للضحك / ليو جين يون، ترجمة: أحمد السعيد، يحيى مختار - القاهرة: مجموعة بيت الحكمة للصناعات الثقافية، 2024.
367ص، 20 سم
تدمك: ISBN 9789778970722
1 - القصص الصينية
أ- السعيد، أحمد (مترجم)
ب - مختار، يحيى (مترجم مشارك)
جـ- العنوان 895.13
رقم الإيداع: 2024/2178

مجموعة بيت الحكمة للثقافة
شارع التحرير- مهدان التحرير- القاهرة
ت: 20223936038+ 201030328888+
info@baytelhekma.com
www.baytelhekma.com

تم نقل حقوق الترجمة والنشر بموجب العقد الموقع مع المؤلف

جميع الآراء الواردة بالكتاب تعبر عن رأي المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

جميع إصداراتنا متوفرة على منصات البيع الكبرى والمكتبات بالدول العربية والعالم.

للطلبيات والحجز:

Tel./ Whatsapp: +201030965555

لا يجوز نسخ أو استخدام أي جزء من هذا الكتاب سواء بالتصوير أو الطبع أو إعادة إنتاجه عبر أي وسائط مسموعة أو مرئية أخرى، أو عبر أي من وسائط تسجيل واسترجاع البيانات دون إذن كتابي من الناشر، وكل من يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية.

الإشراف العام
د. أحمد السعيد

مدير التحرير
عمرو مفيث

متابعة وتنفيذ
السعيد شعبان
علي قطب

المراجع
محمد ماهر بسيوني

الغلاف
إسلام أحمد

الإخراج الفني
حسام عنتر

فريق العمل في الصين
تشانغ شين
ما تشياو نا
وانغ هاي تشينغ

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة
©baytalhekma

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضمن قائمة أفضل عشر روايات صينية للعام

ليو جين يون

تاريخ آخر للضحك

رواية

ترجمها عن الصينية

أحمد السعيد - يحيى مختار

٢٧٠٧٣٦٨٢٣٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقدمة: لوحات العم السادس

بعدما انتهيت من الكتابة فكرت قليلاً، انتابتني رغبة في الحديث عن الغرض الأصلي من وراء كتابة هذه الأوراق.. من أجل العم السادس، ولوحاته.

Telegram:@mBooks90

عمل العم السادس عازفًا على الربابة في فرقة أوبرا خنان بمحافظة يانجين، التصق به لقب «السادس» طوال حياته لأنه الطفل السادس للأسرة، ولكن عندما تقدّم في السن أدرك الناس حاجتهم لتغيير اللقب الذي ينادونه به، إذ لم يعد مناسبًا أن تقول لرجل كبير «الطفل السادس»، فأصبح «العم السادس».

في الثامنة من عمري، بدأت فرقة أوبرا خنان بمحافظة يانجين في قبول مغنين جدد، ذهبت كفيري وتقدمت لاختبارات القبول. بمجرد أن صعدت على خشبة المسرح وغنيت مقطعين ذهش الجميع، هرول إليّ مدير الفرقة قائلاً: يا لك من عبقري، أكمل وهو يطردني إلى الخارج: صوتك أشبه بصوت الدجاجة المذبوحة، كيف وصلتَ إلى هذا المستوى من قبح الصوت؟! في ذلك الوقت كانت أمي تبيع صلصة الصويا بمتجر المواد الغذائية في الشارع الشرقي بعاصمة المحافظة، عندما ذهب العم السادس لشراء الصلصة من أمي قال لها: أيتها الأخت ليو، عندما صعد ابنك على خشبة المسرح بذلت قصارى جهدي، وضبطت نغمة الوتر عند أدنى مستوى من أجله. نظرت له والدتي بامتنان وقالت: لا عليك، فالطين المهترئ لا يسند الجدار.

بالإضافة إلى عزفه على الربابة بالفرقة، رسم العم السادس لوحات الديكور أيضًا.

في وقت لاحق ظهرت أجهزة التلفزيون، وكرهها العم السادس، فبسببها حُلت الفرقة، بعدما اشترى الناس التلفزيونات ولم يعد أحد يذهب لمشاهدة عروضهم المسرحية. ذهب العم السادس للعمل كسباك في مصنع الآلات المملوك للدولة في عاصمة المحافظة حتى أغلق المصنع أبوابه، فذهب للعمل كميكانيكي في مصنع غزل القطن في عاصمة المحافظة أيضًا. ومنذ ذلك الحين لم يعد بمثل مهارته الأسبق في العزف على الربابة، لكنه عاد لمهارته السابقة في رسم المناظر الطبيعية على جدران من يطلب. وقبل حلول عيد الربيع كان يكتب ملصقات العيد ويبيعها في السوق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكسب بعض المال الإضافي.

خلال عيد منتصف الخريف في أحد الأعوام، عدت إلى مدينة يانجين لزيارة أقاربي، فالتقيت في الشارع بالعم السادس، وتحدثنا عن ذهابي للالتحاق بالفرقة المسرحية، قال العم ليو: أنت مدين لمدير الفرقة، فلو لم يطردك لكنت عاطلاً الآن. استغرقنا في الضحك. سألني: سمعتُ أنك تكتب الروايات الآن؟ قلت: نعم، لكنه طريق خطأ. بادلته السؤال: سمعت أنك ترسم اللوحات؟ أجاب: نعم، وعمتك توبخني كل يوم، تنعتني بالجنون، لكن هذا لا يهم، فسوف يصيبني الملل الشديد لو لم أجد ما أفعله لقضاء الوقت. قلت: والأمر نفسه ينطبق على كتابة الروايات، إنها ليست عملاً ذا أهمية. استغرقنا في الضحك مجددًا. بعدها أعطيته بعض رواياتي، ودعاني هو إلى منزله لمشاهدة لوحاته. بمرور الوقت صارت هذه عادة سنوية، أعود إلى مسقط رأسي لزيارة أقاربي خلال عيد زيارة القبور، أو عيد قوارب التنين، أو عيد منتصف الخريف، أو حتى عيد الربيع، فأذهب إلى منزل العم السادس لمشاهدة لوحاته التي يرسمها بشكل متقطع. كان العم السادس يرسم مشاهد من يانجين، لكنها مختلفة عن يناجين التي نراها. فهي لا تقع على ضفاف النهر الأصفر، لكنها تطل عليه في لوحاته التي تتلاطم فيها أمواجه؛ يانجين أرضها سهلية، لا يوجد بها جبال. لكنها داخل لوحاته محاطة بجبل مهيب، وخلف الجبل جبل آخر على قمته ثلوج متراكمة لا تذوب طيلة العام.

وفي عيد قوارب تنين أحد الأعوام رأيت إحدى لوحاته؛ فتاة جميلة تتمايل ضاحكة تحت ضوء القمر، وبجوارها شجرة كاكي مليئة بالثمار الحمراء التي تبدو كفوانيس، سألته، من هذه؟ أجابني: جنيّة جاءت يانجين بالخطأ. سألته: ولماذا تضحك؟ رد: تتسلل إلى أحلام الناس لتستمع إلى النكات التي نشتهر بها هنا. في لوحة أخرى رأيت مجموعة من رؤوس الذكور والإناث يضحكون وأفواههم مفتوحة على مصراعيها. ورأيت عكس هذا المنظر في لوحة أخرى، مجموعة من الرؤوس وجوهها عابسة وعيونها مغمضة. يمكنني فهم سبب الضحك كما فسره هو، لكن لماذا يرسم العكس؟ سألته فأجاب ببساطة: النكات تحولت إلى جبل أطبق عليهم فقتلهم. وأكمل: مثلما يوجد من يحب النكات فهناك من يحب العبوس، الضحك يقتل مثل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحزن. في لوحة أخرى شاهدت مطعمًا، وشخصًا يرقد تحت طاولة، وحوله جمع من الناس حوله. ثمة بقايا طعام على الطاولة، من بينها طبق ليس به سوى رأس سمكة مبتسمة. سألته: ما خطب هذا الرجل المستلقي على الأرض؟ رد: وهو يتناول السمكة ألقى الشخص الجالس على الطاولة المجاورة نكتة، وعندما ضحك علقت شوكة في حلقه فمات، النكتة قتلته فسميت اللوحة «لا تُلقِ بالنكات في الأماكن العامة». قلت: أعمالك تنضح بطابع ما بعد الحداثة. اعترض: لا أفهم هذه المصطلحات، أرسم كما يحلو لي، وهذا تفرُّدي. أبدت العمة السادسة اعتراضها على كلامه. زوجته كانت مغنية في شبابها؛ وبعدما خلت فرقتها ذهبت للعمل في تغليف الحلوى في مصنع بالمحافظة. قالت مقاطعة حديثنا: ارسم شيئًا مفيدًا. سألها عن الأشياء التي تعنيها فأجابت: زهور تتفتح، طيور العقعق فوق الأغصان، عنقاء في مواجهة الشمس، أو حتى لوحات آلهة الأبواب ورسومات العيد، هذا ما يمكن بيعه في الأسواق، بدلاً من إضاعة مالك على أدوات الرسم بلا فائدة. لم يرد العم السادس، ولم أتدخل حتى لا تتحدث عن كتابة الروايات أيضًا.

وخلال عيد قوارب تنين آخر، رأيت لمرة ثانية في إحدى لوحاته امرأة ترقص في الهواء فوق النهر الأصفر، أشبه بجنية تحلق في السماء، مثل الفتاة تشانغ آه(1) وهي تطير إلى القمر في الأسطورة الشهيرة. سألته: من هذه المرأة؟ همس مجيبًا: شبح صديقتي المقرّبة التي غنت في فرقتنا، لقد تزوجت ثم شنقت نفسها بسبب حفنة من الكراث، رأيتها في منامي منذ عدة أيام ترقص فوق النهر. بدا خائفًا فاعتقدت أنه يخاف الأشباح، قال: لا تخبر زوجتي بذلك. مرة تالية في عيد منتصف الخريف رأيته رسم رجلاً يحمل في بطنه امرأة، يجلس داخل قطار. أشرت إلى المرأة وسألته: من هذه؟ أجاب: شبح أيضًا. سألته: ولماذا دخلت في بطن هذا الرجل؟ رد: لقد تلبّست جسده كي تسافر معه إلى قريب لها يسكن بعيدًا. وخلال عيد زيارة القبور رأيت لوحة رسم فيها العم السادس صورة للجحيم، مليئة بالشياطين الصغار، بعضهم تُقطع أنوفهم، والبعض الآخر تُقتلع أعينهم، وجماعة ثالثة يشقون إلى نصفين، ورابعة أفرادها مقيدون على حامل فوق النار، وأخيرة يلقى بهم فوق جبل من السكاكين. البكاء والشقاء يطل من اللوحة، بينما ملك الجحيم يضحك. سألته عن سبب ضحك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ملك الجحيم وسط هذا المشهد الدموي؟ أجاب: هناك شبح صغير، ألقى نكتة قبل أن يلقى حتفه، أتعرف ماذا قال له ملك الجحيم، أجبت بالنفي، فقال ضاحكًا: لقد سأله ملك الجحيم إذا ما كان من يانجين، ضحكت. أكمل: ما زالت يانجين مصدرًا للضحك بشكل عام. في لوحة أخرى رأيت امرأة بمظهر عرّافة، تتمتم ببعض الكلمات، وتُمسك بإبرة صلبة لتثبيت بعض الدمى الورقية على لوح خشبي، اسم اللوحة: لا حقد ولا غل. سألته: لماذا رسمت الدمى المثبتة بالمسامير على اللوح الخشبي، تثبيتها بهذا الشكل يتنافى مع اسم اللوحة؟ أجاب ببساطة: هذه مهنتها. فهمت ما يعنيه، وشعرت بطبقة من العرق البارد تنضح على ظهري.

رسم العم السادس أشخاصًا من واقع مشاهد الحياة اليومية، مثل العم وو ذي الفم الكبير الذي يبيع حساء لحم الضأن عند البوابة الشمالية، وتشو العجوز الذي يبيع الكوارع عند البوابة الغربية، ودونغ العجوز ذلك العراف الأعمى الذي يسكن عند الشارع الشرقي، وقو باوتشن الذي يكنس الطرقات، وغيرهم.

حينها كان رسمه بالفرشاة واقعيًا للغاية. أشار العم السادس إلى العم وو وقال: هذا الرجل أفضل من يطهو حساء الضأن في محافظة يانجين، لكنه للأسف مات بعد بلوغه الأربعين بقليل. أكمل: كان سمينًا جدًا، تغيب عنه الابتسامة، ربما الهموم هي التي أودت بحياته. ثم أشار إلى دونغ وقال: هذا العجوز ظل يخدع الناس طيلة حياته. أكمل: المبصر يذهب لعراف أعمى يحل له مشاكله!! ثم أشار إلى قو باوتشن، وقال: أخبرنا دونغ أن قو باوتشن كان وزيرًا في حياته السابقة، لقد قتل فيها الكثيرين، لذلك فهو يكنس القاذورات عن نفسه في هذه الحياة، وقال أيضًا إنه تميّز ببطء الفهم، رغم ذلك ذهب ابنه للدراسة في إنجلترا ولم يرث الغباء منه. كان لدى العم السادس لوحة كبيرة تبلغ مترين، عبارة عن رسم تخطيطي. بها رسوم لجميع زملائه في الفرقة، كل منهم له هيئته الخاصة. أشار العم إلى أحد الأشخاص وقال: هذا الشخص يُدعي تشن تشانغ جيه، بعدما حلت الفرقة، انتحرت زوجته، فذهب إلى مدينة ووهان، وعمل وقّادًا في مستودع قاطرات ووهان. وهذا سون شياوباو، مؤدي دور المهرج، ذهب لاحقًا إلى مدينة داتشنغ للعمل كحفار في حقلها النفطي. ثم أشار إلى طفل يبلغ من العمر أربعة أعوام أو خمسة وقال: هذا هو ابن تشن تشانغ جيه،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اسمه مينغ ليانغ، كان في طفولته يلهو كل يوم خلف خشبة المسرح، عندما كبر انتقل من يانجين إلى شيآن لسبب لم يفصح عنه. ثم أشار إلى امرأة، وهمس قائلاً: هي التي رقصت فوق النهر الأصفر. تقدمت لألقى نظرة فاحصة، وقلت: لقد كانت جميلة حقًا.

قال العم السادس، إن ذكريات الماضي مريرة لا تُحتمل. وقال أيضًا إن هناك سبعة أو ثمانية أشخاص ممن رسمهم في هذه اللوحة فارقوا الحياة. قال إنه نسي الكثيرين عندما رسم هذه الصورة، ولم يرسمهم رفقة البقية. خلال عيد الربيع هذا العام رأيت عنده لوحة فيها طفل يركض على طول السكة الحديد، وفوقه تحلق طائرة ورقية، وخلفه بقرة عجوز. سألته: لماذا يركض هذا الطفل على السكة الحديد؟ أجاب: لقد ركب القطار في الاتجاه الخطأ، وهذا عنوان اللوحة. قلت: هذا الطفل مهمل للغاية. علق قائلاً: ومن منا لم يسر في الاتجاه الخاطئ في حياته؟ أومأت برأسي موافقًا. رسم أيضًا لوحة طولها عشرة أمتار، مثل لوحة «مشاهد على ضفاف النهر خلال عيد تشنغ مينغ»(2)، وكانت أيضًا رسمًا تخطيطيًا بالفرشاة، لكنها عبّرت عن السوق الواقعة عند معبر يانجين، جميع الأشخاص داخل اللوحة يرتدون ملابس تعود إلى عصر أسرة سونغ؛ أمواج النهر الأصفر عالية؛ وتحت أشجار الصفصاف على الضفة ثمة من يعزف على الربابة، ومن ينفخ في الناي، ووسط النهر يقف صياد على مقدمة القارب يطارد الأسماك، لم يكن ما اصطاده سمك الكارب، ولا سمك الأسقمري، ولا سمك الشبوط، بل حورية بحر؛ وهناك من يجرون العربات، والحمالون، وساحبو المواشي، يتزاحمون أعلى الجسر المؤدي إلى المعبر؛ هناك لافتة معلقة على باب أحد المتاجر أسفل الجسر مكتوب عليها «يوم بثلاثة أعوام». قلت: لا يوجد أحد يكتب مثل هذا النقش على لافته باب متجر، فالناس يكتبون: «لتكن تجارتنا رائجة مزدهرة» أو «لننعم بالرزق الدائم الوفير». ضحك وقال: لقد كنت ثملاً في ذلك اليوم، ولم أترك مساحة كافية لكتابة تلك العبارات الطويلة التي قلتها، ووجدتني مضطرًا لكتابة مختصرة أكثر من اللازم. رسم العم السادس أيضًا بعض الحيوانات، مثل الكلاب والقطط والثعالب وابن عرس، لكل منها هيئته الخاصة؛ من بينها قرد متكئ على شجرة صفصاف عند المعبر، ينام ويداه على بطنه وهناك طوق حديدي حول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رقبته مربوط بسلسلة حديدية، والسلسلة الحديدية مربوطة بشجرة الصفصاف، وجزء منها مكوّم على جسده، ورأسه وجسده مغطيان بالندوب التي لم تلتئم بعد. سألته: بالنظر إلى القشرة السميكة التي تغطي مؤخرته وباطن قدمه يبدو هذا القرد طاعنًا في السن، أليس كذلك؟ أجاب: هذه الرسمة تمثلني. أشرت إلى الندوب على رأس القرد وجسده متسائلاً: وما سبب تعرضه للتنكيل بهذا الشكل؟ رد: لم يعد قادرًا على أداء الألعاب البهلوانية، ولا رغبه له في ذلك، ولكن هذا لم يعجب القرداتي، فكان هذا مصيره.

عندما عدت لقضاء عيد منتصف الخريف العام قبل الماضي، سمعت أن العمة السادسة أصيبت بالاكتئاب. ذهبت لمنزلهما لإلقاء نظرة على اللوحات كالعادة، وجدت الأحوال كما توقعت تمامًا. عندما يعاني الأشخاص من الاكتئاب لا يحبون التحدث، لكن العمة السادسة تثرثر بلا توقف عن كل الأشياء غير المُرضية التي عاشتها في حياتها؛ وكل هذه الأشياء مرتبطة بالعم السادس الذي أحنى رأسه في صمت، فقط يشير إلى اللوحات ويتأملها. بالطبع شغف مشاهدة اللوحات لم يؤرقني وسط هذه الأجواء المشحونة، قلت له إن هناك ضيفًا سيزورني خلال الظهيرة، واستأذنت مغادرًا.

عندما عدت خلال عيد الربيع العام الماضي عرفت بوفاته بسبب أزمة قلبية. ذهبت لزيارة منزله فوجدته تحول إلى صورة على حائط. تحدثت مع زوجته فقالت: في ذلك الصباح كان يشرب حساء الفلفل الحار، ثم مال برأسه وانقطعت أنفاسه وفشلت محاولات إسعافه، حتى إن الوقت لم يمهله ليترك أي وصية قبل موته، ثم تحدثت عن كيفية إخبارها الأقارب والأصدقاء بالخبر، وكيف جرى الترتيب لجنازته، وما إلى ذلك. كانت تتحدث بسرعة وتلقائية، وكأنها ممثل يؤدي على خشبة المسرح دورًا يحفظه جيدًا، فعلمت حينها أنها قالت الكلام نفسه مرات لا تُحصى لآخرين غيري. تذكرت أمرًا آخر، فقاطعتها قائلاً:

- أين لوحاته؟

- أحرقتها بدلاً من حرق الأوراق الجنائزية(3) يوم موته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلت مذهولاً: لماذا؟ إنها جميلة.

- هذه الأشياء عديمة الفائدة، لوحات غير مفهومة لم يكن أحد يُعجب بها غيره.

- لطالما أعجبتني.

ضربت كفًا بكف وقالت: لقد نسيت ذلك، لو تذكرتك قبل أن أحرقها لاحتفظت بها لك.

استمرت تقول: الموتى لن يعودوا للحياة، والورق صار ترابًا ولا يمكن استرجاعه، ليس باليد حيلة.

احترقت لوحات العم السادس وصارت رمادًا لا أحد يعلم إلى أين حملته الريح. في تلك الليلة حلمت به عند معبر يانجين، الثلوج كثيفة، والعم يقف عند الشاطئ يرتدي ثوبًا أبيض طويلاً يلفه حول جسده، كما لو كان يغني على المسرح، ثم تحول الثلج الكثيف المتطاير في السماء إلى لوحاته. لوّح لي بيده وهو يغني: «ماذا أفعل؟ ما العمل؟». عندما استيقظت لم أستطع النوم مرة أخرى. بعد شهر قررت أن أعيد جمع لوحات العم السادس التي تحولت إلى رماد، أنا لا أستطيع الرسم، لكن يمكنني الربط بين لوحاته وكتابتي لإحياء ذكرى الماضي.

حاولت، ووجدت أنه ليس من السهل بالمرة تحويل اللوحات إلى رواية، فكل لوحة هي قطعة من الحياة، ولا توجد علاقة تربط بينها، أما الرواية فيجب أن تحتوي على شخصيات وقصص مترابطة، كما أن بعض لوحات العم تنتمي إلى طابع ما بعد الحداثة، منها ما يتضمن تشويهًا لصورة الناس والبيئة، ومبالغات تصويرية، وتنقلاً بين الحياة والموت، وأشباحًا وأرواحًا. وهناك أيضًا بعض اللوحات الواقعية التي ترسم الأحوال العادية للناس في الحياة اليومية، وكأنها امتداد لروتين الحياة اليومية؛ والأسلوب غير موحد؛ فاللوحات يمكن رسمها بشكل منفصل كل لوحة على حدة، لكن الرواية يجب أن تكون موحدة من حيث أسلوب الوصف وطريقة الكتابة. وبعد كتابة فصلين تراجعت، فكرت لبعض الوقت، ليس لي عمل سوى الكتابة، ولا أملك حرفة أخرى، يمكنني استخدام الكتابة للترويح عن الناس. كما أنني عاهدت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العم السادس أن أستخدم مهاراتي البسيطة لإحياء مشاعر أصدقائي وأفكارهم التي صارت في طي النسيان، ولا يمكنني أن أخلف وعدي أو أن أتراجع في منتصف الطريق، لذلك قررت أن أتحامل على نفسي وأكمل على مضض.

خلال الكتابة، حاولت التوفيق بين ما بعد الحداثة، والتشويه، والمبالغة، والتنقل بين الحياة والموت، والأرواح والأشباح، والحياة اليومية داخل اللوحات؛ معتمدًا على تفاصيل الحياة اليومية كمحور رئيسي، وعلى التشويه، والمبالغة، والتنقل بين الحياة والموت، والأرواح والأشباح كفروع ثانوية أو كتوابل للحساء؛ وعليه صارت معظم الفصول تركز على الحياة اليومية، والبعض الآخر ظهرت به بعض الأشباح والأرواح وغيرها من مظاهر ما بعد الحداثة، وهو ما قد يثير السخرية، الأمر الذي أعتقد أن القراء لن يأخذوه على محمل الجد؛ وفي اختيار الشخصيات الرئيسية في الكتاب، عمدت إلى بضع شخصيات من وسط اللوحة الجماعية التي يبلغ مقاسها مترين وتضم رسومًا لأعضاء الفرقة، ليكونوا شخصيات تتخلل الرواية بأكملها؛ بالطبع كان لا بد من اختيار الصديقة المقرّبة للعم السادس لتكون إحدى بطلات الرواية؛ والسبب في هذا الاختيار هو أن هذه الشخصيات كانت مقرّبة منه. ومن بينها أولئك الذين غادروا يانجين، من يبتعد يرى بشكل أفضل.

لوحات العم السادس في الأساس تصوير لمشاهد من يانجين؛ والرواية ستتجاوز إطار اللوحات، وأرجو ألا يلومني العم على ذلك. في الوقت نفسه، أعتقد أن فصل المشاهد عن بعضها يفسح المجال أيضًا للتحولات والانعطافات الدرامية داخل الرواية. بالإضافة إلى ذلك، ونظرًا لاحتراق اللوحات، فإعادة تصوير مشاهد اللوحات من ذاكرتي ستخلق اختلافات طفيفة بين الحقيقة وصورة الذاكرة. المشكلة الكبرى أن تلك الاختلافات الطفيفة ستتحول في النهاية إلى اختلافات أكبر، وسيكون من الصعب العودة إلى عالم لوحات العم السادس؛ لذلك أرجو منه ألا يلومني لو أخطأت في وصف لوحاته. لكني أطمئنه أن الرواية بها جوانب مخلصة جوار هذه الجوانب الخائنة التي لم أكن أتوقع وجودها عندما بدأت في الكتابة. كما أشهدكم أن نيتي ظلت صادقة طوال الكتابة. لقد قال العم السادس عن يانجين إنها أرض الضحك والنكات، فدعونا نتعامل مع الأمر على أنه مزحة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شكرًا لكل من قرأ هذا العمل. كما أشكركم أيضًا نيابة عن العم السادس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجزء الأول: الجنيّة هوا آرنيانغ

تعشق هوا آرنيانغ الاستماع إلى النكات. وقد جاءت من جبل وانغلانغ بحثًا عن النكات، على حاجبيها صقيع من أثر الثلوج أعلى الجبل الذي أتت منه، وتحمل على ذراعها سلة مليئة بثمار الكاكي.

تبحث هوا آرنيانغ عن النكات ليلاً. سافرت آلاف الأميال وصولاً إلى يانجين لتنتظر هوا آرلانغ(4). انتظرته لأكثر من ثلاثة آلاف عام، لكنه لم يأتِ. كلما قابلت شخصًا في طريقها سألته عنه وهي تقول: لقد تعاهدنا على اللقاء هنا، عند معبر يانجين. تخاف من أن يكون خانها وخالف العهد، أو مات بسبب الأهوال التي لم تنقطع على مدار الثلاثة آلاف عام الماضية. لقد تعبت من الوقوف والانتظار عند المعبر، فجلست جانب النهر تغسل قدميها، قالت: أيتها المياه، أنتِ تحفظين عهدك، تأتين في الوقت المحدد كل يوم. بادلتها المياه الحديث: ما رأيته أمس لم يكن أنا، لقد وصلتُ للتو إلى هنا. تنهّدت هوا آرنيانغ وقالت: لحسن الحظ أن النهر لم يتغير، وإلا فلن أجد مكانًا أذهب إليه. قالت المياه: المياه ليست هي المياه نفسها، لذلك فالنهر ليس هو النهر نفسه. مرّ سرب من الإوز البري محلقًا في السماء، قالت هوا آرنيانغ: أيها الإوز، أنت لا تخلف موعدك، مررت من هنا العام الماضي، وها أنت تعود في الموعد نفسه هذا العام. قال الإوز: لسنا نحن الذين مررنا العام الماضي، الذين مروا من هنا العام الماضي ماتوا في الجنوب منذ وقت طويل. حينها أدركت أن انتظار الآخرين صار مزحة، وفي تلك الليلة، تحولت هوا آرنيانغ إلى جبل وانغلانغ.

في وقت لاحق، أدرك الجميع أنها ليست بشرًا، هي حجر تحول إلى جبل. والحجارة قاسية لا قلب لها، لكنها مختلفة، قلبها كالماء ليّن عذب، وهذا سبب شقائها. منذ عصر أسرة سونغ(5) وحتى الآن، مر أكثر من ألف عام أخرى. وبسبب تحملها آلاف الأعوام من الشوق، تحولت إلى جنيّة خالدة تتمتع بالشباب الأبدي كفتاة جميلة في سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة.

قال البعض أيضًا إنها ظلت تنتظر بلا جدوى، دفعها ذلك للبكاء، والبكاء دفعها إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموت، ومن الموت عادت للحياة. كرهت الدموع التي أودت بحياتها الأولى وصارت ترغب في التسلل إلى أحلام الناس لتستمع إلى النكات.

لا يمتاز كل البشر بخفة الظل، وهذه مشكلة. تدخل هوا آرنيانغ إلى حُلم المرء، وإذا لم تجد نكتة تُضحكها لا تُظهر انزعاجًا، لكنها تطلب شيئًا واحدًا: احملني على ظهرك للذهاب لشرب طبق من حساء الفلفل الحار. ولكن من يستطيع حمل جبل على ظهره؟ بمجرد فعل ذلك ستسحقك حتى الموت. لكن ماذا يحدث إذا نجحت في إضحاكها، ستُخرج من السلة المعلقة في ذراعها ثمرة كاكي حمراء وتمنحها لك لتأكلها.

بعض الصعاليك يلقون نكاتًا جيدة تجعلها تضحك بشدة حتى يحمرّ وجهُها لتصبح أكثر جمالاً من المعتاد، ولأن الأمر برمته حلم يُبدي الصعلوك شجاعة تفوق المعتاد، فهو لا يكتفي بثمرة الكاكي وإنما يطمح للوصول إلى الشابة الجميلة. تلك الرغبة العارمة بالنسبة لها مزحة بحد ذاتها؛ تضحك أكثر، توافق على طلبه. يخلع الاثنان ملابسهما، وبمجرد أن يتلامس الجسدان يشعر الرجل بمتعة لا نظير لها، ويتصلب جسده على الفور. يستيقظ أفراد عائلته في اليوم التالي ويجدونه ممددًا عاريًا على السرير وقد انقطعت أنفاسه. وعندما يحملون جسده يجدون ملاءة السرير مزينة بسائله المنوي. بعد نقله إلى المستشفى لفحصه يكتشفون أن سبب وفاته احتشاء في عضلة القلب. بالطبع ليست كل حالات الموت بسبب احتشاء عضلة القلب في يانجين مرتبطة بالجنية الجميلة، فبعض حالات احتشاء عضلة القلب سببها بالفعل احتشاء عضلة القلب.

هناك أيضًا من لديهم الجرأة والقدرة على إلقاء نكات جيدة تُضحكها، فيطلبون منها إلقاء نكتة جيدة، ولأنها تكون في مزاج جيد توافق قائلة: مؤخرًا غيرت اسم المكان الذي أسكنه، فمنذ عصر أسرة سونغ وحتى الآن لا يزال اسمه «جبل وانغلانغ» ويعني جبل انتظار الحبيب، وقد حان الوقت لتغييره ليصبح جبل نسيان الحبيب، انتظرتُ كحجر لأكثر من ثلاثة آلاف عام، وحان وقت النسيان. يرد السامع: كلامك مغلوط، من يقول إنه نسي، إنه لا يزال يتذكر. ترد: ليست هذه مشكلتك، المهم هل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النكتة جيدة أم لا؟ يضحك، بعد ذلك أصبحت تبادر بسؤال: هل ألقي نكتة؟ ولما عرف الجميع نكتتها الوحيدة المؤلمة عن الانتظار والنسيان توقفوا عن سماعها.

أما البارعون الذين يُضحكونها بسهولة فتكافئهم بثمرتين بدلاً من واحدة، وتعفي أسرهم بأكملها من إلقاء النكات لمدة ثلاث سنوات. وهؤلاء قلة نادرة بالطبع.

البعض يقولون لها: العالم أكبر من أن يمكث المرء في يانجين. يمكنك الذهاب إلى مكان آخر. ترد: أعرف أن العالم كبير، وأرغب في الذهاب إلى أماكن أخرى. قبل أن أتحول إلى جبل كان بإمكاني مغادرة يانجين، لكني الآن أصبحت جبلًا بغضّ النظر عن اسمه، ومن الصعب تحريك الجبل. لقد فات الأوان وليس بوسعي سوى البقاء هنا؛ أنا أسيرة، أتطلع للعالم ولا يمكنني الوصول إليه، فأنساه.

بسبب خطرها المهدد لحياة أهل يانجين، صار معظم الناس يحتفظون ببعض النكات لأنفسهم، ويرددونها بصمت عدة مرات قبل الخلود إلى النوم تحسبًا لما قد يحدث. وهذا هو مصدر حس الدعابة هنا. يمكنك أن تتخيل، أناس لديهم حس دعابة في الليل، فما بالك بالنهار؟ لكن هناك أيضًا أشخاص مهملون لا يحتفظون لأنفسهم بالنكات، فهم يستبعدون ظهورها لهم. إن عدد السكان أكثر من نصف مليون، لذا فنسبة ظهورها ضئيلة، هؤلاء اللامبالون تظهر فجأة في أحلامهم، كعقاب على عدم أخذ الحذر.

أثناء الأعياد تمنح هوا آرنيانغ جميع السكان عطلة لا يكونون معها بحاجة إلى إلقاء النكات، لذا فأعيادهم ذات طابع صارم، يمشون في الشوارع بملامح جادة؛ وعندما يلتقون يحدق كل منهم في وجه الآخر ببرود، لا يعني هذا أنهم غير ودودين، بل على العكس، هذا تعبير عن الحميمية؛ فالجدية ألفة، والصرامة لين، هذه المعاني تنبع هنا.

في شتاء العام الماضي، عندما عاد المؤلف لمسقط رأسه لزيارة أهله رآها في أحلامه، أجبرته على أن يلقي نكتة. لم يكن مستعدًا، وبدا في عجلة من أمره، قال: لو غادرنا يانجين سنجد الناس يأخذون النكات على محمل الجد، هل هذا جيد؟ ترد: أعطني مثالاً! يجيب: يخبر أحدهم الآخر أن قمرًا في الماء، فيبذل هذا قصارى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جهده لاصطياده... تقاطعه: أنت تقصد مزحة القرد الذي يصطاد القمر؟ إنها قديمة، تظهر بوادر الغضب، تحذره: إياك أن تخدعني، فخداعك لي هو خداع لنفسك، يشرح المؤلف متعجلاً: النكتة قديمة، لكنها لا تزال متداولة، والأمر المضحك أن هناك من يحاول اصطياد القمر فعلاً، تضحك هذه المرة، فينجو المؤلف بحياته. الفضل يعود إلى من يعيشون خارج يانجين ويأخذون النكات على محمل الجد. تسألني إذا كنت أرغب في الاستماع إلى نكتة منها، أعرف نكتتها الوحيدة، الشيء الوحيد الذي حيّرني عدم منحها ثمرة الكاكي لي. فكرت، ربما لم تكن النكتة التي ألقيتها مضحكة بما يكفي، المهم أنها لم تطلب مني أن أحملها فوق ظهري؛ تخيّل ذلك جعل طبقة من العرق البارد تنضح على جسدي. بالضبط كما تقول الأغنية:

«في الحلم وكأنها هوا آرنيانغ

وفي الصباح تشبه حساء حارا

يوم بثلاثة أعوام، وكل مُر سيمر

انهمرت الدموع على صدره، ونسي كلٌ صاحبه».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجزء الثاني: الفتاة ينغ تاو

1

بعث تشن تشانغ جيه برسالة إلى يانشنغ يطلب منه القدوم إلى مدينة ووهان لحضور حفل زفافه قال فيها: «من الضروري أن تأتي قبل الثامن من يوليو، وسأخبرك بالتفاصيل عندما نلتقي، في انتظارك».

قبل عشر سنوات، تزاملا في فرقة الأوبرا بمحافظة يانجين. وكانت أشهر المسرحيات التي تؤديها الفرقة هي مسرحية «أسطورة الأفعى البيضاء»، لعب فيها يانشنغ دور الشاب المتعلم شيو شيان، بينما لعب تشن تشانغ جيه دور الراهب فاهاي، أما الممثلة ينغ تاو فتقمصت دور الأفعى البيضاء. الفضل في نجاح هذه المسرحية يعود إلى جملة قالها تشن تشانغ جيه: «كوارث الحياة يتسبب فيها الجزء السفلي من الجسد». أثارت جملته الجدل، أكمل: هلا فكرتم، هناك أفعى تمارس الطقوس الروحانية لآلاف السنين، ثم تحولت أخيرًا إلى جنية خالدة، جميع الناس في العالم يرغبون في عالم الخلود بعد الموت، حتى إنهم يكتبون على التوابيت الجنائزية «لترقد بسلام في عالم الخلود». عادت الجنية إلى عالم البشر على هيئة امرأة هدفها إغراء الرجال؛ لم تكتفِ بخلودها الروحي، بل أرادت الخلود الجسدي أيضًا. لكنها انتقت الرجال الذين تغريهم، لم تقترب من الفقراء، فالحمالون عند رصيف الميناء لا يتقنون فنون الجنس ولا يفهمون كيف يدللون المرأة. ولم تقترب أيضًا من الأثرياء، فهؤلاء لديهم الكثير من الزوجات والمحظيات، فهل يمكن أن تثير امرأة لعوب انتباههم؟ لذلك وقعت في حب الوسيم المتعلم الشاب شيو شيان الذي يعمل كمتدرب في متجر للأدوية الصينية التقليدية لكسب لقمة العيش خلال النهار، ويجلس حزينًا يعاني الوحدة أمام المصباح ليلاً، وها هو قد حظي بفتاة جميلة دون تعب، أليس ذلك كمن يُلقي بالحطب وسط النار المستعرة؟ أضف إلى ذلك أن الأشخاص المتعلمين يفهمون كيف يدللون النساء. كان تفكير هذه الأفعى صائبًا، أما فاهاي، فهو راهب، لا يمكنه أن يقرب النساء. أو بعبارة أخرى، هو رجل لكنه ليس ذكرًا، وبالتأكيد سيشعر بالغيرة من مجيء هذه الأفعى البيضاء إلى عالم البشر على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هيئة امرأة لتثير الفتن، لذلك تلا تعاويذه وأعادها إلى هيئتها الأصلية ودفنها أسفل معبد، ولسان حاله يقول: لا يمكنني أن أحظى بكِ، لذا لن أسمح أن تكوني لغيري، ما رأيكم؟ أليست تلك هي الطريقة التي يفكر بها؟ أليس هذا هو السبب؟

شعر يانشنغ بمنطقية هذا الحديث، وكذلك شعرت ينغ تاو، مما جعل أداء الثلاثة على خشبة المسرح واقعيًا مؤثرًا في كل مشهد، وبدت أدوراهم نابعة من القلب، مفعمة بالمعاني العميقة.

لا وجود لمشاعر الحب العميقة بين الإنسان والأفاعي سوى في العروض التمثيلية، فمن سمع بأمر كهذا من قبل؟ ثمة مشهد يغني فيه الراهب والفتي معًا، يقول الراهب:

تحبها لأنها جميلة كالوردة المتفتحة

من كان يعلم أنها في الأصل أفعى سامة؟!

يرد الشاب:

عندما أحببتها لم أكن أعلم أنها أفعى سامة

وإلى الآن ما زلت أشعر بسكين يجرح قلبي

ترد الأفعى البيضاء على الراهب:

ليس بيني وبينك أي عداوة، لا من بعيد ولا من قريب

لماذا تفرّق بيني وبين من أحب؟

يدافع الراهب:

أنا لا أفعل ذلك بدافع حقد شخصي

بل لأضع حاجزًا بين الجنيات وعالم البشر

حينها يمد الثلاثة أيديهم ويغنون معًا:

ماذا نفعل.. ماذا نفعل؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كيف العمل.. كيف العمل؟

أصبحت مسرحية «أسطورة الأفعى البيضاء» من أشهر عروض الفرقة، وبسببها ذاعت شهرة هؤلاء الثلاثة في يانجين. لكن التمثيل له آثاره السلبية، وقد لا يستطيع الممثل التخلص من آثار الدور الذي يلعبه. عندما كان الثلاثة يواجهون صعوبات في حياتهم اليومية، كانوا دومًا يرددون: «ماذا نفعل، ماذا نفعل؟»، «كيف العمل، كيف العمل؟».

داخل المسرحية، كانت ينغ تاو تؤدي دور زوجة يانشنغ؛ لكن في الواقع تزوجت من تشن تشانغ جيه. هي ذات خصر نحيل يتمايل كثعبان الماء، وجهها بيضاوي، عيونها واسعة على شكل بذرة المشمش، عادة ما ترمقك سريعًا بعينها قبل الحديث. وسواء خلال الحياة العادية أو على المسرح، كانوا قريبين جدًا من بعضهم، وهذا جعل يانشنغ مغرمًا بها أيضًا، لكن عندما لاحظ أن تشن تشانغ جيه يتحدث معها خلف الكواليس ويمازحها بشكل دائم؛ وكلما ألقى نكتة أمامها انفجرت بالضحك؛ علم أنها ستتزوجه لا محالة. إنه قادر على إثارة مشاعر جمهور المسرح بأكمله، أفلن يكون قادرًا على إثارة مشاعر امرأة؟ بعد ذلك، تزوج يانشنغ من شياوفنغ التي تعمل في تغليف الحلوى في مصنع بالمدينة، والتي لها صدر ممتلئ وعينان واسعتان، وتحب مشاهدة المسرحيات بعد انتهاء عملها في مصنع الحلوى، وتحب أيضًا شخصية الشاب في المسرحية. في إحدى الليالي، بعد أن انتهى العرض، كان يانشنغ يمسح مكياجه خلف الكواليس، وخرج من الباب الخلفي فوجدها عند الباب، قدمت له الحلوى قائلة: هذه ليست حلوى عادية. سألها عن السبب فطلبت منه إمعان النظر، كان الغلاف مرسومًا عليه قلب أحمر، قالت: هذه ميزة العمل في تغليف الحلوى. شكرها واعتذر عن تناولها لتسوُّس ضرسه. أرادت أن تطيل الحديث فسألته عما سيفعله لاحقًا، أجاب: كنت أمثل طوال الليل وأشعر بالنعاس، أريد العودة إلى المنزل لأخلد للنوم. قالت: تمثل طوال الليل، ألستَ جائعًا؟ نومك وأنت جائع سيضر بمعدتك، العم خو العجوز لا يزال يبيع حساء الفلفل الحار الآن، فلنذهب لنتناوله. اعتذر عن تناول الحساء الحار بسبب إجهاد حلقه لكثرة حديثه على المسرح. لم تيأس وقالت: مطعم العم وو ذي الفم الكبير الذي يبيع حساء لحم الضأن عند البوابة الشمالية لا

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يزال مفتوحًا، فلنذهب لشرب حساء لحم الضأن، لن يؤذي أسنانك أو حلقك.

ظلا يتناولان حساء لحم الضأن معًا لمدة شهر تقريبًا. كل يوم ترتدي شياوفنغ ملابس جديدة. وفي ليلة، بعدما انتهيا من حساء لحم الضأن، قالت: إذا تحدثت معك بصراحة هل تلومني؟ رد بأدائه المسرحي قائلاً: أعفيتك من اللوم، سألته: هل تفضل أن تقع في حب امرأة أم أفعى؟ رفع وجهه من فوق وعاء حساء لحم الضأن وأجاب: «هذا تمثيل، من المجنون الذي قد يحب أفعى في الواقع؟». وضعت الملعقة وقالت: إذا أردت أن تقع في حب شخص ما فأنا مستعدة، ولديّ ما هو أفضل من ينغ تاو. سألها عن ميزتها فأجابت بتلقائية: ليس لديها صدر، أما أنا فلديّ صدر كبير. فكّر يانشنغ في الأمر، ينغ تاو فتاة رقيقة بالفعل، لكن شياوفنغ محقة، نظر إلى صدرها النافر أمام عينيه، فوجد كرتين دائريتين تكادان تنفجران من فتحة قميصها، حينها علت وجهه ابتسامة عريضة.

في أول عامين من الزواج، كانت تجعله يرسم وجهه بالمكياج خلال الليل على هيئة الشاب شيو شيان، سألها: هل تحبينني أم تحبين شخصيتي المسرحية؟ تمايلت بجسدها وردّت: أريد أن ألعب معك دور الأفعى البيضاء.

في وقت لاحق، اشترت جميع العائلات أجهزة تليفزيون، ولم يعد أحد يذهب إلى المسرح، لذلك حُلت الفرقة، وتفرّق أعضاؤها الذين يفوق عددهم المائة، أو كما يقول المثل: سقطت الشجرة فهربت القردة، وسلك كل منهم طريقًا مختلفًا، وعملوا في مهن متنوعة لكسب لقمة العيش. ذهب الثلاثة أولاً للعمل معًا في مصنع الآلات المملوك للدولة في عاصمة المحافظة؛ مدير المصنع تشانكو كان مغرمًا بمشاهدة العروض المسرحية، وخاصة مسرحيتهم الشهيرة، لذلك قبلهم للعمل في المصنع فورًا. عمل يانشنغ سباكًا، وتشن تشانغ جيه حدادًا، بينما عملت ينغ تاو في المطعم. وخلال أيام العطلات، أو عند قدوم ضيوف إلى المصنع، يطلب تشانكو منهم أن يؤدوا مشاهد من مسرحية «أسطورة الأفعى البيضاء». لم يكن هناك من يعزف على الربابة أو يضرب بالدف، لذلك كانوا يغنون بدون موسيقى؛ وفي ظل عدم وجود ممثلين مساعدين، لم يكن بوسعهم أداء العرض بأكمله، لذلك كان أداؤهم مقتصرًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على أغنية «ماذا نفعل، ماذا نفعل؟ كيف العمل، كيف العمل؟». وخلال غنائهم هذا المقطع كان تشانكو يتحسس رأسه الأصلع ويستغرق في الضحك. في وقت لاحق أغلق مصنع الآلات، ولم يعد هؤلاء الثلاثة يؤدون أدوار الشاب والراهب والأفعى البيضاء، بل تفرقوا ثانية بحثًا عن لقمة عيشهم. ذهب تشن تشانغ جيه وينغ تاو إلى مصنع غزل القطن، حيث عمل ميكانيكيًا، وعملت زوجته على آلة الغزل. أما يانشنغ فذهب للعمل في شركة المواد الغذائية، حيث كان مسؤولاً عن بيع صلصة الصويا والخل والمخللات في متجر الشركة بالشارع الشرقي؛ على يساره متجر يبيع صلصة الصويا والخل والمخللات، كما يوجد أيضًا متجر لبيع الفلفل الحار والتوفو. لاحقًا سافرت الفتاة المسؤولة عن متجر الفلفل الحار والتوفو إلى مقاطعة قانسو لمرافقة زوجها الذي انضم إلى الجيش هناك، ومنذ ذلك الحين صار هو مسؤولاً عن ذلك المتجر أيضًا.

ولأنهما يعملان في أماكن مختلفة، لم يعد يانشنغ وتشن تشانغ جيه يلتقيان كل يوم كالمعتاد. يتقابلان مصادفة في الشارع، يتجاذبان أطراف الحديث لبعض الوقت؛ أو يتفقان على الذهاب إلى مطعم «المارشال» عند المعبر الغربي لتناول الكوارع. كانا في السابق يقضيان الوقت معًا كل يوم، دون حاجه للاتفاق المسبق؛ بعكس الحال الآن. في البداية، اتفقنا على الذهاب إلى ذلك المطعم مرة كل أسبوع، بعدها صارت مرة في الشهر، بعدها كثرت مشاغلهما، وتقلصت مرات لقائهما. لو حدث أن رغب أحدهما في تناول الكوارع، فغالبًا يذهب بمفرده إلى مطعم «المارشال»، يشتري الطعام ويعود ليتناوله في المنزل. ثم وُلد لتشن تشانغ جيه طفل وأتم مائة يوم، اجتمعت عائلتاهما معًا للاحتفال وتناول الطعام. سمي الطفل «هانلين» كاسم الطفل الذي أنجبته الأفعى البيضاء في المسرحية وتفوق على جميع أقرانه. أشار تشن تشانغ جيه إلى ينغ تاو وقال إنها هي التي أطلقت الاسم على الطفل. سارع يانشنغ وزوجته شياوفنغ يقولان: اسم جميل، اسم جميل، بالنظر إلى رأس هانلين المستدير وجبهته العريضة، فمن المؤكد انه سيكون ذا شأن.

بعد هذا اللقاء، التقيا ثانية عدة مرات بشكل متقطع. ولأنهما لم يعودا يلتقيان إلا نادرًا، لم يعرفا أخبار بعضهما سوى عن طريق الآخرين. يانشنغ سمع أن الطفل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هانلين أتم عامه الأول؛ وسمع ثانية بقدرة هانلين على الكلام، كان الطفل دائمًا يشكو أنه يرى كل ما حوله مغلفًا بالظلام، ففيّرت جدته اسمه إلى مينغ ليانغ (أي الضوء المشرق). بعد مرور عامين، سمع بتدهور العلاقة بين الزوجين وأنهما صارا يتشاجران باستمرار. ولأنهما نادرًا ما يلتقيان، صار الحديث بين الصديقين سطحيًا، ولم يعد أحد منهما يتحدث إلى الآخر عن شؤونه الخاصة. في أحد الأيام سمع يانشنغ أن ينغ تاو انتحرت شنقًا. لماذا انتحرت؟ بسبب حفنة من الكراث. قال لها زوجها بغضب: اذهبي إلى الجحيم، ثم غادر المنزل، حدث ما هو غير متوقع، شنقت ينغ تاو نفسها داخل المنزل. وذهب يانشنغ لتقديم واجب العزاء.

هناك عادة في يانجين خلال تقديم العزاء، وهي أن يخفض أهل المتوفى رؤوسهم أمام المعزين، لذا عندما رأى تشن تشانغ جيه صديقه قادمًا خفض رأسه، وعندما اقترب منه تشبث بيده وبكى، لم يكن لدى الصديق سوى كلمات المواساة فقال: لا داعي لأن تؤنب نفسك، الميت لن يعود ثانية، رد: زواجنا لم يكن قرارًا صائبًا، تسبّب في تعاستها، أدوارنا في المسرحية مختلفة، كنت الراهب وهي الأفعى، قال يانشنغ: المسرحية والحياة أمران مختلفان تمامًا.

كُتب على النعش «لترقد بسلام في عالم الخلود». أمامه وقف الابن مينغ ليانغ البالغ من العمر ثلاث سنوات يرتدي ملابس الحداد وهو يبكي ويتطلع إلى يانشنغ الذي قال لوالده: انسَ الماضي واعتنِ بطفلك، رد: جميع من في المقاطعة الآن يعرفون أنني تسببت في موت زوجتي، ولا يمكنني البقاء هنا بعد الآن.

- أنت وحدك من تعتقد ذلك.

- كنا نقضي وقتنا معًا كل يوم منذ بداية عملنا بالفرقة المسرحية وصولاً إلى عملنا في مصنع الآلات. أما زلت لا تفهمني؟

- أفهمك. ابقَ هنا ولا ترحل، يمكنك المجيء إليّ، وسنذهب معًا إلى مطعم «المارشال» لتناول الكوارع كما اعتدنا.

- أنت الوحيد الذي يمكنني أن أفصح له عما يدور بداخلي في يانجين بأكملها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد شهر واحد من جنازة ينغ تاو غادر تشن تشانغ ليعمل كوقاد في مستودع مدينة ووهان للقاطرات، رحل هو وابنه دون أن يخبر أحدًا.

بعد ثلاث سنوات، كتب رسالة إلى يانشنغ يخبره أنه سيتزوج مرة أخرى وطلب منه القدوم إلى ووهان لحضور حفل الزفاف. وصلت الرسالة إلى قسم مبيعات شركة الأغذية في الشارع الشرقي في يانجين. أنهى يانشنغ قراءة الرسالة التي ذكّرته بكثير من الأحداث الماضية التي نسيها. شعر أن عليه تلبية الدعوة. عاد إلى بيته ليلاً بعد انتهاء العمل، تناقش مع زوجته شياوفنغ في أمر الذهاب إلى ووهان. في ذلك الوقت لم يكن صدر شياوفنغ وحده هو الممتلئ، بل امتلأ جسدها بالكامل أيضًا؛ لم تعد تطلب منه أن يلعب معها دور الشاب شيو شيان خلال الليل، ولم تعد تتقمص دور الأفعى البيضاء التي تبرع في التلوّي بجسدها. سمعت من زوجها عن نيّته الذهاب إلى ووهان، فقالت بشكل غير متوقع: لا.

- هذا صديق قديم. يجب أن ألبي دعوته. عندما ماتت زوجته قال إنني أنا الوحيد الذي يمكنه أن يفصح له عما يدور بنفسه في يانجين بأكملها.

- لا يهمني إذا كانت زوجته قد ماتت وهو الآن يريد الزواج بأخرى، أريد فقط أن أسألك: من سيدفع مصاريف السفر إلى ووهان؟

- أنا.

- وبما أنك ستذهب لحضور حفل زفافه، هل ستعطيه نقوطًا أيضًا؟

- بالطبع.

- ووهان ليست قريبة من يانجين. وأنت لا تتحصل سوى على ستين يوانًا في الشهر. ألن يفوق ثمن تذكرة الحافلة بالإضافة إلى النقوط راتبك لمدة شهرين؟ لقد كنت أشعر بالمرض خلال الشهرين الماضيين، وكان جسدي بالكامل يتصبب عرقًا، لكني تحاملت، ألم يكن من الأفضل الاهتمام بي عن الاهتمام بصديقك؟

لم يتوقع تصاعُد الأمر إلى هذا الحد. بعد بضع سنوات من الزواج تزداد احتماليات تعقُّد الأمور، حاول تهدئة الموقف قائلاً: أنا فقط أتشاور معك بشأن الذهاب،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وسنتشارك في أخذ القرار.

بعد ذهابه إلى العمل في اليوم التالي طلب من منغ العجوز الذي يبيع التبغ والكحول في المتجر المجاور الاعتناء بمتجره، ثم ذهب لمقابلة بعض الزملاء الذين عملوا معه في السابق في الفرقة المسرحية، وبعدها ذهب لمقابلة بعض الزملاء الذين عملوا معه لاحقًا في مصنع الآلات، سألهم جميعًا إذا ما كانوا على علم بزواج تشن تشانغ جيه في ووهان، وما إذا كان أي منهم سيذهب لحضور حفل الزفاف. وجدهم على غير علم بأمر الزواج؛ حتى إن بعضهم نسوا من يكون تشن تشانغ جيه، وبعدما يتذكرونه يقولون: «أوه، أوه، أليس هو ذلك الشخص الذي تسبب في انتحار زوجته؟». بدا واضحًا أنه لم يخبر أحدًا سواه في يانجين بأمر الزواج. وهذا يعني أن عدم حضوره سيكون لافتًا؛ ولكن هذا ليس مهمًا، المهم أن دعوته دون الباقين تعني أنه يعتبره صديقه الوحيد في يانجين، وإذا لم يذهب سيعتبر ذلك خيانة للصداقة، ناهيك عن أنه قال في نهاية الرسالة: «سأخبرك بالتفاصيل عندما نلتقي»، ماذا يمكن أن تكون هذه «التفاصيل»؟ لكن ذهابه سيثير أزمة بينه وبين زوجته، وهي محقة في اعتراضها، فتذكرة القطار ذهابًا وإيابًا تكلف أكثر من مائة يوان؛ كما أن النقوط لن يقل عن خمسين يوانًا؛ وبالتالي ستكون التكلفة الإجمالية حوالي مائتي يوان؛ وبالنظر إلى راتبه الشهري الذي لا يتعدى خمسة وستين يوانًا، فراتب شهرين لن يكفي هذه الرحلة، تنهّد يانشنغ وهو يقول: «ماذا أفعل، ماذا أفعل؟ كيف العمل، كيف العمل؟».

حتى يتجنب سوء الفهم، كتب يانشنغ رسالة إلى تشن تشانغ جيه. في البداية، هنأه على زواجه، ثم قال: «كان يجب أن آتي لأهنئك، لكني تعرضت لالتواء في الكاحل الأسبوع الماضي، ولا أستطع المشي». وفي النهاية كتب: «ألتقيك في قادم الأيام، حينها سنتحدث بالتفصيل». وهكذا خلّص نفسه من الورطة.

2

عند المعبر الشمالي لمدينة يانجين، يوجد مطعم «وو ذو الفم الكبير لحساء الضأن». خلال فترة تعارف يانشنغ وزوجته لاحقًا شياوفنغ، ظلا يأتيان إلى المطعم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأكثر من شهر لتناول الحساء. في يانجين خمسون أو ستون مطعمًا تقدم هذا الحساء، لكن أكثرها رواجًا هو هذا المطعم. وبخلاف بيعه لحساء لحم الضأن يبيع أيضًا لحم الضأن المشوي والمسلوق، والمعكرونة بلحم الضأن وما إلى ذلك. المطاعم الأخرى تفتح أبوابها خلال النهار وتغلق في الليل، بينما وو ذو الفم الكبير يغلق أبوابه نهارًا ويفتح ليلاً حتى صباح اليوم التالي، ولا ينقطع تدفق الزبائن حتى بعد حلول الرابعة أو الخامسة صباحًا. الجميع يأتون لتناول الحساء الطازج واللحم الطري، والسبب هو أن صاحب المطعم يذبح الأغنام الحية عصر كل يوم.

«وو ذو الفم الكبير» قصير القامة بدين، رأسه مستدير، وله بطن كبير، وجهه خالٍ من الشعر. يدخل كل يوم إلى الحظيرة، يسحب خروفًا، فيتعالى ثغاء الخروف وتتبعه بقية الخراف، يضعه على طاولة الذبح ويقول: توقف عن الثغاء، ذلك لن يُجدي نفعًا، إذا لم أذبحك أنا فسيفعل غيري. يُكمل: لديّ مطعم أكسب منه رزقي، وشراؤك كلفني الكثير من المال، هل تظن أنك أتيت لتعيش حياتك حتى تهرم؟ لا لوم عليك، ولا عليّ أيضًا، كونك خروفًا هو السبب، سأطبخك الليلة لا محالة، وليس أمامك سوى الاستسلام ولترقد روحك في الجنة بسلام، تذكّر أن وقوعك في يدي هو قدرك أيضًا.

يجز عنق الخروف بالسكين، ينقطع ثغاؤه، تتوقف بقية الأغنام في الحظيرة عن الثغاء. ثم يتدفق الدم من عنق الخروف ويسيل حتى يملأ الحوض الحديدي أسفل طاولة الذبح.

هكذا يدخل وو ذو الفم الكبير كل يوم بسكين بيضاء ويخرج بسكين حمراء. وباستثناء الحديث إلى الأغنام عند ذبحها، لم يكن وو ذو الفم الكبير يتحدث كثيرًا، فهو لا يحب الثرثرة. خلال فترة تعارف تشن تشانغ جيه وينغ تاو، كانا يذهبان إلى مطعمه. لم يكن تشن تشانغ جيه يتوقف عن الحديث وإلقاء النكات أمام ينغ تاو. وكلما ألقى نكتة تنفجر ضاحكة، حينها يرمقهما وو بطرف عينه، ثم يستدير ويدخل إلى المطبخ. في وقت لاحق، عندما تعرّف يانشنغ إلى شياوفنغ، كانا يأتيان إلى هنا لتناول حساء الضأن. حينها كان وو يتعمد تجاهل يانشنغ، فهو يعتقد أن جميع هؤلاء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممثلين يحبون الثرثرة، ولم يكن يعلم أنه على الرغم من أن يانشنغ يعمل ممثلاً، فإنه لا يحب الثرثرة مثل تشن تشانغ جيه.

الشخص الذي يعمل في كنس الشوارع عند التقاطع اسمه قو باوتشن. ورغم مهنته كان الصديق المقرب من وو ذي الفم الكبير. ويعود السبب في صداقتها إلى اشتراكهما في كراهية الثرثرة. ما دمنا قد فعلنا، فما الداعي للحديث؟ ما المضحك في هذا العالم لكي نمزح طوال اليوم؟ لهذا السبب عندما يأتي الآخرون إلى المطعم لتناول حساء الضأن يتجاهل وو الحديث إليهم ولا يهتم سوى بجمع المال فقط، ولكن عندما يأتي قو باوتشن يرافقه وو ذو الفم الكبير لتناول بعض الطعام والشراب. عادةً ما يكون هناك أربعة أطباق، طبق فول سوداني مسلوق، طبق مخلل، طبق بيض مقلي، وطبق لحم ضأن مفتت يتناوله قو باوتشن وحده، لأن وو لم يعد يأكل لحم الضأن. بينما الطاولات بجانبهم تعج بالأصوات والضجيج، يجلس الصديقان، يتناولان الطعام، يشربان النبيذ، ولا يتحدثان سوى بعبارات قليلة، فقط يرفعان كأسيهما ويشيران إلى بعضهما البعض. من يراهما يعتقد أنهما يشربان بسبب الهموم، ولا يدري أنهما منتشيان. في مرة قال يانشنغ: على هذه الطاولة يعلو الصمت على الصوت.

في تلك الليلة، جاء قو باوتشن لتناول الشراب رفقة صديقه. كالعادة شرب الاثنان زجاجتين في صمت، وفي صباح اليوم التالي، استيقظت عائلة وو فوجدوه ميتًا على السرير. نقلوه إلى المستشفى، فتبين أنه مات بسبب احتشاء عضلة القلب.

أخت وو ذي الفم الكبير الصغرى تعمل في تقطيع الحلوى بمصنع يانجين للحلويات؛ هي تقطع الحلوى وشياوفنغ تغلفها. وعلى الرغم من أنهما لا تعملان في العنبر نفسه، فإنهما زميلتان. أخطرت الأخت الصغرى زميلتها بأمر جنازة أخيها. في اليوم التالي طلبت شياوفنغ من يانشنغ الذهاب معها إلى بيت عائلة وو لحضور مأدبة الجنازة. سألها: إذا ذهبنا هل سنعطيهم بعض المال؟ أجابت: بالطبع.

تذكّر يانشنغ أنها لم تسمح له بحضور حفل زفاف صديقه قبل بضعة أيام، غمغم قائلاً: يمكننا حضور المناسبات التي تخص أصدقاءك، أما أصدقائي فلا. علمت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقصده فقالت بغيظ: هل يستوي هذا وذاك؟ صديقك سيتزوج في ووهان، لكن وو ذي الفم الكبير توفي هنا في يانجين. وأضافت: «وهل نقوط العرس كتبرع الجنازة؟».

وفقًا للأعراف المتبعة في يانجين، لم يكن نقوط العرس يقل عن خمسين يوانًا، أما تبرع الجنازة فلم يكن يقل عن عشرين يوانًا. لذلك خشي يانشنغ أن يتسبب كلامه في إثارة مشكلة فتتعقد الأمور، قاطعها: أنا فقط أتشاور معك، لا تأخذي الأمر على محمل الجد، وأضاف: أعلم أنك تخشين أنك إذا دفعت عشرين يوانًا، فلن تأكلي بقيمتها لو ذهبت وحدك، لذلك طلبتِ مني الذهاب معك.

فابتسمت شياوفنغ ابتسامة ماكرة.

أقيمت مأدبة عائلة وو الجنائزية في «مطعم وو ذو الفم الكبير لحساء الضأن». دعت العائلة عددًا كبيرًا من الضيوف، بلغ عدد الطاولات سبع عشرة أو ثماني عشرة طاولة، لكل طاولة عشرة أشخاص. جلس يانشنغ مع شياوفنغ على الطاولة نفسها، من بين الجالسين عليها هناك من يعرفونه وهناك من لا يعرفونه، لكن بعد شرب ثلاثة أكواب من النبيذ، صار الجميع يعرفون بعضهم. وأثناء الطعام تحدّث الجميع عن الموت المفاجئ لوو ذي الفم الكبير.

- في تلك الليلة، كان يجلس رُفقة قو باوتشن يشربان النبيذ، هناك على تلك الطاولة.

- من كان يظن أن يموت شخص قوي البنية مثله بأزمة قلبية؟

- أعتقد أنه بسبب الإفراط في الشراب، لقد شرب زجاجتين رفقة كناس الشوارع.

- أعتقد أنه بسبب وزنه الزائد أيضًا، فطوله لا يتعدى مترًا وستين سنتيمترًا، ووزنه يفوق المائة كيلوجرام.

- أعتقد أن السبب هو أنه ذبح الكثير من الأغنام، تلك الأرواح هي التي اقتصت منه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجملة الأخيرة قالها أحدهم هامسًا.

في هذا الوقت، جاء شقيق المتوفى الأصغر ليشكر الحضور على واجب العزاء، قال: توقفوا عن هذا الهراء، لقد سمعت كل ما قيل، لقد مات بأزمة قلبية، وليس عقابًا أو قصاصًا.

- وما سبب الأزمة القلبية؟

- سببها النكات.

الأخ الأصغر، عكس أخيه وو، محب للثرثرة، لذا ناله التوبيخ الكثير في حياة أخيه أثناء عمله في المطعم كنادل، كان عندما يرى أخاه الأكبر قادمًا من بعيد يتوقف عن الكلام ويتظاهر بالانشغال في العمل؛ والآن بعد وفاته شعر بالحزن والارتياح أيضًا؛ فلن يوبخه أحد على كثرة الكلام بعد الآن.

- مات بسبب النكات؟ هل تقصد...

قاطعهم الأخ الأصغر وقال: المعنى واضح للغاية. لقد قابل أخي الأكبر هوا آرنيانغ. أضاف: في تلك الليلة، شرب أخي زجاجتين من النبيذ رُفقة قو باوتشن، ثم نام. في الماضي كانا يشربان الكمية نفسها ولم يصب بمكروه، لماذا توفي بشكل مفاجئ هذه المرة؟ لم يكن أخي الأكبر يتوقع أن تأتيه هوا آرنيانغ في المنام وتطلب منه إلقاء نكتة؛ أخي شخص جاد قليل الكلام، فكيف يمكنه إلقاء النكات؟ شعرت هوا آرنيانغ بالانزعاج، طلبت منه أن يحملها على ظهره ويذهب بها لتشرب حساء الفلفل الحار، وفي غمضة عين تحولت إلى جبل، وأطبقت عليه فقتلته.

لقد مكثت هوا آرنيانغ في يانجين لأكثر من ثلاثة آلاف عام؛ وهناك العديد من حوادث قتل الناس في منامهم بسبب النكات تقع في يانجين كل عام، ولم يعد أحد يتفاجأ بهذا الأمر؛ هناك المئات يموتون بالسكتة القلبية في يانجين كل عام، ولكن هل ماتوا بشكل طبيعي أم كانت هوا آرنيانغ هي التي أطبقت عليهم فقتلتهم؟ هذا أمر من الصعب معرفته؛ سأله الحضور: وما التفسير في حالة أخيك؟ كيف قطعت بأن هوا آرنيانغ هي من فعلت ذلك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لوّح لهم بيده وقال: أخي لديه رأس مستدير، أليس كذلك؟ أثناء نقله إلى التابوت كان رأسه مفلطحًا؛ أخي لديه بطن كبير، أليس كذلك؟ صار رقيقًا كقطعة من الورق؛ الجبل الذي أطبق عليه السبب. أكمل: أخبرت السيد سيما نيو بهذا الأمر، فجاء إلى هنا للتحقق مما حدث، وبعدما رأى جثة أخي قال إن هوا آرنيانغ هي التي فعلت ذلك.

يعيش سيما نيو مع عائلته عند المعبر الجنوبي للمدينة، يعمل مدرس كيمياء في مدرسة يانجين الإعدادية. وإضافة إلى تدريس الكيمياء، أحب القصص الأسطورية الغريبة التي تعود إلى عصر سلالة وي الشمالية(6) وجين الجنوبية والشمالية. نظرًا لأن هوا آرنيانغ سافرت آلاف الأميال وصولاً إلى يانجين، ومكثت بها لأكثر من ثلاثة آلاف عام، قرر سيما نيو كتابة سيرتها. ووفقًا لما قاله، فالكتاب لن يحكي فقط عن أفعالها في يانجين، لكنه أيضًا دراسة عن وقوع ذلك التفاعل الكيميائي بينها وبين يانجين بسبب النكات؛ وكل ما يتعلق بحياتها هنا. لقد ظل يجمع معلوماته لأكثر من ثلاثين عامًا. بمعنى آخر، هو خبير في دراسات هوا آرنيانغ؛ وبما أن هوا آرنيانغ هي التي تسببت في موت وو ذي الفم الكبير، فليس هناك شك في ذلك.

أضاف الأخ الأصغر: في منتصف ليل ذلك اليوم، سمعت صوت زوبعة صغيرة في الفناء، دائمًا ما كان يوبخني على حماقتي، فلماذا لم يأخذ حذره. قال أيضًا: لطالما عبس في وجه الجميع، لم يعرف أهمية النكات. ثم شكر الجميع على حضورهم.

تعالت أصوات الحضور وهم يقولون: «بما أن سيما نيو قال ذلك، فهوا آرنيانغ هي السبب الحقيقي خلف موته». ثم راحوا يتجادلون حول قصة الجنية التي تطلب من الناس إلقاء النكات.

- هوا آرنيانغ مخطئة فيما فعلته، هي تعلم جيدًا أن وو ذا الفم الكبير شخص صارم، ومع ذلك جاءت إليه في المنام ليُلقي لها نكتة.

- هذا ما يسمى العدالة. هي لا تنتقي الأشخاص، وإلا فسيكون ذلك انحيازًا متعمدًا.

- لقد مكثت هوا آرنيانغ في يانجين لأكثر من ثلاثة آلاف عام، صارت مثل الضمادة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فوق الجرح، لا يمكن نزعها.

- هذا هو مصير يانجين المحتوم. ولم يكن بوسع أسلافنا سوى التعايش مع وجودها بينهم.

- ومع ذلك، فوجود هوا آرنيانغ هنا له فوائده أيضًا، فبسبب وجودها في يانجين أصبح أهل المكان يتحلون بروح الدعابة المعروفة عنهم.

- من ليس لديه روح دعابة سيذهب معها لتناول حساء الفلفل الحار.

- ربما كان على وو ذي الفم الكبير أن يطلب من هوا آرنيانغ قبل أن تقتله أن يأخذها لتناول حساء الضأن بدلاً من حساء الفلفل الحار.

ضحك الجميع، بمن فيهم يانشنغ وزوجته.

قال شخص آخر: الأخ الأصغر على حق، اللوم يقع على وو ذي الفم الكبير، فبصفته من أبناء يانجين كان عليه أن يجهز نكتة قبل النوم. ضحك الجميع مجددًا. ثم قال آخرون: علينا جميعًا أن نكون حذرين في المستقبل.

نهض يانشنغ وذهب إلى المرحاض الواقع في الفناء الخلفي. بجانب المرحاض حظيرة الأغنام. كانت الأغنام خافضة رؤوسها تتناول العشب وكأن شيئًا لم يحدث. تنهّد يانشنغ وقال: لقد ذبح عددًا لا يُحصى من هذه الأرواح، لكنه لم يتوقع أن يموت على يد هوا آرنيانغ بسبب النكات. لم يحدث أن زارت هوا آرنيانغ يانشنغ في أحلامه، فهو مثل وو ذي الفم الكبير لا يحب كثرة الكلام، ولو زارته في أحلامه فلن يكون مصيره أفضل من مصير صاحب الفم الكبير، لذلك عليه أن يحفظ بعض النكات على وجه السرعة، لكنه فكر ثانية: هو شخص صارم، حفظه للنكات سيجعله يشعر بالضيق؛ ولو لم يمت بسبب هوا آرنيانغ فسيموت بسبب الضيق، سيصبح هو نفسه مزحة. فكر ثانية، هناك أكثر من نصف مليون شخص في يانجين، وهوا آرنيانغ تظهر في الأحلام بحثًا عن النكات، ولربما لن يأتي عليه الدور. لكن عليه ألا يستخف بالأمر، وألا يبالغ في القلق أيضًا، فلو ظل قلقًا طوال الوقت، فسوف يموت بسبب ذلك. أصبح كالأغنام في الحظيرة، ذُبح أحدها على يد وو ذي الفم الكبير، فأصيبت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بقيتها بالذعر، وانخرطت في الثغاء، ثم عادت تتناول العشب وكأن شيئًا لم يكن. هذه هي يانجين. فكّر ما إذا كان بإمكان الأخ الأصغر الاستمرار في فتح مطعم حساء لحم الضأن بعد موت أخيه، لو استمر في فتح المطعم سيكون المالك الجديد شخصًا ثرثارًا، سيكون مذاق حساء الضأن مختلفًا بالتأكيد. وإذا لم يستطع الأخ الأصغر الاستمرار في فتح المطعم فسيتعين عليه الذهاب إلى مطعم «المارشال» لتناول الطعام.

3

على مدار سبعة أو ثمانية أيام تلت، ظل يانشنغ يشعر بالاكتئاب على فترات متقطعة. حينها كانت هناك أغنية منتشرة في يانجين عنوانها «كل واشرب»، تقول: «كل واشرب، لا تُحمّل نفسك الهموم، فمصيرك ليس بيدك، ولا جدوى من القلق؛ لا تخف من أي شيء، فالسماء لن تسقط على الأرض؛ كل واشرب، فليس هناك شيء آخر يمكنك فعله...». كان الجميع يحبون غناءها، وكذلك يانشنغ؛ يواجه ما يكدر صفوه فيغني هذه الأغنية فيزول الكدر ويهدأ البال، لكن هذه المرة ظل يغني كثيرًا دون أن يهدأ باله، بل على العكس زاد اكتئابه بشكل أكبر. ظل يفكر في السبب، لكن لم يكن هناك سبب، فهو يذهب إلى العمل في متجر المواد الغذائية كل يوم، يتناول ثلاث وجبات في البيت، لا يوجد أي اختلاف عما كانت عليه حياته في الماضي. كما أنه لم يتشاجر مع زوجته ولم يواجه أي مشكلة مع زملائه في الآونة الأخيرة. وعلى حد تعبير منغ، العجوز الذي يبيع السجائر والكحول في المتجر المجاور، هو الآن يبحث لنفسه عن المتاعب، رغم أن تداعيات هذه المتاعب واضحة بشكل ملموس. كان قليل الكلام، لكن كلامه صار أقل الآن، لا ينطق ثلاث عبارات في اليوم، يحب أن يجلس وحده في شرود. عندما يكون في المتجر، كثيرًا ما يخطئ في طلبات الزبائن، من يطلب الخل يحضر له صلصة الصويا، ومن يطلب الفلفل يحضر له الكمون؛ وأثناء تناول الطعام، يضع عيدان الطعام من يده ويحدق من النافذة في شرود. تسأله زوجته عما يشغل فكره، فينتبه ويجيب في عجالة: لا شيء.

تستيقظ زوجته خلال الليل، تجده جالسًا جانب السرير، ساقاه تتدليان على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأرض، يحدق بهدوء في الظلام خارج النافذة. مرة أخرى استيقظت على صوت في الغرفة فرأته يتطلع إلى الظلام خارج النافذة، يبكي ويدندن بصوت خفيض أغنية أسطورة الأفعى البيضاء: «ماذا أفعل، ماذا أفعل؟ كيف العمل، كيف العمل؟»، صاحت فيه: يانشنغ، هل تريد أن تقتلني رعبًا؟

اصطحبت شياوفنغ زوجها إلى مستشفى المدينة لإجراء فحوصات طبية، قياس ضغط الدم، تحليل للدم، رسم صورة للقلب، فحص بالأشعة المقطعية للأعضاء الداخلية، وتبين أنه لا يعاني من أي أمراض. اصطحبته إلى مستشفى الطب النفسي بالمقاطعة لإجراء فحوص نفسية، كانت النتيجة طبيعية للغاية.

- من الواضح أن هناك خطبًا ما، لكن الفحوص تثبت غير ذلك، هذا أمر لا يطاق.

- لا أريد أن أتصرف بهذه الطريقة، لكني لا أستطيع التحكم في نفسي، لا داعي لأن تقلقي بشأني مهما حدث.

بكت الزوجة وقالت:

- أنت مُصر على إخافتي، هل تريد أن تقتلني رعبًا قبل أن تموت؟

تذكرت شيئًا ما، فسألته: هل قابلت هوا آرنيانغ في المنام؟ هز يانشنغ رأسه نافيًا وقال: لو كنت قابلتها لكان مصيري مثل مصير وو ذي الفم الكبير، قالت: عليك أن تسرع وتحفظ بعض النكات، فلربما تزول همومك.

هز يانشنغ رأسه مرة أخرى، وقال بضيق:

- لا تمازحيني، فحتى أغنية كل واشرب نفسها لم تُجد نفعًا.

- إذن ما السبب؟

- إذا علمت السبب فسيزول القلق.

في وقت لاحق، انخفضت شهيته بشكل ملحوظ. بعد شهر، فقد الكثير من وزنه، برزت تجاويف عينيه، انكشفت عظام وجنتيه. قال منغ العجوز:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا يمكنك الاستمرار على هذا النحو.

- يداهمني شعور بالضيق يزداد لدرجة تجعلني غير راغب في العيش.

- في هذه الحالة عليك الذهاب إلى دونغ العجوز، وإذا قررت الذهاب يمكنني مصاحبتك.

4

دونغ العجوز عزّاف في يانجين. ووفقًا لكلامه عن نفسه، هو أعمى بعينين مفتوحتين، وُلد أعمى، ولم يرَ كيف يبدو العالم، ولا كيف يبدو الناس. لم يعرف الملامح سوى عن طريق تحسس وجوه من يقرأ لهم الطالع. لكن وفقًا لكلام الناس، دونغ العجوز رجل أعمى، لكنه ليس أعمى تمامًا، يمكنه معرفة ما إذا كان من يمرون أمامه رجالًا أم نساء، وقال بعضهم إنه رأى دونغ العجوز يسير في الشارع ممسكًا بعصًا من الخيزران يستكشف بها طريقه، ثم هطل المطر فجأة، فرآه يضع عصا الخيزران تحت إبطه ويهرول مسرعًا على طول الطريق إلى المنزل. أثناء عمل يانشنغ في مصنع الآلات ذهب رُفقة تشن تشانغ جيه ذات مرة إلى مطعم «مارشال» لتناول الكوارع. وهما يأكلان، جاء العجوز يتحسس بعصاه، جلس بجانبهما، وطلب طبقًا من الكوارع. بعدما انتهيا من الكوارع، لم يكن دونغ قد تناول سوى نصف قطعة فقط. حاول تشن تشانغ جيه ممازحة دونغ، استغل فرصة انشغاله في لعق أصابعه، وأخذ نصف قطعة الكوارع من طبقه، وضع مكانها قطعة العظم التي انتهى هو من تناولها، التقط دونغ قطعة العظم. شرع يقضمها وهو يغمغم، كيف انتهيت من تناول طبقي بهذه السرعة، أتذكر أنني لم أنتهِ منها. وكما يقول المثل: لا تصدّق ما تسمعه، فقط صدّق ما تراه، حينها صدّق يانشنغ أن دونغ العجوز أعمى تمامًا.

بغضّ النظر عما إذا كان نصف أعمى أو أعمى تمامًا، فالمبصرون عادة يطلبون المساعدة منه عندما يواجهون مشاكل لا يمكنهم حلها أو فهمها في هذا العالم. إذا فقد أحدهم كلبه أو محراثه أو شخصًا ما يذهب إليه، يسأله عن مكانهم وطريقة العثور عليهم؛ وإذا عانى أحد أفراد الأسرة من السرطان، أو كان أحد الأبناء على وشك خوض الامتحانات، يذهب رب الأسرة إليه لمعرفة ما إذا كان من الممكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

علاج هذا المرض، وما إذا كان من الممكن النجاح في الامتحان؛ وإذا تعرّض أولئك الذين يعملون في التجارة أو المسؤولون لأي انتكاسة، يذهبون إليه لمعرفة مستقبل تجارتهم وما إذا كان المسؤول سينجو من الملاحقة. باختصار، كل من يأتي لزيارته هم أشخاص يعانون من مشاكل، ومن لا يعاني من مشاكل لا يذهب لزيارته، تمامًا كما يذهب المرضى إلى المستشفى. عندما يأتي شخص ما إليه يخبره بمشكلته، يسأله دونغ عن اسمه وتاريخ ميلاده، ثم يُجري بعض الحسابات على أصابع يده، بعدها يتحسس عظام جسده بيده، وما يُعرف بتحسس العظام يعني تحسس حوالي 206 عظمة يتكون منها جسم الإنسان، بعدها يخبر هذا الشخص بما يخبئه له المستقبل. وفقًا لكلام دونغ العجوز، فإنه تحسس بيده آلاف الأشخاص على مدار العقود القليلة الماضية، وهذا أمر جعله يشعر بالحزن. والسبب هو أن الآلاف من الأشخاص الذين تحسس عظامهم لم يكن لديهم عظام بشرية، فمعظمهم كانوا في حياتهم السابقة خنازير أو أغنامًا. سأله بعض الناس: هل يُعقل ألا يكون من بين هؤلاء أناس كانوا في الأصل بشرًا في حياتهم السابقة؟ رد: نعم هناك، قو باوتشن، الذي يكنس الشوارع عند التقاطع، كان جده حاكمًا عسكريًا خلال السنوات الأولى لتأسيس جمهورية الصين، وأصبح هو فيما بعد وزيرًا؛ لكن لأنه قتل الكثيرين في حياته السابقة؛ تحول إلى كناس لينظف جسده من ذنوبه الماضية.

بجانب قراءة الطالع وتحسس العظام، كان دونغ العجوز يوصل الرسائل، رسائل الأحياء إلى الموتى؛ أو العكس؛ يخبره الشخص بتاريخ ميلاده وتاريخ وفاة الميت، وبعد أن يمارس دونغ بعض الطقوس، يكون قادرًا على إرسال الرسائل بينهما. حينها ينقل للبشر كلام الأشباح، وينقل للأشباح كلام البشر. وبجانب إرسال الرسائل، يمكنه أيضًا نقلها مباشرة، أي جعل الأحياء يرون الموتى، حيث يحضّر روح الراهب العظيم تشاو. وعند الوصول إلى مرحلة تلاقي الأرواح، يقدم قربانًا إلى روح الراهب، فتتلبس روح الميت جسد دونغ، وحينها يتمكن الحي من مقابلة الميت. هناك بعض الأشخاص الذين مات آباؤهم أو أمهاتهم منذ فترة قصيرة ويرغبون في مقابلتهم، ليقولوا لهم كلامًا لم يقولوه لهم وهم على قيد الحياة، أو يسألوهم عن مكان إخفاء النقود، لذلك يطلبون من دونغ مقابلتهم بشكل مباشر؛ حينها يمسك الشخص بيد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دونغ العجوز، أي يد أبيه أو أمه المتوفين، ويقول متلعثمًا: لم أكن أتوقع أن نلتقي ثانية؛ أو يقول بوجه شاحب: «أبي، أين أخفيت المال؟».

بعض الناس يريدون معرفة مصيرهم في العالم الآخر، لكنه يهز رأسه ويرفض، لم يفعل ذلك قط. قال: هذه أسرار سماوية لا يمكن تسريبها، وذلك لمصلحة الناس. فلو علمت ما الذي ينتظرك في الحياة، وعلمت ما الذي ينتظرك في العالم الآخر، فما المغزى من الحياة إذن؟ عليك أن تفهم حياتك، لكن لو فهمتها حقًا، فقد لا ترغب في العيش.

يعلم الجميع أيضًا أن حديث هذا الرجل ليس سوى هراء. حتى إن بعضهم يسأله: أيها العجوز، كيف لشخص مثلك لا يمكنه حتى رؤية العالم من حوله، أن يرى أشياء لا يراها الآخرون؟ يرد قائلاً: لأنني لا أستطيع رؤية هذا العالم، يمكنني رؤية الأشياء التي لا يمكنكم رؤيتها. بالطبع هذا أيضًا هراء. لكن الناس عندما يواجهون مشاكل لا يمكنهم حلها لا يكون أمامهم خيار سوى التمسك بالهراء. ولولا هذا الهراء لمات الكثيرون في يانجين يأسًا؛ ولزاد عدد مرضى الاكتئاب فيها بمقدار الثلث.

يقرأ دونغ الطالع للناس، لا يطلب منهم أن يصدقوه، فالتصديق أمر يعود للسامع. بعدما يقرأ الطالع، يضيف بضع كلمات: «كلامي خيال محض، ليس سوى مجرد كلام». الغرفة التي يقرأ فيها الطالع تسمى «مرآة الزيف»، ويقصد من هذا عدم أخذ الكلام على محمل الجد.

كما وضع أيضًا لافتة على مدخل الباب مكتوبًا عليها: لا تدخل هذا الباب لو لمشكلتك حل ولا داعي أن تصدق كل ما يهذي به العميان، وكتب فوق عارضة الباب: تخلص من همومك.

ولأن دونغ العجوز والجنية هوا آرنيانغ يعيشان في يانجين، حدث أن سأله أحد الأشخاص: أنت لا تستطيع رؤية أي شيء، تفتح عينيك فترى الظلام، وتغمض عينيك فترى الظلام. فهل زارتك هوا آرنيانغ في أحلامك لتلقي لها بعض النكات؟ يرد ببساطة: النكات وقراءة الطالع كلاهما هراء، لذلك فلا داعي للهراء أن يستمع إلى بعضه. أكمل: هذا ما يسمى بسالب مع سالب يعطي موجبًا، ماء البئر لا يتدخل في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمور مياه النهر.

قد يكون هذا أيضًا هراء. وحتى لو لم يكن كذلك، فإن اعتماد هذا الأعمى على الهراء جعل منه الشخص الوحيد في يانجين الذي يمكنه الهروب من مصير نكات هوا آرنيانغ.

5

قرر يانشنغ أن يذهب إلى دونغ العجوز ويطلب منه قراءة الطالع علّه يتخلص من شعور الضيق الذي يدفعه لكراهية الحياة. وكالبقية، ففي مواجهة هذه المشكلة التي لا يستطيع حلها، لم يكن أمامه سوى الإنصات إلى هراء دونغ. ذهب إليه ولم يخبر أحدًا، حتى زوجته وجاره منغ، رغم أنه لا يوجد في قانون العرّافين ما يسمى عدم اصطحاب مرافق. في رحلته إلى المستشفيات، رافقته زوجته. لكن عندما طرأت على باله فكرة الذهاب إلى دونغ قرر فعل ذلك وحده، لا يريد أن يطلع الآخرون على ما يشغل باله حال كان العجوز دونغ قادرًا على معرفة ذلك بالفعل. ذهب حيث يقطن العجوز في زقاق الجنادب المتفرع من الشارع الشرقي للمدينة.

من المفترض ألا يجد ذلك الأعمى من توافق على الزواج منه بسهولة، لكن دخله الشهري من أعمال الدجل أعلى بعدة مرات من دخل عامل مثل يانشنغ الذي يبيع صلصة الصويا والخل والمخللات، لذلك لم يكن من الصعب أن يجد من توافق على الزواج منه. بالطبع، صحيحات البدن لن يرغبن في الارتباط به. المرأة التي وافقت اسمها السيدة كواي، لديها عين عمياء وعين صحيحة، لذلك فهي نصف عمياء، ولن يرضى بها أحد زوجة له إلا لو كان أعمى تمامًا. في وقت لاحق، أنجبا ابنًا وابنة، كلاهما صحيح البصر. هذه هي المرة الأولى التي يأتي فيها يانشنغ لمقابلة دونغ. بعد دخوله قابل ابنته التي يبدو أنها في السابعة أو الثامنة من عمرها، كانت تجري بالعصا خلف الدجاج وسط الفناء؛ عندما رأته، توقفت، سألته بلا اكتراث:

- ماذا تريد؟

- جئت لمقابلة والدك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل لديك حجز مسبق؟

تحتاج مقابلة هذا المخرف إلى حجز مسبق، تمامًا كما هو الحال عند زيارة الطبيب. أجابها يانشنغ:

- لم أكن أعرف ولم أحجز مسبقًا.

- إذن احجز اليوم وتعال في يوم آخر.

- لكني مستعجل.

- إذا كنت مستعجلاً فعليك دفع رسوم إضافية.

لم يتمالك نفسه من الضحك. تذكّر أنها المرة الأولى التي يضحك فيها منذ أكثر من شهر. حينها شعر بالألفة، وعرف أن مجيئه إلى هنا قرار صائب، قال للطفلة: سأدفع الرسوم الإضافية.

بعدها رأى عشرات الأشخاص مصطفين أسفل جدار المنزل، بعضهم قاعدون، والآخرون واقفون، ومنهم من جلس على جذع شجرة يحدق في السماء في حالة شرود. إذن كلام الطفلة صحيح، عدد كبير ينتظر الاستماع إلى الهراء في مواجهة مشكلات لا يمكن حلها، ليس وحده من يعاني من الضيق. تقدم ووقف من تلقاء نفسه في نهاية الصف.

عندما مالت الشمس من الشرق إلى الجنوب، بدأ الأشخاص الواقفون أمام يانشنغ في التسرب للغرفة واحدًا تلو الآخر. أربعة أو خمسة أشخاص حضروا بعده، أخيرًا حان دوره. دخل الغرفة، رأى صورة لراهب معلقة على الحائط في منتصف الغرفة تمامًا. سمع بتقديس دونغ لهذا الراهب الذي يُدعى تشاو، في الصورة كان الراهب الأكبر تشاو يرتدي لباس الرهبان الأحمر، يمسك بسوط فولاذي، ويمتطي حصانًا مجنحًا. ومكتوب فوق الصورة «مرآة الزيف». وعلى الطاولة أمام الصورة توجد مبخرة بها ثلاثة أعواد بخور مشتعلة. كان دونغ جالسًا خلف الطاولة، وأمامه رجل يصافحه ويقول: أنا الملوم، لكن كيف الخلاص؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رأت السيدة كواي يانشنغ يدخل من خلف الستارة، فتقدمت نحو الباب وأوقفته، أشارت إلى الرجل هامسة: انتظر قليلاً، فلديه أمر آخر يسأل عنه.

فهم، غادر الغرفة وانتظر بالخارج. حاول التلصص، سمع أصواتًا متداخلة، ميّز نحيب الرجل ثم صوت دونغ يقول: لا تبكِ فلا فائدة من ذلك. بعد قليل خرج الرجل وعيناه حمراوان، ثم سمع كواي تنادي على التالي. فتح الستارة، ودخل الغرفة مرة أخرى، جلس على المقعد المقابل لدونغ الذي قال: يُرجى من الضيف الإفصاح عن اسمه.

- أنا يانشنغ، بائع صلصة الصويا والخل والمخللات في المتجر الواقع في الشارع الشرقي.

- أتذكرك، لعبت دور الشاب شيو شيان في مسرحية أسطورة الأفعى البيضاء، لقد ذهبت للعرض مرة واستمعت إليه.

انتبه إلى كلمة استمعت، إنها ملائمة للخروج من فم أعمى، قال:

- كان هذا قبل سبع أو ثماني سنوات.

- لماذا قصدتني؟

- الهموم تعتصر قلبي، لا أعرف ما الذي يحدث، أريدك أن تقرأ لي الطالع لأعرف أساس مشكلتي.

أشارت السيدة كواي له ليتوقف عن الكلام، ثم سحبت أعواد البخور الثلاثة المتبقية في المبخرة الموضوعة أمام صورة تشاو، أشعلت ثلاثة عيدان جديدة، وضعتها في المبخرة. أدرك أن أعواد البخور الثلاثة التي سحبتها تخص الشخص الذي انصرف للتو، والآن جاء شخص آخر، لذا يجب إشعال عيدان جديدة. بمجرد أن فعلت نهض العجوز من مكانه، سار نحو المبخرة، تمتم ببعض العبارات، انحنى ثلاث مرات أمام صورة الراهب الأكبر تشاو المعلقة على الحائط، ثم عاد وجلس يتأمل قليلاً، وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يُرجى من الضيف الإفصاح عن تاريخ ميلاده.

أجابه، فبدأ دونغ يعد على أصابعه، بعدها أغمض عينيه، أخذ يفكر، بعد قليل عاد يعد على أصابعه مرة أخرى، ثم خبط بيده على الطاولة فجأة وقال:

- حسنًا.

ذهل يانشنغ للحظة، ثم قال:

- ماذا تقصد؟

- لا يوجد في قلبك هموم، بل شخص ما.

انتقض من على كرسيه خائفًا وقال:

- - شخص ما؟ من هو؟

- - شخص ميت بالطبع.

دهش يانشنغ مرة أخرى، فكيف يكون هذا الشخص ميتًا. فقال متلعثمًا:

- لماذا؟

- لا يوجد سبب، لقد تلبّس شخص ميت جسدك. والهموم التي تشعر بها ليست همومك، بل هموم الشخص الذي تلبّس جسدك.

- ومَن هذا الشخص؟

طلب العجوز منه الاقتراب، أخذ يتحسس عظامه، ذراعه وفخذه وصدره وظهره ثم رقبته ورأسه. حينها سأله يانشنغ:

- هل عرفته؟

- إنه يختبئ في مكان عميق لدرجة أنه لا يمكنني معرفة من هو.

- رجل أم امرأة؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحسس العظام مرة أخرى وقال:

- امرأة.

- امرأة، من هي؟ لا يمكن أن تكون هوا آرنيانغ، أليس كذلك؟

- هي تختبئ في معدتك منذ فترة، هل سبق أن أجبرتك على إلقاء النكات؟

هزّ يانشنغ رأسه وقال:

- لم يحدث.

- ما دام الأمر لا يتعلق بالنكات، فهي امرأة أخرى ليست هوا آرنيانغ.

- ومن تكون؟

- لا يمكنني معرفة ذلك.

- هل هناك طريقة لمعرفة من هي؟

- نعم، نبعث لها برسالة.

- لنفعل.

تدخلت السيدة كواي وقالت:

- لنتفق أولاً، قراءة الطالع لها تكلفتها، وإرسال الرسائل له تكلفة أخرى.

- هذا طبيعي، أتفهّم هذا الأمر.

نهض دونغ من مكانه، سار نحو المبخرة، تمتم ببعض العبارات، انحنى ثلاث مرات أمام صورة الراهب الأكبر تشاو المعلقة على الحائط؛ عاد وجلس يتأمل قليلاً، تحدث قائلاً:

- لقد فشلت عملية الإرسال.

- لماذا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- تلك المرأة أحنت رأسها وبكت، لم تقل من هي.

- إذن ماذا يجب أن نفعل؟ هل هناك طريقة أخرى؟

- نعم، يمكن التواصل المباشر. لن يمكنها التخفي أمام هذه الطريقة، سأكون قادرًا على رؤية وجهها بوضوح.

- لنفعل إذن.

تدخلت السيدة كواي وقالت:

- لنتفق أولاً، إرسال الرسائل له تكلفته، والتواصل المباشر له تكلفة أخرى.

- اطمئني، أحضرت معي ما يكفي من المال.

دخلت السيدة كواي إلى الغرفة الداخلية وخرجت حاملة عباءة حمراء وقبعة سوداء مسطحة، نهض دونغ العجوز يهز جسده، ثم ارتدى العباءة واعتمر القبعة لتصبح له هيئة الراهب الأكبر تشاو نفسها، كما أحضرت كواي وعاء به مياه نظيفة، غسل دونغ العجوز يديه ووجهه، ثم وقف أمام صورة الراهب، ركع على ركبتيه؛ سعل مرتين كمن ينظف حلقه، بدأ في ترديد بعض التعاويذ التي لم يفهمها يانشنغ، ثم أخذ يلف حول نفسه في دوائر، ثلاث مرات من اليمين إلى اليسار، وثلاث مرات بالعكس، أخذ يسير بخطوات صغيرة وسط الغرفة، وبينما هو يسير هكذا، لم يعد دونغ العجوز هو دونغ العجوز، بل بدا وكأنه امرأة. عندما شاهدها يانشنغ صرخ:

- لقد عرفت من هي تلك المرأة.

سأله العجوز بلهجة أنثوية: من أنا؟

- أنتِ ينغ تاو.

إنها تمشي بنفس طريقتها في المسرحية، تغني وتتلوّى بجسدها بنفس الطريقة، تؤدي دور الأفعى. لقد مثلا معًا ثماني سنوات، هو يعرف هذه المشية وطريقة الالتواء بالخصر جيدًا. تزوجت ينغ تاو من تشن تشانغ جيه الذي كان يلعب دور الراهب فاهاي؛ وتشاجرت ينغ تاو مع تشن تشانغ جيه بسبب حفنة من الكراث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وشنقت نفسها، مر على موتها أكثر من ثلاث سنوات. ما لم يستطع يانشنغ فهمه هو أنه لا علاقة له بانتحار ينغ تاو من الأساس، كما أنه مرت ثلاث سنوات، ومنذ ذلك الحين يفصل بينهما عالم الموت، لا يوجد أي رابط يجمعهما. فلماذا تلبست جسده منذ شهر تقريبًا؟ سأل:

- ينغ تاو، ماذا تريدين مني؟

- أريد منك أن تنقل رسالة إلى شخص ما.

بعد هذه الإجابة، بدا أن الأمر قد اتضح. لذلك أنهى دونغ الاتصال المباشر وتوقف مكانه. ساعدته كواي في خلع الرداء والقبعة. اكتشف يانشنغ أن رأس العجوز كان يتصبب عرقًا، بدا جسده كطنجرة يتصاعد منها البخار. مسح وجهه بمنشفة وقال:

- الاتصال المباشر أمر مرهق للغاية، عادة لا أرغب في إجراء الاتصال المباشر.

سارع يانشنغ يسأل بجدية: قالت إنها تريد توصيل رسالة إلى شخص ما، مَن هذا الشخص؟

عاد دونغ العجوز إلى هيئته الأولى، سلّم المنشفة المبللة إلى زوجته، وجلس على كرسيه، أغمض عينيه، وأخذ يعد على أصابعه. بعد فترة قال: شخص يعيش في الجنوب.

- أي مكان في الجنوب؟

عد العجوز على أصابعه مرة أخرى، بعد وقت طويل قال: مكان بعيد، على بُعد مئات الأميال.

- لا أعرف أحدًا يعيش على بُعد مئات الأميال.

- لا أعرف أكثر مما قالته حسابات التنجيم.

تذكّر يانشنغ أن ووهان تقع في الجنوب على بُعد مئات الأميال، وهناك يعيش تشن تشانغ جيه، زوج ينغ تاو السابق. منذ أكثر من شهر، دعاه لحضور حفل زفافه الثاني. أخبر دونغ بذلك. هزّ رأسه وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هذا كل شيء إذن.

- لكني لن أذهب إلى ووهان في المستقبل القريب، لا يمكنني إيصال رسالة إلى ينغ تاو.

- لا بد أنك قلت من قبل إنك ستذهب، حينها سمعتك ينغ تاو وتلبّست جسدك.

تذكّر يانشنغ أنه كان قد تحدّث عن الذهاب إلى ووهان منذ أكثر من شهر، لكن زوجته منعته بسبب كلفة السفر والنقوط، قال:

- صحيح أنني تحدثت عن الذهاب إلى ووهان منذ أكثر من شهر مضى، لكن كيف يمكن أن تكون ينغ تاو قد سمعتني عندما قلت هذا؟

- لا دخان بدون نار. إذا فكرت في الأمر مليًا من المؤكد أنت ستجد سببًا لذلك.

تذكّر يانشنغ أيضًا أن هناك ملصقًا دعائيًا لمسرحية «أسطورة الأفعى البيضاء» على جدار قسم المبيعات في المتجر الذي يبيع فيه صلصة الصويا والخل والمخللات، مكتوب أسفل الملصق العبارة التي اشتهرت بها المسرحية «ماذا أفعل، ماذا أفعل، كيف العمل، كيف العمل؟». لصقته الفتاة شياو باي التي تبيع التوفو والفلفل لأنها مولعة بالمسرحية. في اليوم الأول من التحاق يانشنغ بالعمل في متجر بيع صلصة الصويا والخل والمخللات، رأى الملصق فهز رأسه وتنهّد: «لقد كنت بالفعل ممثلاً بارعًا، ولم أتوقع أن ينتهي بي الحال هنا». في وقت لاحق التحق زوج شياو باي بالجيش فسافرت زفقته إلى مقاطعة قانسو. ظل الملصق معلقًا في مكانه على جدار المتجر. بمرور الوقت بهتت ألوانه، صار مغطى بالغبار، تدلى أحد أركانه، لم يعد أحد ينتبه لوجوده، حتى هو.

تذكّر أيضًا أنه عندما جاءه خطاب تشن تشانغ جيه، فتحه وقرأه داخل المتجر ثم أخذ يدردش مع منغ العجوز حول الأمر. ربما كانت صورة ينغ تاو الموجودة في الملصق المعلق على الجدار قد سمعت يانشنغ وهو يقرأ الرسالة ويتحدث إلى منغ. فمن كان يتخيل أن تكون صورة الفرقة المسرحية التي علقتها شياو باي هنا منذ سنوات هي مكان اختباء روح ينغ تاو.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سأل يانشنغ:

- هل يمكنك طرد ينغ تاو من جسدي الآن دون أن أضطر لتوصيل رسالتها إلى ووهان؟

- اقترب قليلاً، دعني أتحسس عظامك ثانية.

مارس دونغ العجوز طقوس تحسس العظام. وبعد قليل أبلغه بعدم جدوى ذلك.

- لماذا؟

- ليس من الصعب طردها، لكن بعد ساعة ستتلبّس جسدك ثانية. إنها عازمة على تنفيذ رغبتها، وإذا لم توصل رسالتها فستستمر في مضايقتك، إذا طلبت من عرّاف آخر طردها فسيفعل ذلك بالتأكيد، ثم ينتظر حتى تتلبّس جسدك مرة أخرى، ويساعدك في طردها مرة أخرى؛ ألن يطلب منك حينها دفع أموال إضافية؟ لكنني لست كذلك، لا يمكنني أن أخدعك. أنا لا أقول هذا لمصلحتك، بل لأني أعلم أنني سأبصر في حياتي القادمة إذا فعلت الخير.

أومأ يانشنغ برأسه تعبيرًا عن تفهُّمه، تدخلت السيدة كواي في حديثهما قائلة:

- يبدو أنه لا سبيل أمامك سوى الذهاب إلى ووهان.

- ليس لديّ سبب للذهاب إلى ووهان الآن، كان الزفاف في الشهر الماضي.

قال العجوز:

- هذا أمر يعود إليك.

- أنا لا أفهم. لم تربطني مع وينغ تاو أي قرابة، كذلك لا تجمعنا أي عداوة. لماذا لا تتركني وشأني وتبحث عن غيري لإيصال رسالتها؟

- من قال إنه لا روابط بينكما؟ في المسرحية لعبت دور الشاب شيو شيان بينما هي مثلت دور الأفعى البيضاء. لقد كنتما زوجًا وزوجة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كل شيء في المسرحية غير حقيقي.

- لا يهم إن كان حقيقيًا أم لا.

- وما تلك الرسالة التي تريد مني ينغ تاو توصيلها؟

- هذا أمر لا يمكنني معرفته، مهمتي انتهت هنا، والباقي متروك لك أنت وينغ تاو.

تدخلت كواي وقطعت الحوار قائلة: لقد انتهت المقابلة. ثم أشارت له ليغادر. لم يكن أمامه أي خيار سوى النهوض، دفع المال. التفتت تحو الباب ونادت: التالي.

بمجرد أن سار إلى الباب تذكّر شيئًا، توقف مكانه، قال للشخص الذي دخل للتو: أخي، انتظر قليلاً، فأنا لم أنتهِ من السؤال. غادر الشخص الغرفة، بينما عاد للعجوز وقال: أريد أن أسألك سؤالاً آخر. عبست السيدة كواي في وجهه وطلبت منه الرحيل. أشار لها دونغ وقال: هذا ليس شخصًا عاديًا، لقد كان شخصية شهيرة في يانجين في الماضي.

قال يانشنغ:

- طلبت مني ينغ تاو أن أوصل رسالة إلي تشن تشانغ جيه.. هل لهذا علاقة بموتها؟ أنا أعلم أنه المتسبب في انتحارها.

طلب العجوز منه الاقتراب، تحسس عظامه لبعض الوقت، ثم هز رأسه وقال:

- لا يمكنني المعرفة، إنها تتكتم على الأمر بشدة.

لم يكن أمامه أي خيار سوى الخروج. بلغ إجمالي الرسوم الإضافية ورسوم الاتصال المباشر 25.8 يوان، أي ما يفوق أجر عشرة أيام من العمل في المتجر. رغم من أن المبلغ كبير بعض الشيء، فإنه اكتشف أخيرًا سبب همومه. عند الخروج من منزل العجوز، أدرك فجأة أن ينغ تاو التي تتلبّس جسده كانت صاحبة فكرة القدوم إلى هنا، فلولا زيارته لدونغ ما عرف شيئًا.

حدّث نفسه قائلاً: «ينغ تاو، ما هي تلك الرسالة التي تريدين مني توصيلها؟».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يتوقع عودة روحها التي تسكن جسده إلى الحياة بعد اتصال العجوز المباشر، لكنها فعلت، ربما دونغ نفسه لم يتوقع هذا الأمر، تحدثت ينغ تاو من داخل جسده وقالت له: ستعرف عندما تنطلق في رحلتك.

- أليست مجرد رسالة؟ لست بحاجة للذهاب لتوصيلها، يمكنني أن أكتب خطابًا إلى تشن تشانغ جيه وأخبره برسالتك.

- لا، هذه الرسالة يجب أن تقال وجهًا لوجه.

- ما الفرق بين قولها وجهًا لوجه وقولها في رسالة؟

- الفارق كبير. عند الحديث وجهًا لوجه ستكون هناك ردة فعل مباشرة، لكن عندما تكتب له رسالة، فكم من الوقت سيمضي في انتظار الرد؟ هناك الكثير من الأشياء التي لا يمكن التهرب منها عند الحديث المباشر. أما من خلال الرسائل فمن السهل إيجاد عذر. منذ أكثر من شهر طلب منك تشن تشانغ جيه الذهاب إليه لحضور حفل زفافه. لو قال ذلك وجهًا لوجه، لما كان بإمكانك القول إن كاحلك قد التوى. أما من خلال الرسالة فكان من السهل أن تكذب عليه.

Telegram:@mbooks90

وجد كلامها منطقيًا، قال: «إذا وافقت على الذهاب إلى ووهان، فمتى ستخرجين من جسدي؟».

- «بمجرد أن تنطلق في رحلتك سأخرج».

تنهّد مغتاظًا، يبدو أن السفر إلى ووهان أمر لا بد منه.

6

بما أن الذهاب إلى ووهان قد صار أمرًا لا مفر منه لكي تخرج ينغ تاو من جسده، فقد كفّ عن التفكير في حلول أخرى. لكن كيفية الوصول إلى هناك أصبحت مصدر قلقه، فلكي يذهب عليه أولاً اجتياز زوجته، ستسأله عن السبب، خاصة بعد مرور حفل الزفاف، لا يمكنه إخبارها بحقيقة سكن امرأة بجسده. علاوة على ذلك، فهذه المرأة أدت دور زوجته في المسرحية؛ سيُجن جنون شياوفنغ لو سمعت مثل هذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكلام، ولو لم ترسله إلى مستشفى الأمراض العقلية فستذهب هي قبله.

قبل أيام قليلة، دار جدال بينهما بسبب رغبتها في الذهاب لجنازة وو ذي الفم الكبير. لقد قارن ذلك بالذهاب إلى ووهان، وفتح الحديث في الأمر مجددًا سيشعل خلافًا بينهما، لذا ليس عليه ذكر وجهته لها، أيضًا يجب عليه البحث عن عذر مقبول. تذكّر مسؤول قسم المبيعات الذي يسافر لشراء المخللات من مصنع لويانغ للمخللات كل شهر؛ ووفقًا للتوقيت الموسمي وحالة المبيعات الشهر الماضي، فالبضائع المطلوبة لهذا الشهر ستكون عبارة عن فجل حار، ملفوف حار، زنجبيل مخلل، ملفوف مخلل، كراث مخلل، ثوم مخلل، فول سوداني مخلل، وخيار مخلل، بعد الطلب تُحضر شاحنة المصنع البضائع المطلوبة إلى هنا.

منغ العجوز هو الذي يذهب إلى المصنع لإتمام الطلبية، رغم كونه يبيع التبغ والكحول في قسم مبيعات المواد الغذائية ولا علاقة له بشراء المخللات، لكن ابن عمه يعمل مديرًا لخط الإنتاج في المصنع، لذا عندما يذهب إلى هناك يمكنه طلب المخللات المعيبة -التي قطعها العمال بشكل مائل أو تفتتت خلال عملية التصنيع وما إلى ذلك، وباستثناء بعض الاختلافات الطفيفة في الشكل، فالطعم لا يختلف كثيرًا عن المنتج السليم بعد الانتهاء من النقع في براميل التخليل- ذات السعر الأقل بمقدار النصف عن المنتج السليم. في لويانغ تباع هذه المنتجات بسعر رخيص، ولكن عند شحنها إلى يانجين، يمكن لقسم مبيعات المواد الغذائية بيعها كمنتجات سليمة. فكّر يانشنغ في التشاور مع منغ ليذهب بدلاً منه، وعندما ينطلق في طريقه لن يذهب إلى لويانغ، بل يذهب مباشرة إلى ووهان؛ وبالنسبة لطلب المخللات الشهر المقبل، يمكن أن يكتب منغ رسالة إلى ابن عمه تحوي الأصناف المطلوبة وفقًا لمواسم السنوات السابقة وحالة المبيعات لهذا للشهر. لم تسمح له ينغ تاو بكتابة كلامها في رسالة، لكن منغ العجوز يمكنه ذلك. يتوقع ألا يرفض طلبه، لقد عملا معًا لأكثر من أربع سنوات، ولم يحدث أن وقعت بينهما أي مشكلة من قبل، كما أن زوجته لن تساورها أي شكوك حيال ذلك. هذا هو العذر الوحيد المناسب للسفر. المشكلة الآن تتمثل في ذهابه إلى ووهان بدلاً من لويانغ، فالمسافة بين الاثنتين بعيدة جدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تبعد يانجين عن مدينة لويانغ أكثر من مائتي كيلومتر، ولا تحتاج الرحلة ذهابًا وإيابًا بالسيارة وإتمام العمل سوى يومين على الأكثر، يوم للذهاب والعمل ويوم للإياب؛ بينما تبعد يانجين عن ووهان أكثر من ألف كيلومتر، وعليه أن يستقل القطار للذهاب، يتخلل الطريق محطات كثيرة يتوقف فيها القطار لوقت طويل، تستغرق الرحلة ذهابًا وإيابًا حوالي أربعة أيام. بعد الوصول إلى ووهان سيركب سيارة من محطة القطار إلى بيت تشن تشانغ جيه، يتحدث إليه، ثم يعود ثانية إلى محطة القطار، وبالتالي قد يستغرق البقاء هناك يومًا آخر؛ فقد لا يجد قطارًا متجهًا إلى ووهان فور وصوله إلى محطة السكة الحديد، هكذا الحال وقت العودة، أضف إلى ذلك فترة انتظار سيارة هنا وهناك، هذه المدة قد تستغرق أيضًا نصف يوم؛ قد يستغرق الوقت الإجمالي للسفر إلى ووهان خمسة أيام ونصف يوم ذهابًا وإيابًا؛ هناك فارق زمني مدته ثلاثة أيام ونصف، كيف سيتعامل مع هذه المشكلة؟ فكر في حيلة أخرى، بعد مرور يومين، يتصل هاتفيًا من ووهان بمصنع الحلوى الذي تعمل به زوجته ويخبرها بأنه أصيب بالحمى في لويانغ ولا يقدر على الحركة، وقد يضطر إلى البقاء في لويانغ عدة أيام حتى يتعافى ثم يعود بعدها إلى يانجين؛ لا يمكن لأحد أن يتنبأ بالمرض، فمن الذي يضمن ألا يتعرض لوعكة صحية في أي وقت وأي مكان؟ حينها من المفترض ألا يثير هذا الأمر اعتراضها. فقط عليه أن يؤكد لها خلال المكالمة الهاتفية أنه أصيب بالحمى، وليست نوبة اكتئاب كتلك التي كان يعاني منها خلال الأيام الماضية، وإلا فسوف تسافر إلى لويانغ على الفور، حينها سينكشف أمره.

بعد العثور على سبب مناسب للسفر، بدأ في التفكير لحل مشكلة نفقات السفر. اكتشف أن تذكرة الحافلة ذهابًا وإيابًا من يانجين إلى لويانغ تكلف عشرين يوانًا، أما تذكرة القطار ذهابًا وإيابًا من يانجين إلى ووهان فتكلف مائة وعشرين يوانًا، كيف يستطيع تدبير هذا الفارق الضخم الذي يبلغ مائة يوان؟ علاوة على ذلك، عندما يكون الشخص على سفر بعيدًا عن منزله، فهل يحتاج إلى دفع ثمن تذاكر السفر فقط؟ ألن يأكل أو يشرب في الطريق؟ هل يمكن ضمان عدم وجود سبب آخر لإنفاق أموال ليست في الحسبان؟ فالمثل يقول، من خرج من داره قل مقداره، على ما يبدو إذن أن هذا الفارق في التكلفة لن يتوقف عند المائة يوان فقط.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بما أنه قال إن ذهابه إلى لويانغ يُعد رحلة عمل، فالشركة ستتحمل نفقات السفر إذن. ولكن ذهابه إلى ووهان في الخفاء سيجعله يتحمل تكلفة السفر بالكامل؛ لديه بعض المال الذي ادخره دون علم زوجته، لكنه أنفق منه 25.8 يوان عند العراف، والباقي معه 10.20 يوان. كيف التصرف؟ يبدو أنه لا حيلة أمامه سوى الاقتراض من الآخرين. لمن يلجأ إذن؟ جلس يانشنغ يفكر، يُشترط في الدائن أمران: الأول أن يكون لديه مال فائض بعد الوفاء بمصاريف إعالة أسرته، والثاني أن يكون صديقًا مقربًا إليه ومستعدًا لإقراضه المال. في البداية فكر في أقاربه، كأعمامه وأخواله وأجداده وعماته وخالاته وأبناء عمومته وأبناء أخواله وغيرهم. كل هؤلاء تربطهم به علاقة قرابة، وهناك أكثر من عشر عائلات من هؤلاء الأقارب في يانجين، لكن بحساب دقيق ليس منهم من لديه فائض في المال. بمعنى آخر، هؤلاء الأقارب فقراء، والتفكير في طلب المال من أحدهم لن يجدي نفعًا، لذلك صرف النظر عن هذه الفكرة. شرع يفكر في الأصدقاء المقربين؛ لديه أكثر من عشرة منهم في يانجين، ولكن بالنسبة لشخص مثله يبيع صلصة الصويا والخل والمخللات، فمعظم الأصدقاء الذين يتواصل معهم عادة هم فقراء أيضًا. استمر يفكر في الأمر منذ الصباح، لكنه لم يتوصل إلى شخص مناسب. يجب أن يمتاز المقرض بالكتمان أيضًا حتى لا يصل الأمر لزوجته. تملكته حالة يأس، فكّر في مفاتحة جاره منغ في الأمر، لكنه يعلم أنه يتقاضى مثل راتبه، كما أنه العائل الوحيد لأسرته، لن يكون لدية وفرة من المال أيضًا. فكّر أنه سيطلب منه مساعدته بشأن حيلة الذهاب، سيكون من المحرج أن يطلب منه أن يُقرضه بعض المال، استبعده من حساباته. بخلاف هؤلاء الأقارب والأصدقاء ومنغ، لم يتوصل إلى شخص مناسب. بعد تفكير عميق استمر حتى الظهيرة، ذهب إلى بيته لتناول الغداء، سار عبر الشارع الشرقي متجهًا إلى الشارع الشمالي، فمر في طريقة بالحمام الواقع في منتصف الشارع الشمالي، لمعت في ذهنه فكرة، تذكّر بو العجوز الذي يحمم الزبائن، فكر في طلب المال من بو.

بو في الخمسينيات من عمره، يعيش وحيدًا. سبق أن تزوج في شبابه، لكنه لم ينجب. عندما وصل إلى سن الثلاثين، هربت زوجته زُفقة ابن عمه، ولم يعثر على مكانهما إلى الآن. رشحت له بعض الخاطبات فتيات للزواج، لكن فعلة ابن عمه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جعلته يعزف عن الزواج، فهما الاثنان قد ترعرعا معًا منذ نعومة أظفارهما، كيف يمكنه الإتيان بهذا الفعل المشين في حقه؟ لم يكن هذا السبب الوحيد لعزوفه عن الزواج، السبب الآخر أن معظم الفتيات اللاتي رُشحن له للزواج لسن مناسبات، ظل مترددًا، بقي بلا زواج إلى أن تجاوز الخمسين. وفقًا لكلامه، فالعيش وحيدًا له ميزاته، فأنت أسرة نفسك، وما دمت قد شبعت فأسرتك بأكملها قد شبعت.

من المفترض له الإنفاق على نفسه بسخاء، لكنه بخيل للغاية، لا ينفق، يكتنز قدر المستطاع. لطالما ردد: المال لا يأتي بسهولة، أحمم الزبائن وأفرك أجسادهم، ولا أكسب سوى أقل من ربع يوان في المرة الواحدة. من لديهم أبناء وبنات لا يحتاجون إلى الادخار، لكني رجل وحيد كبير السن، الآخرون يربون أطفالهم ليعتنوا بهم في شيخوختهم، والمال هو ابني الذي سيعتني بي، أليس كلامي صحيحًا؟ الجميع، ومنهم يانشنغ، يرون وجهة نظره معقولة.

يعود السبب في الصداقة بين يانشنغ وبو إلى اعتياد الأول على الاستحمام في حمام الشارع الشمالي، وفي كل مرة يطلب من بو بالذات أن يفرك له جسده رغم وجود خمسة عمال في الحمام، لكنه يفضله، ليس فقط بسبب إتقانه فرك أجساد الزبائن، لكن أيضًا لأنه يحب الاستماع إلى حديثه الذي غالبًا ما يحكي خلاله قصة، ثم يقول الدرس المستفاد منها. في إحدى المرات أثناء تأدية وظيفته قال: إن العلاقات بين الأشخاص تُعد أكثر الأشياء المخيفة في هذا العالم، قد تعامل الآخرين كأصدقاء، لكن الآخرين لا يعاملونك بالمثل. لو لم تواجه مشكلة أو تتعارض مصالحكم ستمضي الأمور على ما يرام، ولكن لو حدث العكس فلا تلومن إلا نفسك. شعر يانشنغ أن كلامه منطقي. مرة أخرى قال: التسوق وقت الجوع أكثر الأشياء المخيفة في هذا العالم، فحينها سيكون من السهل شراء العديد من الأشياء الزائدة عن الحاجة. شعر يانشنغ أن كلامه منطقي، فهو يبيع صلصة الصويا والخل والخضراوات المخللة والتوفو في المتجر، في الأوقات التي تسبق تناول الغداء والعشاء يكثر عدد الزبائن القادمين لشرائها، حينها يشترون أشياء أخرى بجانب تلك التي يحتاجونها، أما في الأوقات التي تلي تناول الوجبات فيقل عدد الزبائن، ونادرًا ما يأتي أحدهم ولا يشتري سوى ما جاء لأجله فقط، من جاء لشراء الملح لا يشتري

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سواه، ومن جاء لشراء الخل لا يشتري غيره. الشيء الوحيد الذي أثار حيرته هو أنه كيف لشخص حاذق مثل بو ترك زوجته تهرب زُفقة شخص آخر؟ بل إن هذا الشخص هو ابن عمه.

مع تكرار ذهابه إلى الحمام، صارا صديقين؛ وهو الآن يواجه مشكله، لذلك فكر في اللجوء إليه.

بعد الغداء ذهب يانشنغ إلى قسم المبيعات ليطلب من الجار منغ أن ينوب عنه في العمل حتى يعود، ذهب إلى الحمام. فكّر في الاستحمام قبل اقتراض المال ليستغل الوقت في الحديث مع بو حتى تبدو الأمور أكثر طبيعية، فهو لا يفضل التحدث مباشرة عن اقتراض المال. عند مدخل الحمام، تذكر أمرًا فتحدّث إلى ينغ تاو التي تسكن جسده وقال لها: «ينغ تاو، لا يمكنك الدخول معي، فهذا حمام خاص بالرجال»، ردت قائلة: «حسنًا، سأنتظرك بالخارج»، خرجت من جسده فشعر بالارتياح يغمر جسده. لكن عندما تذكّر أنها ستعود وتتلبّس جسده بعد الخروج من الحمام، شعر بالاكتئاب مرة أخرى.

بعد دخول الحمام، خلع ملابسه، ربطها بحبل، ثم علقها على الحامل كالمعتاد، ثم نزل حوض الاستحمام الكبير؛ بعدما نقع جسده، تحول إلى اللون الأحمر، خرج ثم استلقى على المنصة التي يفرك عليها بو أجساد الزبائن وانتظر.

بينما يفرك بو جسده تبادلا أطراف الحديث. في البداية سأله يانشنغ عن أحوال العمل مؤخرًا، أجابه أن الأمور ليست بأفضل حال، فالعمل في الحمام موسمي، يزدهر في الشتاء، الوقت الآن يقترب من منتصف فصل الصيف، لذلك فالجميع يستحمون في بيوتهم، وقلة هم من يأتون إلى الحمام. سأله بو: أنت لم تأتِ إلى هنا منذ أكثر من شهر؟ جسدك مغطى بطبقة من الجلد الميت وكأنك قد خرجت للتو من بركة طينية. فكّر يانشنغ في الأمر، لقد ظل مهمومًا خلال الفترة السابقة حتى إنه نسي الاستحمام، قال: هذا صحيح، كان لديّ الكثير من المشاغل خلال الشهر الماضي، لم أفكر في الاستحمام سوى اليوم، لقد شعرت بحكة في جسدي لم أعد قادرًا على تحملها. حوّل يانشنغ دفة الحوار وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يا بو، برأيك كيف هي علاقتنا؟

- ممتازة، أنت زبون دائم في هذا الحمام.

- أريد أن أحدثك في أمر ما.

- تفضل.

- هل يمكنك إقراضي بعض المال؟

توقف بو العجوز عن حك جسد يانشنغ وقال:

- كم تريد أن تقترض؟

- مائة يوان.

- لماذا؟

لم يستطع إخباره بأنه ذاهب إلى ووهان محملاً برسالة من ينغ تاو، فاختلق عذرًا آخر وقال:

- تعرّض منزل عمتي للهدم، وتريد مني مساعدتها ببعض المال؛ لطالما عاملتني جيدًا منذ طفولتي. وعندما تزوجت أقرضتني أكثر من مائة يوان، ومن الصعب عليّ ألا أساعدها في هذا الموقف.

عاد بو العجوز يحك جسد يانشنغ ثانية وقال:

- ليتك أخبرتني أمس.

- ماذا تقصد؟

- أمس دخل زوج عمتي إلى المستشفى، فجاءت عمتي واقترضت كل ما لديّ.

أكمل:

- أنت تتحدث عن بناء منزل، أما أنا فأنقذ مريضًا، وكما يقول المثل إنقاذ المريض خير من مساعدة الفقير، لذلك ليس لديّ ما أقرضه لك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

علم يانشنغ أن بو اختلق هذا العذر، وأن مرض زوج عمته مجرد ذريعة للتهرب من إقراضه المال؛ وبفرض كون مرض زوج عمته حقيقيًا، فهذا أمر قد حدث أمس، وبالتالي فلن يستطيع يانشنغ أن يقترض المال منه اليوم؛ وإذا تجاهل ذلك وركز في الجملة الأخيرة فهي تعني أن هناك أولوية أهم من مساعدة الفقير لدى بو.

فهم يانشنغ أن هذا العجوز لا يرغب في إقراضه المال، ربما لا يتعلق ذلك بالمال نفسه، بل لأن العلاقة بينهما لم تصل إلى هذا النوع من الصداقة بعد، وأن هذه العلاقة هي واحدة من العلاقات المخيفة التي تحدث عنها من قبل: «قد تعامل الآخرين كأصدقاء، لكن الآخرين لا يعاملونك كأصدقاء؛ لو لم تواجها مشكلة أو تتعارض مصالحكم ستمضي الأمور على ما يرام، ولكن لو حدث العكس فلا تلومن إلا نفسك».

أدرك بو أن كلامه لم يكن مقنعًا، فاستطرد يقول: لو كان الأمر يتعلق بثمانية أو عشرة أو يوانات فمن السهل تدبيرها، لكن مائة يوان ليست مبلغًا قليلاً، قلت لعمتي إنني جمعت هذا المال بالكد والعرق من عملي في فرك أجساد الزبائن في الحمام، يمكنكِ قضاء حاجتك بهذا المال مؤقتًا، ولكن عليكِ إعادته بسرعة.

- حسنًا إذن، ما دام ليس لديك مال فلننسَ هذا الأمر، أنا أفضفض معك فقط.

- ما دمت قد طلبت مني هذا المال، وليس بوسعي إقراضك، فليكن استحمامك اليوم على حسابي.

شعر يانشنغ أن هذا الكلام لا فائدة منه. بعد انتهائه من الاستحمام دفع الحساب وغادر المكان.

فور خروجه من الحمام، عادت ينغ تاو وتلبست جسده مرة أخرى؛ شعر وكأن جسده عاد ثقيلاً فجأة، بدا كمن حُشرت كومة قش في قلبه. لم يكترث لهذا الإحساس، فكل ما يشغل باله الآن هو التفكير في شخص يُقرضه المال حتى يذهب إلى ووهان ويتخلص من ينغ تاو. لكن من هذا الشخص الذي يمكن أن يُقرضه المال؟

في تلك الأثناء، رأى الجزار باي العجوز قادمًا من المسلخ يدفع عربة يدوية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مربوطة فوقها سلة من الخوص مليئة بعظام الكوارع. علم أن الجزار في طريقه لتوصيل هذه الكوارع إلى مطعم «المارشال». هناك ثلاثة مسالخ في يانجين، ترسل معظم الكوارع القادمة منها إلى مطعم «المارشال». عند رؤية الكوارع تذكّر يانشنغ أن تشو العجوز صاحب مطعم «المارشال» قد يكون قادرًا على إقراضه. لقد ظل مهمومًا طيلة الفترة الماضية، وكما هو الحال بالنسبة لعدم ذهابه إلى الحمام منذ فترة طويلة، لم يكن أيضًا قد ذهب لتناول الكوارع في مطعم «المارشال» منذ الفترة نفسها، وهو ما أنساه التفكير في صاحب المطعم تشو العجوز، المطعم زبائنه كُثر، لذلك يُعتبر تشو من أثرياء يانجين، كما أنه يحب الاستماع إلى الأوبرا؛ ولذلك فهو مثل العرّاف العجوز دونغ، مؤكد أنه لا يزال يعرف يانشنغ جيدًا على الرغم من تسريح الفرقة وانقطاعه عن الغناء؛ مثل تشانكو مدير مصنع الآلات.

تشو لا يحب الاستماع إلى الأوبرا فحسب، بل يحب أيضًا أن يغني بمفرده بصوت عالٍ. هناك نهر صغير خلف مطعم «المارشال»، عادة ما يقف أمام النهر كل صباح يغني بصوت عالٍ في مواجهة الأرض المزروعة على الضفة الأخرى، هكذا تكون بداية يومه. تشو بارع في طهي الكوارع، لكنه لا يجيد الغناء، ولا يستطيع التحكم في الإيقاع، لذلك كان أحيانًا يستفسر منه عن بعض طرق الغناء عندما يأتي إلى المطعم لتناول الكوارع. رغم علم يانشنغ أن تشو العجوز ليس لديه الموهبة، لكنه طالما قدم له النصائح بكل صبر، لذلك يعفيه من دفع الحساب في بعض الأحيان. وبوجود هذه العلاقة الجيدة بينهما في الماضي، فذهاب يانشنغ لطلب المساعدة من تشو في مثل هذه الظروف أمر لا حرج فيه.

تعمّد الذهاب في وقت مغاير لأوقات تناول الوجبات، فخلال هذه الأوقات يمتلئ المطعم بالزبائن وسيشعر بالحرج من اقتراض المال أمام الآخرين؛ كما أن تشو سيكون منهمكًا في العمل، وهذا ليس الوقت المناسب للحديث بين الأصدقاء. لذلك توجه إليه عصرًا. لم يكن قد ذهب إلى هناك منذ أكثر من شهر، وجد سقيفة جديدة مبنية على جانب واجهة المطعم؛ خارجها عدة أحواض حديدية كبيرة مليئة بعظام الكوارع، وخمسة أو ستة من العمال يمسكون بسكاكين صغيرة منهمكين في تنظيفها. بمجرد الانتهاء من تنظيف واحدة، يلقون بها في حوض حديدي آخر. داخل السقيفة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قِدر دائري ضخم، أسفله حطب يحترق، ترتفع منه ألسنه اللهب لتغطي حواف القدر؛ والوعاء مليء بالكوارع التي تتقلب تلقائيا مع الحساء الذي يغلي.

دفع الباب ودخل المطعم فشاهد زوجة تشو تجلس مائلة بجسدها على المكتب تُجري بعض الحسابات. سألها يانشنغ:

- لماذا نقلتم القدر الكبير أمام المدخل؟

رفعت الزوجة رأسها، تطلعت إليه ثم قالت:

- نجدد المطبخ حاليًا، وليس بوسعنا سوى وضعه هناك مؤقتًا.

- تجديد المطبخ دليل على ازدهار حالة المطعم.

- لسنا بأفضل حال.

- أين تشو؟

- لماذا تسأل عنه؟

- لا شيء، فقط جئت أدردش معه.

- لا يمكنك ذلك خلال هذه الفترة.

- لماذا؟

- ذهب إلى مدينة داتشينغ، توفيت عمته التي انتقلت للإقامة منذ فترة مع زوجها الذي يعمل في حقل النفط، فذهب لحضور الجنازة.

- ومتى سيعود؟

- لا أعلم، سبعة أو ثمانية أيام على الأقل، أو ربما أسبوعان على الأكثر. ما دام قد ذهب فعليه الانتظار حتى اليوم السابع من الدفن. وكما تعلم، تبعد يانجين عن داتشينغ بأكثر من ألفي كيلومتر، وعليه التنقل بين عدة محطات، ولا أحد يعرف ظروف الطريق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لن يستطيع الاقتراض من تشو. في ذلك الوقت لم يكن هناك هاتف محمول، لذا لا طريقة للتواصل مع تشو، ولا يمكنه أن يطلب من زوجته، فهي لا تحب الغناء مثل زوجها، وهو لن يرتكب الخطأ نفسه الذي وقع فيه مع بو. هز رأسه متحسرًا، خرج من المطعم يلقي باللوم على عمة تشو التي ماتت في وقت غير مناسب.

في نهاية اليوم لم يتمكن من إيجاد من يُقرضه، ولم يعد بوسعه التفكير. لم يستطع النوم جيدًا، استيقظ في منتصف الليل، جلس على حافة السرير، يتطلع إلى الظلام خارج النافذة بقلق، ثم تحدّث إلى نفسه وقال: «ينغ تاو، الذهاب إلى ووهان من أجلك أمر بالغ الصعوبة»، سمعها ترد عليه: «العلاقات بين الناس تغيرت، لم أتوقع ذلك».

استيقظت زوجته، رأته يتحدث، فقالت بغيظ:

- هل عاودك المرض ثانية؟

- لا.

- مع من تتكلم إذن؟

- لم أتحدث إلى أي شخص، فقط تذكرت بعض الأمور التي تخص العمل، وكنت أفكر بصوت عالٍ.

في اليوم التالي جلس داخل المتجر يفكر في الأمر طيلة اليوم، آلمه دماغه من كثرة التفكير، لم يتوصل لنتيجة. بعد انتهاء العمل، سار وحيدًا في طريقه إلى المنزل. استمر في طريقه حتى وصل إلى التقاطع، شاهد عامل النظافة قو باوتشن ممسكًا بمكنسة من الخيزران يكنس أوراق الشجر المتساقطة أسفل عمود النور. حينها تكلمت ينغ تاو: «يانشنغ، اذهب إليه، يمكنه إقراضك المال».

ظن أنها تهذي، فراتب هذا الرجل الشهري لا يساوي نصف راتبه، كما أنه يعيل خمسة أطفال، راتبه لا يكفيه لذلك يعمل في جمع الخردة من أجل توفير بعض النفقات الإضافية لأسرته، كيف يكون لديه المال؟ ولكن بما أنها قالت ذلك فليحاول، لا خيارات أخرى لديه، لو نجح فهذا هو المطلوب، ولو لم ينجح فليس هناك ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يخسره، بل حتى يمكنه حينها أن يوبخ ينغ تاو. المميز أيضًا في قو باوتشن أنه قليل الكلام، ولن يقلق بشأن اقتراض المال منه حال نجح في ذلك.

رغم عمل قو باوتشن في كنس الشوارع فإنه، وفقًا لكلام دونغ، كان حاكمًا عسكريًا ووزيرًا في حياته السابقة، وحتى الآن لا يزال يتمتع ببنية قوية ووجه متورد وصوت رنان مثل جنرال عسكري يتحدث أمام الجيوش، لكنه -مثل صاحب الفم الكبير- قليل الكلام، وهذه سمة أصحاب الشأن كما يزعم العرّاف العجوز. غالبًا ما كان الناس في يانجين يسخرون من قو باوتشن، فعندما يمرون بجواره أثناء تأدية وظيفته يبادرونه بالسؤال: الوزير مشغول؟ أو يقولون: «هل نقل الوزير مقره إلى الشارع؟».

في البداية يتجاهل سخريتهم. ولكن كلما زاد تجاهله زاد عدد من يسخرون منه؛ وبمرور الوقت أصبح يتوقف عن كنس الشارع، ثم يتكئ على مكنسته ويرد بجدية: بما أنكم تعلمون أن هذا مكتب الوزير، فهو إذن موقع حكومي مهم، لا تتسببوا لأنفسكم في المتاعب بالوقوف هنا، هيا غادروا. حينها يضحك الجميع ويمشون.

البعض يسألونه عن الأشخاص الذين قابلهم والأحداث التي مر بها عندما كان وزيرًا، فيرد:

- لقد تذكرت، عندما كنت وزيرًا، كان هناك شيء يزعجني بشدة.

- ما هو؟

- أختك، لقد اتخذتها جارية لي، لكنها لم تُرضِني في الفراش، لذلك عُد إلى بيتك وأخبرها ألا تأتي الليلة.

- اللعنة عليك، أنت تتحدث عن أختك وليس عن أختي.

- عندما يغادرون ويتركونه بمفرده، يقول بينه وبين نفسه:«لو كنت وزيرًا لقتلتكم جميعًا أيها الأوغاد منذ فترة طويلة». في الليلة التي سبقت وفاة وو ظل يشرب برفقته. بعد موته، سأله أحدهم: هل لك علاقة بما حدث؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما سمع هذا الكلام، وضع المكنسة من يده، جلس القرفصاء عند التقاطع، وضع رأسه بين ذرعيه وانفجر بالبكاء.

- لقد تسببت في موت صديقك، لا فائدة من البكاء.

- أنا أبكي على صديقي، وعلى نفسي، فمن الآن فصاعدًا لن يكون لي أصدقاء في يانجين.

بعدما ينتهي من البكاء ويغادر هؤلاء الأشخاص، يمسح دموعه ثم يلتقط المكنسة، ويستمر في كنس الأرض.

سار يانشنغ نحوه وقال:

- قو باوتشن، أريد التحدث إليك في أمر ما.

توقف عن الكنس وسأله عما يريد:

- هل يمكنك إقراضي بعض المال؟

- كم تريد؟

- مائة يوان.

- حسنًا.

فوجئ يانشنغ بجوابه، فسارع يقول مبتهجًا:

- هل أنت غني حقًا؟

- اسمعني، لديّ شرط لإقراضك.

- ما هو؟

- عليك أن تُقرضني أولاً.

- ماذا تقصد؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ليس لديّ أي أموال، لكن يمكنني مساعدتك في المقامرة.

على الرغم من أن قو باوتشن معدم فهو مولع بالقمار. مؤكد أنه ورث هذا العيب من حياته السابقة. بدلاً من الإنفاق على أسرته يخسر أكثر من نصف ما يكسبه في نوادي القمار، تاركًا زوجته وأطفاله يعانون الجوع، لذلك طالما اقترض المال من كل شخص يعرفه في يانجين. لكنه لم يطلب المال أبدًا من وو ذي الفم الكبير؛ ربما لأنه لا يريد خسارة الشراب المجاني الذي عادة ما يدعوه إليه. يقول لطمأنة من يقترض منه: لا تقلق، أقرضني المال وسأعيده لك في غضون ساعتين.

مع الوقت أدرك الناس خدعته فأصبحوا يردون: انتظر ساعتين واحصل على نقود دون أن تقترض.

تسمّر يانشنغ مكانه، وقال:

- لقد جئت للاقتراض منك، لكنك تريد أخذ المال مني لتقامر.

- لقد طالعت حظي هذه الأيام. تقول الأبراج إنني سأحظى بثروة كبيرة هذا الشهر، وهو أمر نادر لم يحدث منذ ثلاثين عامًا. لقد أصابني الهم ثم ساقك القدر إليّ. إذا أقرضتني المال وربحت في القمار، سأرد لك مالك، وأعطيك مائة يوان أخرى، هذا لا يُعتبر قرضًا.

- وماذا لو خسرت؟

- وقتها سأتحمل الخسارة. وإذا ربحت فالمال لك.

لم يعرف كيف يتصرف، لكنه تذكّر أن بو عاش وزيرًا في حياته السابقة، وما دام كان وزيرًا فبالتأكيد لن يكون حظه عاثرًا على الدوام. فماذا لو حالفه الحظ وربح اليوم؟ لا طريق آخر لديه، قرر المقامرة، عاد إلى متجر المواد الغذائية، فتح الباب، أخرج العشرة يوانات وعشرين فلسًا المتبقية لديه من شق في الجدار خلف الرف، أعاد العشرين فلسًا وأخذ العشرة يوانات، وعاد ليعطيها قو باوتشن. أمسك قو باوتشن بالعشر يوانات وقال بلهجة صارمة: نلتقي هنا في الثامنة صباح الغد. ثم رمى المكنسة من يده، وركض مسرعًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الثامنة من صباح اليوم التالي، ذهب يانشنغ إلى التقاطع، فشاهد قو باوتشن يكنس الأرض ويتثاءب. تقدّم وسأله:

- هل ربحت أم خسرت أمس؟

- خسرت.

كست ملامح الغضب وجه يانشنغ، سارع بو يقول:

- رغم خسارتي عثرت على شخص يمكنه إقراضك.

- من؟

- شانغ العجوز الذي ربح المال، لقد كسب وحده أموال ثمانية أشخاص أمس.

أكمل:

- أرأيت، لم أنسَ مساعدة صديقي في البحث عن شخص يُقرضه المال، أمتاز بالوفاء، أليس كذلك؟

- كم يمكن أن يقرضني شانغ العجوز؟

- مائة، لكنه يريد منك فائدة نسبتها ثلاثين في المائة.

ما دامت الأمور قد وصلت إلى هذا الحال، فلا جدوى من قول أي شيء آخر، وجد يانشنغ نفسه يقول:

- تحدّث إليه، واطلب منه أن يُقرضني مائتين.

غادر المكان وهو يقول لنفسه: «ينغ تاو، لقد آذيتني كثيرًا».

7

أثناء تناول العشاء أخبر يانشنغ زوجته أنه ذاهب غدًا إلى لويانغ لطلب المخللات. قالت بدهشة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ذاهب إلى لويانغ غدًا! لماذا لم تخبرني من قبل؟

- لم أعرف بذلك إلا ظهر اليوم. كان من المقرر أن يذهب منغ، لديه قريب في المصنع، لذلك هو من يذهب كل شهر، لكنه يعاني من الإسهال منذ ظهر اليوم، لذلك تواصل معهم واتفق على أن أذهب بدلاً منه. لا يمكنني أن أرفض، كما أن عملي هو بيع المخللات، وأعرف ما يحتاجه المتجر جيدًا.

- سأذهب معك.

تجمّدت الدماء في عروقه، يعلم جيدًا العناد الذي تمتاز به زوجته، إذا خطرت في ذهنها فكرة فلن تتراجع عنها مهما حدث، لذلك عليه أن يجد سببًا مقنعًا يجعلها تتخلى عن مرافقته؛ تظاهر بالسعادة وقال: حسنًا إذن، سيكون رائعًا لو سافرنا معًا بدلاً من أن أسافر وحدي.

في المساء ذهبا إلى الفراش، قال لها:

- قبل النوم علينا أن نخطط رحلتنا. سنغادر صباح الغد ونصل إلى لويانغ بعد الظهر. حينها سأذهب مباشرة إلى مصنع المخللات لأنني يجب أن أقدم لهم طلب شراء وفقًا لأنواع المخللات الخاصة بهذا الموسم، وأنواع المخللات التي لم نستطع بيعها هذا الشهر، وتلك التي بيعت بالكامل، ونوعية المخللات سهلة البيع، وتلك التي يصعب بيعها، كل هذه أمور يجب التحقق منها واحدًا تلو الآخر، بعدها عليّ إجراء حسابات حول المنتجات ذات الأسعار المناسبة، وتلك ذات الأسعار غير المناسبة، وحجم الخصومات والتخفيضات الممكنة، وبعد الانتهاء من كل هذه الأعمال أقدم طلب الشراء، ثم نبيت ليلتنا في لويانغ، ونعود في وقت مبكر من صباح اليوم التالي؛ فما رأيك، هل ستذهبين معي إلى مصنع المخللات، أم تريدين التنزه في مدينة لويانغ؟

- أنا لست ذاهبة إلى لويانغ للذهاب إلى مصنع المخللات. أريد التنزه هناك، فهي مدينة كبيرة مقارنة مع يانجين.

- حسنًا إذن، سأذهب لإنجاز مهمتي، وستذهبين أنتِ للتنزه. أين ستذهبين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحديدًا؟

- إلى مراكز التسوق لشراء بعض الأغراض.

- ماذا تريدين أن تشتري؟

- كريم للبشرة، زيت للشعر، صابون برائحة، حذاء بلاستيكي لابننا، سروال من الداكرون، بكرتان من الصوف لأحيك لك سترة بياقة مدورة بعد عودتنا.

- حسنا، ولكن لا بد أن أنبهك، هذه الأشياء في لويانغ ستكون أغلى بنسبة 30٪ من يانجين. فكما قلتِ أنتِ، لويانغ مدينة كبيرة، والأشياء في المدن الكبيرة أغلى مما هي عليه في المدن الصغيرة.

- ألا تريدني أن أذهب معك؟

- ليس هذا ما قصدته، أردت فقط أن أخبركِ بالأمر مسبقًا، حتى لا تلوميني. ألا تذكرين آخر مرة اشتريتِ فيها طبقًا خزفيًا من مدينة شينشيانغ؟ لقد خُدعتِ، ومع ذلك لمتِني لأنني لم أنبهك قبلها.

صمتت شياوفنغ ولم ترد، فقال:

- لقد حسبت قيمة الأشياء التي ترغبين في شرائها، هنا لن تكلفك أكثر من عشرين يوانًا، أما في لويانغ فستكلف ثلاثين يوانًا على الأقل.

فكرت لبعض الوقت، ثم قالت:

- حسنًا إذن، لن أشتري هذه الأشياء، سأذهب للتنزه فقط.

- دعيني إذن أذكّرك مقدمًا بأن رحلتك إلى لويانغ لن تكون مجانية، فذهابي إلى لويانغ لشراء طلبية المخللات رحلة عمل، وبالتالي سيتكفل قسم مبيعات المواد الغذائية بمصاريف سفري، أما مصاريف سفركِ فستكون على حسابنا، ثمن التذكرة ذهابًا وإيابًا عشرون يوانًا، هذا المبلغ وحده كافٍ لشراء تلك الأشياء التي ترغبين في شرائها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنا لا أجني أكثر من خمسين يوانًا في الشهر، فلننسَ الأمر إذن، يمكنك الذهاب إلى لويانغ وحدك وسأشتري هذه الأشياء من يانجين لاحقًا.

انتهت من حديثها، خلعت ملابسها، استلقت على الفراش. فتنفس الصعداء. لكنها عادت وجلست مرة أخرى وهي تقول:

- إذا لم أذهب رفقتك، فماذا ستفعل إذا عاودتك نوبة الاكتئاب ثانية هناك؟

- لقد تعافيت تمامًا، هل رأيتِني أعاني من نوبات مرضية خلال الأيام الثلاثة الماضية؟

- لا لم يحدث.

- إذن لا توجد مشكلة، التنقل خلال رحلة العمل مفيد لعلاج الاكتئاب.

- كن حذرًا خلال سفرك.

- لا تقلقي، سأتوخى الحذر.

عادت واستلقت على الفراش ثانية.

8

غادر في الصباح، وبما أنه ذاهب لزيارة صديقه، فلا يمكنه الذهاب خالي اليدين، تذكّر ترددهما معًا على مطعم الكوارع، فذهب إلى «المارشال» واشترى عشر قطع بخمسة يوانات.

اعتقد أنه بمجرد مغادرته، فسوف تخبره ينغ تاو بمضمون الرسالة التي تريد منه نقلها إلى تشن تشانغ جيه، ومن ثم تغادر جسده، إلا انه عندما استقل الحافلة المتجهة من يانجين إلى مدينة شينشيانغ، لم تخبره ينغ تاو بشيء، ظلت قابعة داخل جسده. حينها تحدّث إليها قائلاً: «ينغ تاو، الحافلة على وشك التحرك، هيا أخبريني برسالتك سريعًا، وغادري من هنا».

- سأرافقك إلى شينشيانغ، وسأخبرك عندما نصل إلى هناك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل تعتقدين أننا نغني أغنية الجسر المكسور، نودع بعضنا هنا، ثم نعود ونودع ثانية هناك لأننا لا نملك سوى مظلة واحدة؟

«الجسر المكسور» هي إحدى أغنيات «الأفعى البيضاء»، مثلها مثل أغنية «ماذا أفعل، ماذا أفعل؟ كيف العمل، كيف العمل»، تحكي الأغنية عن هبوط الجنية البيضاء -التي لعبت دورها ينغ تاو- إلى عالم البشر، وأثناء جلوسها بجوار البحيرة الغربية هطلت الأمطار، فجاء شيو شيان -الذي مثّل دوره يانشنغ- ليعطيها مظلته التي بسببها ظل كلاهما يرافق الآخر ذهابًا وإيابًا، فنشأت بينهما علاقة لم تنقطع.

قالت له: «إذا كان هذا حدث بسبب مظلة، فمن المؤكد حدوثه بسبب رسالة»، سألها كيف ستعود من شينشيانغ التي تبعد عن يانجين بأكثر من خمسين كيلومترًا، طمأنته بأن لديها طريقتها الخاصة.

أثناء الحديث، تحركت الحافلة. ولم يملك خيارًا غير السماح لها بمرافقته. عندما وصلا إلى محطة قطار شينشيانغ، اشترى تذكرة إلى ووهان، ما زال أمام القطار وقت طويل للتحرك، جلس على الرصيف وطلب منها إخباره بالرسالة، رفضت وأصرت على الذهاب معه لمقابلة تشن تشانغ جيه شخصيًا. عبّر عن ضيقه قائلاً: «لماذا عليكِ أن تورطيني معك؟». أخبرته بعدم إمكانية ذهابها دون تلبّس جسده.

فهم نيتها أخيرًا. توصيل الرسالة خدعة، غرضها الحقيقي توصيلها هي، كانت تكذب منذ البداية. أراد أن يبادلها العناد، لكنه فكر أنه ذاهب إلى ووهان على أي حال، وليس هناك فرق كبير بين توصيل رسالة وتوصيلها هي شخصيًا، كل ما في الأمر أنها ستمكث داخل جسده ليومين آخرين؛ لن تكلفه أي نفقات إضافية، ولو بادلها العناد لن تخرج من جسده، وسيكون هو الخاسر. لم يستمر في مجادلتها.

لن يعرف أحد بوجودها داخله، بل حتى لو أخبر الناس فلن يصدقوه، سينعتونه بالجنون، لو أخبره أحد بذلك فلن يصدق أيضًا، لكن هذا هو الوضع الفعلي، فمن يمكنه معرفه ما الذي يخفيه داخل جسده؟ تنهّد وقال: «أنتِ أكثر مني دهاء».

شعرت بالحرج، قالت: «ليس باليد حيلة، أنا مضطرة»، ظهر عليه عدم الفهم، سألها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مجددًا بشأن الرسالة، رفضت إخباره، فقال: «إذا لم تخبريني لن أذهب. لا يمكنك تركي وسط هذه الحيرة؛ سأبدو كأحمق لو ذهبت إلى هناك دون معرفة السبب». بكت وقالت: «هذا أمر شرحه يطول»، طلب منها أن تتمالك نفسها، سكتت وبدأت في إخباره بما حدث معها: «منذ ثلاث سنوات انتحرث شنقًا، المنتحرون لا يجوز دفنهم في مقابر الأجداد، لذلك دفنني تشن تشانغ جيه في أحد المقابر العشوائية عند المعبر الجنوبي للمدينة. رقدت روحي في سلام خلال السنوات الثلاث الأولى، ولكن قبل نصف عام، دُفن جواري شخص مغتصب قاتل أُعدم رميًا بالرصاص. علم أنني كنت أغني في الفرقة المسرحية، بحلول الليل يأتي ليطلب مني أن ألعب الدور نفسه بينما يمثل هو دورك، وبعد الغناء يُرغمني على ممارسة ذاك الأمر، وإذا لم أنقد له يضربني، يقول إننا زوجان، أخبره أن هذه مسرحية تمثيلية وليست حقيقة، لكنه يصر. لاحقًا لم أعد أكترث لما يفعله، فأنا ميتة على أيه حال، وليس أي ميتة بل أنا منتحرة، ولم أتوقع أن يكون هناك أسوأ مما قد حدث، لكنه لم يكتفِ بذلك، فبعدما نال مني تركني فريسة للآخرين مقابل المال؛ وإذا لم أوافق يضربني. لا يمكنني الاستمرار في العيش هكذا، آسفة.. لا يمكنني الاستمرار في الموت هكذا، يجب أن أذهب إلى تشن تشانغ جيه كي أطلب منه نقل مقبرتي».

تسمّر يانشنغ مكانه مذهولاً، فهم حجم معاناتها، واستوعب حجم الرسالة التي عليه نقلها. تنهّد وأبدى تفهمه. سألها: «إذا كان هدفك هو نقل مقبرتك، فلماذا لا تطلبين من أحد أقربائك في يانجين أن ينقلها وينتهي الأمر؟».

قالت: «تشن تشانغ جيه هو الذي دفنني هناك في البداية، لقد تركت مجرفته الأخيرة علامة فوق قبري؛ ويجب أن يكون الشخص الذي ردم المجرفة الأخيرة هو أول من يحفر القبر عند نقله؛ العالم الدنيوي متعلق بالسبب والنتيجة، وكذلك العالم السفلي أيضًا، وإذا لم يتطابق السبب والنتيجة فلن يجدي الأمر نفعًا؛ تمامًا كما هو الحال في المسرحية، حيث حبسني الراهب فاهاي أسفل المعبد، فلم يكن بوسع أحد غيره إطلاق سراحي. ولو نقل شخص آخر مقبرتي فهذا يعني نقل جسدي فقط، أما روحي فستبقى هناك، حينها سيعيش الجسد والروح منفصلين، وأنا أفضّل البقاء مكاني أتعرّض للاغتصاب كل يوم على أن أعيش جسدًا بلا روح. لذلك يجب أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يكون هو من ينقل القبر، ولا أحد غيره».

استمرت تقول: «ذلك المغتصب القاتل تعمّد تحويل أحداث المسرحية إلى واقع. ألم يكن تشن تشانغ جيه هو من يلعب دور الراهب فاهاي الذي يستطيع طرد الأشباح؟ إذن بإمكانه أن يخلصني من روح ذلك المغتصب القاتل، هذا سبب آخر».

فهم يانشنغ، لم يتمالك نفسه من التنهُّد بعدما أدرك مدى تعقيد الأمر، فسأل بحيرة: «يمكنني نقل رسالتك له دون مجيئك، لماذا تصرين على الذهاب معي؟».

«أخشى ألا يسمع كلامك، أما لو ذهبت معك ولم يحرك ساكنًا فسأنغص عليه حياته حتى يوافق على العودة».

قال: «ما دام الأمر هكذا، فبعدما نصل إلى ووهان ونلتقي به، لا علاقة لي بما سيحدث بعد ذلك».

- هذا طبيعي، وهذه المرة لن أخلف وعدي.

- ينغ تاو، أريد أن أسألك سؤالاً آخر على سبيل الدردشة.

- أي سؤال؟

- كيف متّ؟

- هذه ليست دردشة، كيف يمكنك أن تصف الحديث عن موت إنسان بأنه مجرد دردشة؟

سارع يقول معتذرًا: استخدمت التعبير الخطأ، كنت أريد معرفة هل انتحرتِ فعلاً بسبب حفنة من الكراث؟

تنهّدت وقالت: «لو قلت إنه بسبب الكراث فهو بسبب الكراث، ولو قلت إنه ليس بسبب الكراث فهو ليس بسبب الكراث. صحيح أنني تشاجرت مع زوجي يومها بسبب الكراث، ثم ركل الباب وغادر. شعرت بالغضب الشديد، ارتميت على السرير وبكيت. بكيت طويلاً حتى استغرقت في النوم دون أن أدري، وتصادف أن جاءتني هوا آرنيانغ في المنام، طلبت مني أن أحكي لها نكتة. حظي عاثر، عادة ما تأتي أحلام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الناس ليلاً تطلب منهم إلقاء النكات، وأنا كنت أبكي حتى نمت، فكيف لي إلقاء نكتة مضحكة؟ قلت لها: لا أستطيع الكلام، لكن دعيني أغني لك. قالت: أعلم أنكِ كنت تغنين في الماضي، غني إذا رغبتِ، فأخذت أغني بداية مقطع «الجسر المكسور» حتى وصلت إلى «كيف العمل كيف العمل، ماذا أفعل ماذا أفعل». لم أتوقع أن يثير حزن الأفعى في الأغنية حزن هوا آرنيانغ. بكيت، وبكت هي أيضًا. بمجرد الانتهاء من الغناء تبدلت ملامحها، قالت إنها جاءت من أجل نكتة لكني جعلتها تبكي، طلبت مني حملها للذهاب لشرب حساء الفلفل الحار. حينها عرفت الغرض من مجيئها، شعرت بالحرج، قلت لها: لا داعي لأن تُتعبي نفسك، سأبادر أنا بشنق نفسي».

تسمّر يانشنغ في مكانه مذهولاً. لم تفت ينغ تاو بسبب الكراث فقط، بل بسبب النكات أيضًا؛ عندما مرض سألته زوجته إن كان السبب هو مجيء هوا آرنيانغ إلى أحلامه بحثًا عن نكتة، ونفى ذلك. علم الآن أنها ذهبت إلى حلم ينغ تاو التي هي سبب مرضه الحالي، هكذا صارت الأمور متشابكة، لم يتمالك نفسه من التنهد، وقال: «يمكنك أن تطلبي من هوا آرنيانغ أن تخلصك من تلك الروح الشريرة التي تغتصبك في قبرك».

قالت: هوا آرنيانغ تظهر فقط في أحلام العالم الدنيوي، فكيف لها أن تظهر في أحلام الأرواح؟ تأتي إلى الأحلام بحثًا عن النكات، فهل هناك روح تحمل بداخلها شيئًا غير الأحزان؟ ولو أنني أخبرتها عن الروح التي تعتدي عليّ، فهل سيُضحكها هذا الأمر؟

أومأ يانشنغ. وأضافت ينغ تاو: «بعد أن حدثتك عن هذه الأمور المحزنة، سأخبرك بنبأ سار»، فوجئ وسأل: «ماذا تقصدين؟».

- «منذ أكثر من شهر تسببت النكات في موت وو ذي الفم الكبير الذي يبيع حساء لحم الضأن عند المعبر الشمالي في يانجين، هل لديك علم بهذا الأمر؟».

- «نعم، لقد حضرت جنازته». ثم استطرد: «أي نبأ سار هذا الذي يتعلق بموت الآخرين؟».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- «أنا لا أتحدث عما حدث في حياته، بل عما جرى بعد موته، لأنه مات بسبب النكات، شعر كلانا بالتعاطف تجاه الآخر، وعندما التقيته مصادفة خلال مهرجان الأشباح أخبرني بهذا النبأ السار».

- «وما هو النبأ السار؟».

- «يختلف أولئك الذين ماتوا بسبب النكات عن غيرهم من الموتى، حيث يكون من الصعب عليهم التناسخ والعودة للحياة من جديد لأنهم لا يتمتعون بروح الفكاهة. لكن العم وو أخبرني أنه أثناء مروره بقاعة ملاك الموت وقت مجيئه إلى العالم السفلي هنأه ملاك الموت على قدومه في هذا التوقيت، نعته بالمحظوظ، فقد جاءه مؤخرًا أحد كبار زعماء العالم السفلي يحدثه عن الظلم الواقع على من ماتوا بسبب النكات، ولأن ملاك الموت اتسم بعطفه وتضامنه مع جميع الأشباح، فقد طرح بعض السياسات الجديدة، تنص إحداها على أنه إذا استطاع من ماتوا بسبب النكات تحسين حس الفكاهة لديهم بحيث يمكنهم إلقاء خمسين نكتة أمامه مرة واحدة، حينها يمكنهم التناسخ والعودة للحياة ثانية».

- «هذا نبأ جيد بالفعل، ولكن من هذا الزعيم؟».

- «لم يكلف وو ذو الفم الكبير نفسه عناء السؤال»، استطردت: «لكن الخمسين نكتة لا بد ألا تكون عادية، بل أن تكون من جملة واحدة ومثيرة للضحك في نفس الوقت».

- «هذا صعب بالفعل».

- «جُن جنون الأرواح التي ماتت بسبب النكات، صاروا منشغلين بالتدرب على إلقائها. حتى وو الذي امتاز بصرامته تحول خلال أقل من شهر إلى شخص مختلف تمامًا، صار زلق اللسان كثير الكلام». ثم أردفت تقول: «بجانب طلبي من تشن تشانغ جيه العودة إلى يانجين لمساعدتي في نقل قبري وطرد الأرواح، فالغرض الإضافي من ذهابي إلى ووهان هذه المرة هو أن أطلب منه أيضًا أن يعلمني كيفية إلقاء النكات، لقد برع في ذلك في بداية تعارفنا، عرف كيف يُضحكني بجملة واحدة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما يلقنني خمسين نكتة من جملة واحدة، سأحتفظ بها في ذاكرتي، ثم أحكيها لملاك الموت، ولو ضحك سيكون بوسعي التناسخ، وحينها سنلتقي ثانية في العالم الدنيوي».

تسمّر يانشنغ مكانه مذهولاً وفكّر: هي ذاهبة إلى ووهان لأجل خمسين نكتة من جملة واحدة. كل الأحداث غير متوقعة بالنسبة له، لم يتمالك نفسه من أن يهز رأسه ويتنهد مجددًا. قالت «بما أننا عملنا معًا على خشبة المسرح لسنوات عديدة، هل يمكنك مساعدتي ببعض النكات المناسبة؟».

هو ليس بالشخص البارع في إلقاء النكات، لم يقُلها من قبل، من ناحية أخرى خشى الموافقة على طلبها حتى لا تستمر في تلبُس جسده، فقال: «لقد عملنا معًا في الفرقة المسرحية في الماضي، وأنتِ تعلمين أنني طالما كنت شخصًا قليل الكلام، ولا يمكنني حتى التحدث بكلام جاد بطريقة سليمة، فكيف يمكنني إلقاء النكات؟ كما أن هذه المتطلبات مبالغ فيها، من أين لي بجملة واحدة تُضحك الآخرين. أريد مساعدتك، لكن ليس لديّ المقدرة على هذا».

لم تُلح عليه، تنهّدت في صمت، دوّى بوق القطار يعلن وصوله المحطة. ركب القطار، وفكر في رحلته، في الكراث، في هوا آرنيانغ، في نقل المقبرة وطرد الأرواح، في ملاك الموت، وفي النكات، الأمر كله يدور في فلك ينغ تاو التي تسكن جسده، صار شريكًا في كل هذا، الأمر في حد ذاته مزحة.

9

من أجل الوصول إلى ووهان في أسرع وقت ممكن، استقل هذا القطار رفقة ينغ تاو، محطته النهائية مدينة ووتشانغ. أراد استقلال قطار مدينة هانكو القريبة من ووهان، لكن القطارات المتوجهة إلى هانكو لن تمر عبر محطة شينشيانغ التي سيستقل منها القطار إلا بعد خمس أو ست ساعات. لذلك اضطر إلى ركوب هذا القطار، ولأنه قطار متعدد المحطات اكتظ بالناس، لا يوجد مقعد شاغر، الممرات مزدحمة. سار وسط الزحام عابرًا خمس أو ست عربات، عندما يئس من وجود مقعد داخل العربة بحث خارجها، رأى مكانًا يتسع لشخص واحد عند تقاطع عربتين، جلس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بجوار جدار العربة وأمسك بحقيبته بين ذراعيه؛ استغرق في النوم، نامت ينغ تاو التي تسكن جسده أيضًا وسط الصخب والضجيج.

بسبب النوم، لم يجرِ بينهما أي حديث على طول الطريق. وصلا إلى محطة ووتشانغ عند الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي. بمجرد خروجه سارع يركض نحو مبنى التلغراف المقابل للميدان حاملاً حقيبته كي يُجري مكالمة مع مصنع يانجين للحلويات. في ذلك الوقت لم يكن في المصنع سوى هاتف واحد، الشخص المسؤول عنه اسمه تشانغ العجوز؛ يجلس في غرفة الاستقبال يرد على المكالمات، حينها لم يُسمح للموظفين بالرد على الهاتف خلال ساعات العمل، وكان تشانغ العجوز يخبر الموظفين بفحوى المكالمات التي تخصهم. تحدّث يانشنغ إلى تشانغ عبر الهاتف وأخبره أنه جاء إلى لويانغ لشراء المخللات، لكنه أصيب بحمى أثناء وجوده في الفندق في وقت مبكر من صباح هذا اليوم ولم يتمكن من النهوض من الفراش، لذلك فهو في حاجة إلى البقاء في لويانغ ليومين إضافيين حتى يتعافى من مرضه، بعدها سيعود إلى يانجين، وطلب منه إخبار زوجته شياوفنغ بهذا الأمر. لم يأخذ تشانغ الأمر على محمل الجد، فقط قال: «فهمت»، ثم أغلق الهاتف. أدرك يانشنغ فائدة تلك اللوائح الخاصة بمصنع الحلويات، فلو أن زوجته هي التي ردت لانهالت عليه بالأسئلة التي لا تنتهي، خاصة ما يتعلق بمرضه النفسي.

منذ أكثر من شهر، كتب تشن تشانغ جيه رسالة إلى يانشنغ يدعوه لحضور حفل زفافه في ووهان، وكان عنوان منزله المكتوب على غلاف الرسالة هو الغرفة رقم 433، الطابق الرابع، الوحدة الثالثة، المبنى رقم 7، زقاق شين إي، طريق جينغهان، مدينة ووهان. فور مغادرته مبنى التلغراف، أخرج يانشنغ غلاف الرسالة من جيبه وذهب متوجهًا إلى العنوان. للذهاب من ووتشانغ إلى ووهان عليه عبور نهر اليانجتسي، توجّه يانشنغ ترافقه ينغ تاو إلى رصيف العبّارات الموجود جوار المحطة لشراء تذكرة. اليوم مشمس دافئ، لكن أمواج نهر اليانجتسي مرتفعة كعادتها، تضرب حواجز الرصيف بقوة. اشترى تذكرة، ثم توجه لركوب العبّارة حاملاً حقيبته. كان الجسر الخشبي والعبّارة يهتزان بقوة بفعل الأمواج العالية، سمع ينغ تاو تقول بشكل مفاجئ:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يانشنغ، انتظر لحظة.

- ماذا حدث؟

- لا يمكنني ركوب هذه العبارة.

- لماذا؟

- «أعاني من رهاب الماء، أصاب بالذعر فور رؤيته، كأن هناك عشرة آلاف حصان تركض داخلي». تلك الكلمات كانت جزءًا من إحدى أغاني المسرحية.

انزعج وقال: لماذا لم تخبريني بذلك منذ البداية؟

- لم أكن أتوقع أن تكون الرياح والأمواج على نهر اليانجتسي عالية هكذا.

- ولكن إذا لم نعبر النهر لن نتمكن من الوصول.

- يمكننا أن نسلك الطريق البري ونعبر جسر نهر اليانجتسي.

أشاح يانشنغ بيده وهو يقول: «لقد استفسرت بالفعل عن الأمر. علينا أن نركب الحافلة عبر طريق يصل طوله إلى عشرات الأميال للوصول إلى جسر نهر اليانجتسي، لا سبيل أمامنا سوى أن تتحملي ركوب العبارة، فعليّ العودة سريعًا إلى يانجين بعد أن أوصلك، لو تأخرت فستكتشف زوجتي أمري».

- «لكن ماذا لو مت من شدة الخوف على متن العبارة؟ أنا روح ضعيفة بطبيعتي، ولا يمكنني الصمود أمام الأمواج. لقد مت مرة، ولا يهم إذا مت مرة أخرى، لكن إذا مت داخل جسدك هذه المرة، فقد لا أخرج منه أبدًا».

أصيب بالذعر وقال: «سنسلك الطريق البري، ولا داعي لهذا الكلام المخيف، أعتقد أنني صرت رهينة لديك».

اصطحبها وعاد إلى الرصيف مرة أخرى، رد تذكرة القارب، ذهب إلى محطة الحافلات. ركبا الحافلة، كانت حافلة بطيئة تتوقف في كل محطة، وكان هناك العديد من راكبي الدراجات على جانب الطريق، والمشاة الذين يعبرون الطريق من وقت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لآخر، لذلك كانت الحافلة تتوقف من وقت لآخر، استغرق الأمر ساعتين للوصول إلى جسر نهر اليانجتسي، شعرت ينغ تاو أنه غاضب بعض الشيء، فقالت: «لا تغضب، أعلم أنك قد أنفقت الكثير من الوقت والمال خلال هذه الرحلة، وأعلم أيضًا أنك تريد العودة إلى يانجين مبكرًا، وأنا أيضًا».

- «دعينا نتفق أولاً، لا تطلبي مساعدتي مرة أخرى إذا صادفتك أي مشكلة في يانجين لاحقًا، فنحن نعيش في عالمين مختلفين على أي حال».

- «لا تقلق، لن أتسبب في إزعاجك سوى هذه المرة فقط».

عندما وصلا نزل يانشنغ من الحافلة ومعه ينغ تاو، أمسك غلاف الرسالة وسار يسأل كل من يقابله في طريقه عن العنوان. وصل إلى زقاق شين إي بحلول الظهيرة. قبل أكثر من شهر مضى لم يأتِ لحضور حفل زفاف صديقه، رد عليه في رسالة تذرّع فيها بإصابته بالتواء في الكاحل، بمجرد دخوله إلى الزقاق تظاهر لي بأنه يعرج، تحسبًا لمقابلة تشن تشانغ جيه مصادفة.

وسط مجموعة من المباني مختلفة الارتفاعات، سار يتفحص الأرقام المثبتة على جوانب المباني، ثم انعطف يمينًا ويسارًا، إلى أن عثر على المبنى رقم 7؛ تفحّص أرقام الوحدات المثبتة على الأبواب، إلى أن عثر على الوحدة رقم 3؛ تحرك إلى مدخل الوحدة، صعد الدرج، ووصل إلى الطابق الرابع، ثم تفحّص أرقام الشقق على كلا الجانبين حتى عثر على الرقم 433، طرق الباب. مر وقت طويل، لم يفتح أحد. نظر إلى غلاف الرسالة مرة أخرى، تأكد أن الرقم الموجود على الباب صحيح، طرق الباب المقابل ليسأل، وبعدما طرق الباب لوقت طويل، فتح الباب رجل في منتصف العمر شعره أشعث وعيناه نصف مغمضتين. وعندما رأى أمامه شخصًا لا يعرفه قال مغتاظًا: لماذا تطرق بابي؟ أنا أعمل ليلاً وهذا وقت نومي.

- أنا آسف أيها الأخ، من فضلك أريد أن أسأل: هل الشقة المقابلة هي شقة تشن تشانغ جيه؟

أومأ الرجل بالإيجاب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أين هو وعائلته؟

- هل هذا بحاجة إلى سؤال، لا يوجد أحد بالداخل، لقد ذهبوا إلى العمل.

- ومتى سيعودون؟

- لم يتشاوروا معي في هذا الأمر عندما غادروا.

أغلق الباب في وجه يانشنغ وهو يقول: شخص مزعج.

لم يجرؤ على الرد عليه، انتظر حتى أغلق الباب، وتحدّث إلى ينغ تاو قائلاً: «لقد أوصلتكِ إلى منزل تشن تشانغ جيه، يمكنك أن تنتظريه هنا بمفردك، وسأعود أنا إلى يانجين».

رفضت أن تغادر جسده وقالت: «أريدك أن تغادر، ولكن إذا غادرت فكيف ستبقي روحي هنا دون جسد تسكنه؟».

أضافت: «علاوة على ذلك لن أشعر بالاطمئنان إلا إذا رأيته بعيني».

لم يكن أمام يانشنغ سوى الانتظار في الممر رفقة ينغ تاو. ظل يتطلع إلى ساعته بقلق. بحلول الثانية عشرة والنصف سمع وقع خطوات قادم من الطابق السفلي، سارع ناحية الدرج، شاهد شخصًا يصعد الدرج حاملاً أسطوانة غاز على كتفه وهو يلهث، كان تشن تشانغ جيه. الذي قال متفاجئًا عندما رآه: لماذا أنت هنا؟

لن يخبره أنه أحضر معه ينغ تاو، لذلك قال: جئت إلى ووهان في رحلة عمل خاصة بشركة المواد الغذائية، فانتهزت الفرصة لزيارتك. ثم أضاف: كما أنني لم أحضر حفل زفافك، وأشعر بالتقصير تجاهك.

وضع تشن تشانغ جيه أسطوانة الغاز على الأرض وقال: كنت أطبخ، لكن الغاز نفد. فتح الباب وهو يقول: تفضل، لم أتخيل أبدًا أن تأتي لزيارتي.

لاحظ يانشنغ أن الشقة صغيرة، مكونة من غرفتين وصالة ضيقة. نظر الاثنان إلى بعضهما، ثم ابتسما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لم نتقابل منذ ثلاث سنوات.

- نعم صحيح.

فتح يانشنغ الحقيبة وقال:

- لم يسعفني الوقت لأحضر لك هدية، لكني أحضرت لك بعض الكوارع من مطعم «المارشال».

أمسك تشن تشانغ جيه بالكوارع وهو يقول: هذا رائع، لقد تناولتها هنا في ووهان، لكنها لا تضاهي مذاقها في مطعم «المارشال». ثم استطرد يسأل: قلت في رسالتك إن كاحلك أصيب بالتواء، هل تحسنت الآن؟

جلس يانشنغ على الأريكة ومد قدمه ليطالعها صديقه وهو يقول: انظر، لم تعد متورمة كالسابق، لكنها لم تُشف تمامًا بعد، ما زلت أعرج عند المشي، يمكنني السير عليها لمسافات قصيرة.

شعر يانشنغ بالراحة بعد جلوسه في منزل صديقه، كأنه عاد نفس الشخص الذي كان عليه منذ أكثر من شهر، فعلم أن ينغ تاو قد غادرت جسده. لكنه لم يجرؤ على إخبار تشن تشانغ جيه بهذا الأمر، فراح يسأل عن أمور أخرى:

- وأين زوجتك؟

- ذهبت إلى العمل.

رأى صورة جماعية لأربعة أشخاص معلقة على الحائط الأمامي، شخصان بالغان وطفلان. لاحظ تشن تشانغ جيه أن يانشنغ يتطلع إلى الصورة، فأشار إليها وقال: هذه زوجتي، من مدينة جينغتشو، تعمل في مصنع الخزف؛ وهذا ابني مينغ ليانغ؛ وهذه الفتاة هي ابنة زوجتي من زوجها السابق، تصغر مينغ ليانغ بشهر واحد. شاهد تشن تشانغ جيه علامات الدهشة على وجه يانشنغ، فسارع يوضح قائلاً:

- هي تزوجت من قبل، ألست أنا كذلك أيضًا؟ ولديها طفلة، أليس لديّ طفل أيضًا؟ علينا أن نفهم ظروفنا الخاصة وأن نخفض سقف متطلباتنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هذا صحيح، خير الأمور الوسط.

أخذ يمعن النظر في صورة ابنه مينغ ليانغ، فقبل ثلاث سنوات رآه في جنازة ينغ تاو، يرتدي شارة حداد سوداء على ذراعه؛ لكن يبدو أنه الآن أطول من السابق، فسأل:

- وأين مينغ ليانغ؟

- ذهب إلى المدرسة.

- أتذكّر أنه لا يزال في السادسة، كيف ذهب إلى المدرسة في هذه السن المبكرة؟

- أنا دائمًا خارج البيت، ولا أحد يعتني به، لذلك من الأفضل إلحاقه بالمدرسة.

- ولماذا لم تذهب إلى العمل اليوم؟

- أنا أعمل كوقاد في محطة القطارات، واليوم موعد تبديل نوبات العمل، لذلك أنا في المنزل.

- لحسن الحظ أنك هنا اليوم، وإلا لكان مجيئي بلا فائدة.

- هذا صحيح.

بعد ذلك أراد تشن تشانغ جيه أن يصطحبه إلى مطعم في الشارع لتناول الغداء، لكنه يريد العودة سريعًا إلى يانجين، فقال:

- لنتناول ما لديك هنا في المنزل. لقد اشتريت تذكرة القطار الذي سيغادر في الساعة الثالثة عصرًا، أنا في عجلة من أمري للعودة.

- بما أنك قد أتيت لا يمكنك المغادرة سريعًا هكذا، يمكنك البقاء معي في ووهان لبضعة أيام، سأصحبك إلى برج طائر الكركي الأصفر للتنزه، لديّ عطلة لمدة يومين، ولا يوجد ما يشغلني.

فكّر يانشنغ: كيف يمكن ألا يكون هناك ما يشغلك، لقد أحضرت ينغ تاو معي إلى هنا، وستطلب منك العودة إلى يانجين لمساعدتها في نقل قبرها، وتلقينها بعض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النكات أيضًا. لكنه لم يستطع إخبار صديقه بذلك، اضطر للكذب ثانية وقال:

- كنت أريد أن أنتهز فرصة رحلة العمل هذه لقضاء بضعة أيام في ووهان، لكني اتصلت بزوجتي وعلمت أنها مصابة بالحمى ولا تستطيع النهوض من الفراش.

- بما أن شياوفنغ مريضة فلن ألح عليك.

أكمل:

- ولكن لا يوجد طعام نتناوله في المنزل سوى بعض المعكرونة الجافة المتبقية.

- ووهان مشهورة بطبق المعكرونة الجافة الساخنة، لطالما كنت أرغب في تناولها منذ وقت طويل.

وصل تشن تشانغ جيه أسطوانة الغاز بالموقد وبدأ في طهو المعكرونة الجافة الساخنة. في تلك الأثناء طرق أحدهم الباب، فتح يانشنغ الباب، وجد صبيًا صغيرًا يحمل حقيبة مدرسية وملابسه ملطخة ببقايا طعام، دخل دون أن يرحب بالضيف، أخذ يانشنغ زمام المبادرة وسأله:

- هل أنت مينغ ليانغ؟ هل انتهى اليوم الدراسي؟

أطل تشن تشانغ جيه برأسه من المطبخ وقال:

- إنه مينغ ليانغ. يا مينغ ليانغ، هذا عمك يانشنغ، نحن الاثنان من نفس البلدة.

نظر مينغ ليانغ إلى يانشنغ، وقال: مرحبًا أيها العم. وضع حقيبته المدرسية على الخزانة، وفتح الدرج، وأخرج قطعة من المعكرونة سريعة التحضير، واتكأ على الأريكة وراح يتناولها.

انتهى تشن تشانغ جيه من طبخ المعكرونة الجافة الساخنة، وغرف ثلاثة أطباق ووضعها على الطاولة؛ وأخرج أيضًا ثلاث قطع من الكوارع، وقسم كلاً منها إلى أربعة أجزاء بالسكين، ووضعها على طبق وهو يقول:

- لا يوجد وقت كافٍ لطبخ طعام آخر، فلنتناول المعكرونة مع الكوارع التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحضرتها.

ثم التفت إلى مينغ ليانغ وقال: مينغ ليانغ، توقف عن تناول المكرونة سريعة التحضير وتعال لتناول الطعام.

- ألن تنتظر زوجتك لتتناول الطعام معًا؟

- إنها لا تعود وقت الظهيرة. تتناول طعامها في المطعم الخاص بمصنع الخزف.

- وماذا عن ابنتها؟

- مدرستها قريبة من المصنع، تذهب وتتناول الطعام معها.

بعد أن تناول ثلاثتهم الطعام، نظر يانشنغ إلى الساعة على معصمه وقال:

- إنها الثانية تقريبًا، لا بد لي من المغادرة الآن للحاق بالقطار.

- هذه الزيارة لن تُحسب، ولولا أن زوجتك تعاني من الحمى ما كنت لأتركك تذهب مهما كان السبب.

- الأيام أمامنا طويلة، بالتأكيد سأعود لزيارتك لاحقًا.

أخرج من جيبه عشرين يوانًا وأعطاها إلى الطفل وهو يقول:

- لم يشترِ لك عمك أي هدية هذه المرة، خذ هذه واشترِ لنفسك بعض اللوازم المدرسية.

حاول تشن تشانغ جيه منع يانشنغ وهو يقول:

- لديّ مال كافٍ، لا داعي لذلك.

- أنت مخطئ، هذا له وليس لك.

توقف عن محاولة منع صديقه، وقال لابنه «خذها من عمك».

أخذ الطفل النقود، ركض نحو الخزانة، ثم وضع المال في حقيبته المدرسية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سار يانشنغ وهو يعرج، قال لصديقه حين أوصله إلى نهاية الزقاق:

- غد، ابنك وحده في المنزل.

- لم يكن من السهل عليك المجيء لزيارتي، لا بد أن أوصلك.

رد عليه يانشنغ بعبارة من إحدى أغنيات المسرحية:

«مهما سار النبيل رفقتي لألف ميل، من المؤكد أنه سيكون هناك وداع».

- شكرًا لك على قدومك لزيارتي بالرغم من التواء كاحلك.

أكمل تشن تشانغ جيه رده بعبارة من إحدى أغنيات المسرحية: «هذه المرة نودع بعضنا، فمتى سنلتقي مرة أخرى؟».

مشاعر الفراق محزنة، لكن يانشنغ كان يعرف باحتمالية عودة تشن تشانغ جيه رفقة ينغ تاو إلى يانجين بعده مباشرة، قد يجتمعان معًا مرة أخرى. لم يستطع إخبار صديقه بذلك، فأجاب: هناك فرصة، لا بد أن تكون هناك فرصة. ثم طلب من صديقه العودة، سار متظاهرًا بالعرج؛ بعد المشي لمسافة مائتي متر نظر وراءه فرأى تشن تشانغ جيه لا يزال واقفًا عند مدخل الزقاق يتطلع إليه. لوّح له مودعًا، فعل الصديق الشيء نفسه؛ انعطف يانشنغ إلى اليمين ودخل إلى زقاق آخر، توقف عن التظاهر بالعرج، وسار مسرعًا جهة شاطئ النهر للحاق بالعبّارة.

عندما وصل إلى محطة القطار، لم يجد تذاكر لقطار العودة إلى شينشيانغ سوى في رحلة الثانية عشرة عند منتصف الليل. اشترى تذكرة القطار، نظر إلى الساعة على معصمه، وجدها الثالثة والربع عصرًا، لا يزال أمامه أكثر من ثماني ساعات. تذكّر أن صديقه أراد اصطحابه لزيارة برج طائر الكركي الأصفر، سأل بعض المارة، استقل الحافلة المتوجهة إلى برج طائر الكركي الأصفر. في ذلك الوقت بلغ سعر تذكرة الدخول إلى البرج ماو ونصف، اشترى واحدة، دخل من البوابة، تسلق منحدر التل، عندما وصل أمام البرج، شاهد سطرين مكتوبين فوق الأعمدة على جانبي البرج: «غادر الأسلاف راكبين فوق طائر الكركي الأصفر، وبقي برج طائر الكركي الأصفر هنا مهجورًا». لم يفهم ما تعنيه العبارة، لم يهتم؛ فقط فكّر في إمكانية عودة صديقه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى يانجين مع ينغ تاو في غضون الأيام القليلة القادمة. لكنه تذكّر ما قالته له في محطة سكة حديد شينشيانغ، إذا لم يعد تشن تشانغ جيه معها فسوف تنغص عليه حياته، وهذا هو سبب إصرارها على المجيء رفقته إلى ووهان. بالطبع لن يصمد شخص أمام شبح ينغص عليه حياته. هو ليس له علاقة بهذا الأمر من الأساس ومع ذلك لم ينجح في التخلص منها، أما تشن تشانغ جيه فهو زوجها السابق ولن يستطيع التخلص منها. ومن هذا المنطلق فليس هناك شك في أنه سيعود رفقتها في غضون أيام قليلة. تذكّر رسالة صديقه التي دعاه فيها إلى حفل زفاف، لقد كتب في نهايتها «سأخبرك بالتفاصيل عندما نلتقي»، فما هي تلك التفاصيل؟ لقد نسي أن يسأله وقت تناول المعكرونة عن هذه التفاصيل، لكن ليس بوسعه الآن سوى انتظار عودته معها بعد أيام ليسأله وجهًا لوجه عن التفاصيل التي لم يذكرها له.

10

عاد يانشنغ إلى بيته، سألته زوجته عن الحمى التي عانى منها في لويانغ. أجابها بتخلصه منها، والفضل في ذلك يعود إلى ابن عم زميله في المتجر منغ العجوز، ففور سماعه بمرضه طلب من زوجته أن تغلي بعض حساء الزنجبيل وترسله له في الفندق ليشربه. وبعد يومين من التعرّق خفت الحمى. استطرد: في المرة القادمة التي يأتي فيها إلى يانجين لا بد أن أدعوه لتناول الطعام.

تحسست زوجته جبهته، وجدت أنه لا يعاني من الحمى، فلم تأخذ الأمر على محمل الجد. بعد ذلك انتظم في عمله بمتجر المواد الغذائية. ما آثار دهشته أن الأيام مرت دون أن يعود صديقه رفقة ينغ تاو. وفي مساء أحد الأيام بعد مرور أسبوعين، رآها في منامه، قالت له: عليك الذهاب إلى ووهان ثانية.

- لماذا؟

- لتأخذني معك إلى يانجين، لا يمكنني البقاء هنا بعد الآن، أنت من أحضرتني وعليك إعادتي.

وكأنه هو الذي أجبرها على الذهاب. حاول إقناعها بأن هذه ليست مسؤوليته،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكنها لم تستمع، قفزت عليه لتتلبس جسده؛ مال سريعًا لتفاديها، اصطدم رأسه بطاولة السرير، استيقظ من نومه، بينما زوجته مستغرقة في النوم يتعالى صوت شخيرها، تطلع خارج النافذة، شاهد ضوء القمر منعكسًا على الجدار المقابل، الظلال الشجرية تتمايل فوق الجدار. اصطحب ينغ تاو إلى ووهان، واتفق الاثنان على أن تنتهي العلاقة بمجرد العثور على تشن تشانغ جيه، وأن ما سيحدث لاحقًا أمر لا يخصه.

الأيام تمر دون أن يعود تشن تشانغ جيه للمساعدة في نقل القبر، شعر بالحيرة، ولم يعرف ماذا حدث في ووهان. يبدو من حلمه أنها تواجه صعوبات أخرى. اعتقد أنه ربما كان مشوش الذهن، لذلك عندما شاهد هذا الحلم ثانية، نهض وذهب للتبول ثم عاد إلى الفراش ونام. لم يتوقع أن تعود إلى حلمه في الليلة التالية. الفرق أنها صرخت قائلة: سأموت من شدة الألم، سأموت من شدة الألم. كأنها تتدحرج وسط غابة من الشجيرات الشائكة.

في صباح اليوم التالي ذهب إلى المتجر، يشعر بعدم الارتياح، فكر في الذهاب إلى مكتب البريد ليهاتف صديقه ليسأله عما حدث في ووهان. لكنه عاد وفكر أيضًا أنها مجرد روح وليست شخصًا، وهذه الروح هو الذي اصطحبها إلى هناك؛ ولو وقع نزاع بينهما فهو المتسبب فيه، لذلك قرر عدم إجراء المكالمة، لكن ظل لا يشعر بالارتياح. بحلول الظهيرة طلب من جاره منغ تولي مهام البيع نيابة عنه، وسار متجهًا صوب زقاق الجنادب في الشارع الشرقي حيث يقطن دونغ، ليسأله عن حل لهذه المشكلة. وكما الحال في المرة السابقة، انتظر من تلقاء نفسه في الصف. حان دوره، ونادت السيدة كواي من داخل الغرفة «التالي». دخل للغرفة، جلس مقابل دونغ، أخبره برحلته إلى ووهان وباتفاقه مع ينغ تاو على عدم تعرُّض أي منهما للآخر بعدها، ثم عودته، وظهورها في أحلامه، وطلبها أن يعيدها. هذه المرة، لم يتحسس العرّاف عظامه، لم يرسل رسالة، لم يُجرِ اتصالاً مباشرًا. قال:

- هذا خطؤها، فهي تخالف الاتفاق الآن.

- هذا بديهي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا تقلق بشأن الحلم. هي الآن مجرد روح موجودة على بُعد آلاف الأميال، غير قادرة على التلبس بك، لذلك ليس بوسعها سوى الظهور في أحلامك؛ تلبُسها بحسدك يجعلك في حالة مرضية، لكن الحلم مجرد كابوس عابر، تجاهل الأمر.

شعر بالارتياح عندما سمع هذا الكلام، همّ بدفع الحساب إلى كواي، لوّح العجوز بيده وقال:

- هذا مجرد سؤال، ولم نحتج لمساعد الراهب الأكبر، فلا حاجه لدفع المال.

ينظر إليه العرّاف دونغ على أنه ممثل معروف؛ لهذا لم يأخذ منه أتعابًا، وليس هذا فقط هو السبب الوحيد، بل لأنه يرغب أيضًا في فعل الخير، حتى لا يكون أعمى في حياته القادمة.

بعدما عاد إلى المتجر، استمر يفكر في ألم ينغ تاو، من المؤكد أنها تواجه صعوبات في ووهان؛ أقلها عدم رغبة تشن تشانغ جيه في العودة معها: «لماذا لم تتمكن من إرغامه على ذلك رغم أنها تفعل ذلك معي؟»، فكّر مليًا دون الوصول إلى نتيجة؛ هل وضعها هناك أسوأ من وضعها السابق في قبرها هنا. إنها إذا لم تتلبس بجسد بشري فلن تعود إلى هنا، هذا مكمن مشكلتها.

تذكّر أنه لعب دور زوجها في المسرحية، وشعر بنوع من المسؤولية، عليه الذهاب إلى ووهان لإعادتها؛ لكن ما هو المبرر الذي سيقوله لزوجته لو أراد السفر مرة أخرى؟ من أين له بنفقات السفر؟ لم يسدد بعد المائتي يوان التي اقترضها قبل سفره، فهل عليه أن يقترض ثانية؟ هو لا يتقاضى سوى ستين يوانًا شهريًا، وزوجته تعرف مقدار راتبه، لذلك ليس بوسعه أن يدخر منه دون علمها. بعدما فكر في الأمر مليًا، فترت رغبته في السفر.

ظلت ينغ تاو تزعجه في أحلامه لمدة يومين، فجأة توقفت عن الظهور. شعر بالحيرة، لماذا لم تأتِ؟ لم تظهر ثانية في الأيام القليلة اللاحقة. بمرور الوقت نسيها، صار يذهب يوميًا إلى المتجر لممارسة عمله المعتاد. أحيانًا يتذكر أنه تركها بمفردها في ووهان، وأنها أرادت العودة، ويتساءل في نفسه ماذا فعلت؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجزء الثالث: الطفل مينغ ليانغ

في ذلك العام

1

خال تشن تشانغ جيه اسمه جيانغ داشان، عامل تحويلة في مستودع مدينة ووهان للقاطرات، وإليه يعود الفضل في عمل ابن أخته كوقاد في المستودع. الخال قصير وبدين، وجهه أحمر، يحب الشراب، وعندما يشرب عادة ما يردد: هل تعرف كم من الوقت مكثت في مستودع ووهان للقاطرات؟ أكثر من ثلاثين عامًا، هل تعلم لماذا يحترمني زملاء العمل؟ السبب كفاءتي وخبرتي. يقول أيضًا: هناك نائبان لمدير المستودع، كلاهما عملا رفقتي كعاملي تحويلة قبل أكثر من ثلاثين عامًا. لم يجرؤ ابن أخته على سؤاله عن سبب استمراره كعامل تحويلة لأكثر من ثلاثين عامًا بينما أصبح كلاهما نائبين لمدير المستودع. فقط كان يلاحظ أنه عندما يلتقي خاله بأشخاص يعرفهم في طريق ذهابه وعودته، يناديه بعضهم باسم المعلم جيانغ، والبعض الآخر ينادونه بجيانغ العجوز؛ كما أنه هو من يبادر بإلقاء التحية على الآخرين في معظم الأوقات، بينما قلة هم من يبادرون بالتحية، علم أن هناك فجوة بين موقف الجميع تجاهه، وبين الطريقة التي ينظر بها إلى نفسه. لا يمكن القول إن خاله لا يحظى بأي مكانة في عمله، وإلا فكيف أمكنه ترشيح تشن تشانغ جيه للعمل في المستودع؟ لكن في الوقت نفسه، مكانة الخال ليست كبيرة أيضًا، وإلا فكيف لم يتمكن من ترشيحه لأي منصب سوى وقاد فقط؟

تعمل القطارات بالمحركات البخارية، تعتمد حركتها بالكامل على تزويد الوقادين فرن القاطرة بالفحم يدويًا بالمجرفة، ثم إشعال الفرن، حينها يتولد البخار داخل المرجل لدفع القطار للأمام؛ لذلك فمهنة الوقاد من أكثر المهن التي تتطلب أعمالاً بدنية شاقة. ومع ذلك فالحصول على وظيفة فور الانتقال إلى مكان جديد هو أمر جيد على أية حال.

بعد مجيئه إلى ووهان بصحبة ابنه نزلا في عنبر العمال العزاب في مستودع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القاطرات، فقد انضم للعمل حديثًا، وليس بوسعه سوى العيش في عنبر نوم كبير. هذا العنبر يستوعب ثمانية وعشرين شخصًا من العاملين في مختلف المهن، منهم عمال التحويلة، عمال دوريات الطرق، الميكانيكيون، مساعدو السائقين، والوقادون، وغيرهم. أعمال جميع هؤلاء العمال مرتبطة بالتنقل على خط السكة الحديد، تستغرق وردية عمل الواحد منهم من ثلاثة إلى خمسة أيام. في معظم الأحيان لا يكون هناك سوى بضعة عشر عاملاً من بين هؤلاء الثمانية والعشرين في العنبر على مدار أيام الأسبوع؛ وأحيانًا لا يكون هناك سوى ثلاثة أو خمسة؛ وفي بعض الحالات الخاصة، يكون العنبر خاليًا تمامًا.

لم يُخصَّص لابنه سرير للنوم، لذلك نام معه على نفس السرير. لحسن الحظ، عادة ما يكون هناك الكثير من الأسرّة الشاغرة داخل العنبر، لذلك لم يعترض أحد على وجود طفل إضافي. عندما يسافر تشن تشانغ جيه خلال وردية عمله، يترك الطفل وحده في العنبر. وتعلم الطفل منذ بلغ الثالثة حمل وعاء الطعام والذهاب وحده إلى مطعم العمال. لا يشعر مينغ بالخوف أثناء ذهاب أبيه إلى ورديته التي تستمر من ثلاثة لخمسة أيام إلا عندما يحل الظلام، يسأل أباه: متى ستعود هذه المرة؟ يرد الأب بضيق: كف عن هذا السؤال، إذا لم أذهب للوردية، فكيف سنأكل؟

يعمل أكثر من خمسة آلاف موظف في المستودع. عندما جاء تشن تشانغ جيه لأول مرة شعر بغربة، ثم تعرّف تدريجيًا إلى زملائه. في بداية العمل تعلّم كل شيء من الصفر، بداية من كيفية ملء الفرن بالفحم في بداية حركة القطار، أو كمية الملء المناسبة لكل سرعة أو حسب مكان السير، وكيفية توفير الفحم، وغير ذلك من المهارات.

لم يفكر في الزواج ثانية. من قبل كان محبًا للكلام وإلقاء النكات، لكنه الآن تغير تمامًا، وفي غفلة مرت ثلاث سنوات على مجيئه إلى ووهان.

في مساء الثلاثين من أبريل لهذا العام أقامت الإدارة احتفالاً بيوم العمال الذي يوافق الأول من مايو. وفي الحفل كلفت الأقسام المختلفة التابعة لإدارة مستودع القاطرات، مثل قسم خدمة القطارات، وقسم الدعم الفني، وقسم الأمن، وقسم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحطات، وقسم المركبات وغيرها، موظفيها بتقديم بعض الفقرات والعروض في قاعة الاحتفالات بإدارة المستودع. بعد ظهر ذاك اليوم عاد تشن تشانغ جيه منهكًا من وردية عمل خمسة أيام؛ لم يكن يعمل كوقاد على قطار ركاب، بل على قطار بضائع؛ وهي أهم من قطارات الركاب، علم عن الحفل وقرر ألا يذهب لكي يحظى بنومة هادئة في العنبر، إلا أن ابنه أصر على الذهاب إلى الحفل، فانصاع لرغبته.

في ذلك الوقت كان رئيس إدارة المستودع السيد مين يشارك في هذا النوع من الاحتفالات كلما سمح وقته. لم يكن ينوي حضور حفل عيد العمال لهذا العام، لأن نائب وزير السكك الحديدية جاء أمس من مدينة تشانغشا وتوقف في ووهان لبعض الوقت، ويجب مرافقته طوال فترة وجوده. بحلول المساء تلقى نائب الوزير مكالمة من بكين، طُلب منه العودة لحضور اجتماع مهم، فغادر سريعًا دون حتى تناول العشاء، أوصله السيد مين إلى المحطة، ثم عاد إلى مقر الإدارة. وبينما هو يتناول العشاء شاهد من النافذة أضواء ملونة معلقة خارج قاعة الاحتفالات فتذكّر الحفل، فذهب للمشاركة. علم الجميع بحضور رئيس الإدارة، وعندما بدأت العروض أخذ الجميع يؤدون بجدية أكبر، والجمهور يصفق بحماسة أعلى. بدأ العرض بفقرة فنية لفوانيس مقاطعة هوبي أداها أعضاء من المكتب الإداري، تلاها عرض لأغنية قوارب التنين الشعبية أداها أفراد من قسم الأمن، ثم مونولوج فكاهي أداه أفراد من قسم النقل، وعرض القصبة المزدوجة أداه أعضاء من قسم الكهرباء، وعندما جاء الدور على قسم المركبات توقف البرنامج. كان قسم المركبات سيؤدي فقرة غنائية من مسرحية «المحظية المخمورة»، وقد أعلن مقدم الحفل اسم العرض ضمن قائمة الفقرات في بداية الحفل، لكن الممثلين لم يظهروا على خشبة المسرح، حل الصمت، ثم عمت أجواء من الاستهجان وسط القاعة، حينها نهض السيد مين وسأل: ماذا حدث لقسم المركبات؟ لماذا لم يظهر أي منهم؟

هرع مدير نادي مستودع القاطرات من خلف المنصة وقال: أيها الرئيس، حدث عطل مؤقت.

- ماذا تقصد؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- فجأة أصيب الموظف الذي سيلعب دور المحظية بالإسهال، لن يتمكن من التمثيل.

ثم نادى رئيس قسم المركبات وسأله: هل بإمكانك تغيير العرض؟

لكن قسم المركبات لم يكن تدرب على عروض أخرى، فمن أين لهم بعرض آخر؟ احمرّ وجه رئيس قسم المركبات خجلاً وقال:

- لم أتوقع أن يصيبه الإسهال، ولم أجهز عروضًا أخرى.

قال مدير النادي: أيها الرئيس، لقد شاهدت بنفسك، الوضع مفاجئ؛ العرض التالي هو أغنية ورقصة «الاحتفال بالحصاد»، يقدمه أعضاء قسم الخدمات اللوجستية، ما رأيك في أن نتخطى عرض قسم المركبات ونقدم العرض التالي كي يستمر الحفل؟

بدا السيد مين مغتاظًا بشكل غير متوقع وهو يقول: لا يمكن ذلك، هذا أمر لا يتعلق بالعرض. ثم أشار إلى رئيس قسم المركبات وصاح فيه: أنت دومًا مستهتر، لماذا لم تستعد مسبقًا بخطة بديلة؟ إذا أصيب سائق بالإسهال هل سيتوقف القطار؟ هل هذا هو أسلوب العمل المتبع في المستودع؟ الفاشل في تجهيز برنامج كهذا، كيف يمكنه قيادة حركة القطارات؟

شعر رئيس قسم المركبات بالحرج، كذلك مدير النادي أيضًا. قاعة احتفالات مستودع القاطرات تستوعب أكثر من ألف شخص، بدوا منزعجين جميعًا مما حدث.

تشن تشانغ جيه، التابع لقسم المركبات؛ والذي سبق أن عمل ممثلاً، لم يهب المسرح أبدًا، رأى الجميع في موقف محرج، فنهض قائلاً:

- أنا من قسم المركبات، هل يمكن أن أقدم عرضًا بديلاً؟

- ما هو العرض؟

- أنا من مقاطعة خنان، يمكن أن أغني مقطوعة من أوبرا خنان.

لم يتوقع أحد أن السيد مين عمل نائبًا لرئيس مستودع قاطرات مدينة تشنغتشو في مقاطعة خنان قبل أن يأتي إلى مستودع هونان، عاش في خنان أكثر من عشر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سنوات. عندما سمع الحديث تحوّل غضبه إلى فرح وقال:

- هل يمكنك أن تغني أوبرا خنان؟ أي أغنية تغنيها؟

- يمكنني أن أغني «أسطورة الأفعى البيضاء».

- «أسطورة الأفعى البيضاء»، هذا رائع. لقد سمعتها من قبل، أيها المدير، دعه يحاول.

ثم أشار إلى رئس قسم المركبات وقال:

- لحسن حظك هناك من ينقذ الموقف، لكني لن أسمح بتكرار هذا الأمر لاحقًا.

- لن يتكرر، لن يتكرر.

طلب تشن تشانغ جيه من ابنه عدم الحركة حتى يؤدي العرض ويعود، صعد إلى المنصة. ولأنه ممثل محترف، فقد بدا شخصًا مختلفًا عما يظهر لهم، لم يعد ذلك الوقاد، بل تحول إلى شخصية مسرحية، سار على المسرح بخطى واثقة، ثم استدار جهة الجمهور بوجهه، فقوبل بوابل من التصفيق الحار. ولأنه لا يوجد من يشاركه الدور، فخياره الوحيد الغناء منفردًا، اختار مقطع «ماذا أفعل، ماذا أفعل؟ كيف العمل؟ كيف العمل؟» الذي اعتاد أن يغنيه أثناء عمله في مصنع الآلات في يانجين، لكن وقتها أثناء أدائه شخصية الراهب فاهاي كان يشاركه شيوشيان والأفعى البيضاء الغناء. خطرت بباله فكرة، سيغني بصوت الراهب فاهاي، ثم بصوت شيو شيان بتعبيرات وإيقاعات مختلفة؛ وبعدها يغير من حركاته وتعابير وجهه، ثم يقلد صوت الأفعى البيضاء الأنثوي؛ وعندما تبكي يتظاهر أيضًا بمسح عينيه بأكمامه.

في المسرحية، يغني فاهاي أمام شيو شيان قائلاً:

تحبها لأنها جميلة كالوردة المتفتحة

من كان يعلم أنها في الأصل أفعى سامة؟!

يرد شيو شيان:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحببتها ولم أعلم أنها أفعى سامة

وإلى الآن أشعر بسكين يجرح قلبي

ترد الأفعى البيضاء على الراهب:

ليس بيني وبينك أي عداوة

لماذا تفرّق بيني وبين من أحب؟

يرد الراهب:

أنا لا أفعل ذلك بدافع حقد شخصي

بل لأضع حاجزًا بين الجنيات وعالم البشر

ثم تظاهر تشن تشانغ جيه كأن هناك ثلاثة أشخاص يمدون أيديهم على المسرح ويغنون معًا:

ماذا نفعل، ماذا نفعل؟!

كيف العمل، كيف العمل؟!

.....

حبس جميع من في القاعة أنفاسهم، أنصتوا إلى كل كلمة في الأغنية، راقبوا كل حركة وكل تعبير. استمر تشن تشانغ جيه يغنى كما لو أن الزمن عاد به إلى الماضي في إحدى لحظات قمة عطائه المسرحي، استعاد مشاعر الحب الملتهبة بينه وبين ينغ تاو. ظل يغني لدرجة أنه تأثر بالمشهد فسالت دموعه بالفعل. وعندما وصل بالغناء إلى «ماذا أفعل، ماذا أفعل؟ كيف العمل؟ كيف العمل؟»، أطبق الصمت على القاعة بأكملها. بعد دقيقة بدا الجميع وكأنهم استفاقوا فجأة، فانخرطوا في التصفيق والهتافات. انحنى تشن تشانغ جيه أمام الجميع ثم نزل من المسرح. لوّح له السيد مين، وخبط بيده على الكرسي بجانبه، طالبًا منه الجلوس وهو يقول:

- أيها الشاب، أنت موهوب للغاية، ما اسمك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- تشن تشانغ جيه.

- كيف أتيت من خنان إلى هنا؟

- عن طريق خالي.

- من هو خالك؟

- جيانغ داشان عامل التحويلة.

- جيانغ داشان، ذلك العامل العجوز في مستودع القاطرات، تذكرته، طويل القامة ولديه بعض البثور على وجهه.

جيانغ داشان قصير القامة لا يتعدى طوله مترًا وستين سنتيمترًا، ووجهه خالٍ من البثور. يبدو أن السيد مين يقصد شخصًا آخر. لكن تشن تشانغ جيه لم يجرؤ على مقاطعته.

- ولماذا جئت من خنان إلى ووهان؟

اختلق تشن تشانغ جيه كذبة وقال:

- كانت الأمور هناك على ما يرام. لكن قبل ثلاث سنوات مرضت زوجتي ثم ماتت. كانت علاقتنا في أفضل حال، بعدها أصبحت جميع الأماكن والشوارع والأزقة تُشعرني بالحزن وأنا فيها وحدي، فأتيت إلى هنا.

- أنت شخص وفيٌ بالفعل، هل تزوجت ثانية بعدما أتيت إلى هنا؟

هز تشن تشانغ جيه رأسه نافيًا.

بدا السيد مين كمن تذكّر أمرًا فجأة، وقال:

- عندي عرض مناسب لك. لديّ ابنة أخت تطلقت مؤخرًا. يمكنكما أن تتعارفا، لو سارت الأمور على ما يرام، سأكون قد وفقت بينكما؛ وإذا لم يحدث فأنا وأنت أصدقاء على أي حال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أكمل بصوت منخفض:

- لقد شاب شعر أختي من كثرة الهموم منذ تطلقت ابنتها.

تسمّر تشن تشانغ جيه وقال متلعثمًا: أيها الرئيس، الأمر مفاجئ بعض الشيء.

ابتسم السيد مين قائلاً:

- أنا فقط أدردش معك، لا أقصد إجبارك على شيء.

في اليوم التالي استغل تشن تشانغ جيه عطلته وذهب لزيارة خاله، أخبره عن عرض الزواج، ورغم أن مين أخطأ في تذكُّر جيانغ، فإنه بدا متحمسًا للغاية وقال:

- ماذا تنتظر إذن؟ أنت لست سوى وقاد فحم، وقد حظيت بفرصة مصاهرة السيد مين، هذا يوم سعدك، لو حدث لن تضطر إلى الاستمرار في عملك كوقاد؟

أضاف في سعادة:

- أرأيت، كان اقتراحي عليك بالقدوم إلى هنا صائبًا.

- ربما يمزح.

- حتى لو مزحة، فليس هناك ما بوسعنا فعله؛ أما إذا كان جادًا، فلا تُفلت الفرصة من يدك.

في صباح اليوم التالي ذهب مدير نادي العمال إلى عنبر العزاب، حيث يقيم تشن تشانغ جيه، وأعطاه تذكرة فيلم، طلب منه الذهاب إلى السينما لمشاهدته مع تشين جيانغ، ابنة أخت السيد مين، في الساعة السابعة مساء، علم أنها تطلقت في مارس من هذا العام، ولديها ابنة تبلغ من العمر ست سنوات. شاهدا معًا فيلمًا اسمه اقتران ملائكي. ثم تمشيا.

سألته:

- ما رأيك في الفيلم؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- جميل.

- ولماذا نمت خلال عرض الفيلم بما أنه جميل؟

صارحها قائلاً:

- جنية نزلت من السماء وتزوجت من راعي البقر. هذا النوع من القصص يحدث فقط في الأفلام والمسرحيات، ولا يحدث في الحياة الواقعية. كنت أؤدي دورًا مشابهًا عندما كنت ممثلاً في الفرقة المسرحية، الأحداث متشابهة تقريبًا، لذلك نمت.

ضحكت تشين. وفي طريقهما مرا بكشك يبيع رقاب البط المشوية، أمامه كثير من الناس يأكلون ويشربون البيرة، فسألت:

- هل تحب الشرب؟

- في مسقط رأسي، لطالما شربت رفقة أصدقائي. بعدما جئت إلى ووهان، انشغلت ولم أعد أشرب.

- هل تحب التشاجر مع الآخرين؟

- قبل بضع سنوات، كنت حاد الطبع.

سكت، اختلق كذبة:

- عندما مرضت زوجتي، واضطررت لطلب المساعدة من الآخرين، صرت أكثر هدوءًا.

- قلت إنك عملت ممثلًا في الماضي. أسمع أن الممثلين عديمو المشاعر، ينظرون إلى الحياة على أنها مسرحية، أليس كذلك؟ لا تغضب من حديثي، فأنا لا أجيد تجميل الكلام، ثم إنني عانيت كثيرًا في زواجي السابق.

- ربما يكون هذا حال الممثلين بالفعل، لكني لست كذلك، كما أنني لم أعد ممثلاً، أصبحت وقادًا.

- كم أنت بارع في الإجابة، لا عجب أنك كنت ممثلاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أليست هذه هي الحقيقة؟

- لقد طرحت عليك عدة أسئلة، فلماذا لا تسألني أي سؤال؟

- لا أعرف ماذا أسأل.

- خالي على حق، أنت شخص طيب.

في المرة التالية التي حصل فيها تشن تشانغ جيه على إجازة من عمله، ذهب الاثنان إلى برج الكركي الأصفر. شاهدت تشين الجملتين المنقوشتين على أعمدة البرج: غادر الأسلاف راكبين طائر الكركي الأصفر، وبقي برج طائر الكركي الأصفر مهجورًا، فسألته:

- هل تعرف ماذا يعني هذا؟

- أليس معناه أن الناس يغادرون وتبقى الأماكن خالية.

- هذه الجملة تقصدنا

- فعلاً؟

- أكيد، لقد غادرنا من كانوا معنا في الماضي، تركونا وحدنا، رجل أرمل وامرأة مطلقة؟

- لم أتوقع منكِ أن تكوني بارعة في فهم مثل هذه المعاني العميقة.

في المرة التالية التي حصل فيها على إجازة، ذهبا إلى البحيرة الشرقية. سارا على امتداد البحيرة. سألته:

- ما نوع الأصدقاء الذين تصادقهم عادة؟

- أنا مجرد وقاد فحم، ليس لديّ رفاهية اختيار الأصدقاء، لو لي أن اختار، فأفضّل مصادقة الأشخاص قليلي الكلام.

- قليلو الكلام أفضل من الثرثارين المداهنين، أليس كذلك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أعتقد ذلك أيضًا.

- ما نوع شخصية طفلك؟

- قليل الكلام، لكنه مثل باقي الصبية، يكون شقيًا في بعض الأحيان.

- ابنتي تبلغ من العمر ست سنوات فقط، أحيانًا تتنهد بلا سبب، هل تعرف لماذا؟

- مؤكد أنها تشعر بالأسف من أجلك، طفلة بارة.

بحلول الظهيرة، تناولا كعك الأرز اللزج والمعكرونة الجافة. وأثناء الطعام سألته:

- كم مرة التقينا؟

- ثلاث مرات.

- لقد تقابلنا، وخرجنا معًا، لسنا صغارًا، كلانا مسؤول عن أسرة ولديه طفل يرعاه، وليس هناك مجال للحديث عن الحب والغرام كحال الشباب والشابات، سأسألك الحقيقة، هل تريد الزواج مني؟

- لا.

- لماذا؟

- لا أملك مسكنًا.

كادت تقطم من كعكة أرز، ولكن توقفت وقالت: خالي على حق، أنت شخص طيب.

بعد شهر تزوجا. لأن تشين هي ابنة أخت المدير، منحتهما الإدارة شقة صغيرة. كل منهما لديه طفل، وهم الأربعة يعيشون في شقة ضيقة من غرفتي نوم، تشارك الزوجان غرفة، وتركا الثانية للطفلين، مينغ ابنه مع ويوي ابنتها، تنام ويوي على السرير السفلي، وينام مينغ على السرير العلوي. وعندما يسافر تشن تشانغ جيه خلال وردية العمل، تعود ويوي للنوم مع أمها في غرفتها، ويبقى مينغ وحيدًا في الغرفة الأخرى. قبل ذلك أثناء نومهما في العنبر كان مينغ يكره أيام عمل أبيه، أما الآن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهو ينتظرها بفارغ الصبر، الغرفة تصير ملكًا له وحده. لم تبادر تشين زوجة الأب بالتحدث إلى مينغ، تتصرف وكأنه غير موجود، وفعل الطفل الأمر نفسه.

2

حين بلوغه السادسة التحق مينغ بمدرسة زقاق السمسم الابتدائية في ووهان. بعد انتهاء الدراسة ظُهر ذلك اليوم، عاد إلى المنزل فوجد ضيفًا، أخبره أبوه أنه «عمه»:

- هذا هو عمك يانشنغ، جاء من مسقط رأسنا.

قضى مينغ في ووهان في ثلاث سنوات، نصف عمره الذي قضاه في يانجين ولا يتذكر منه أي شيء، لكنه عندما رأى هذا الضيف، شعر كما لو أن جسده قد صُعق بالكهرباء فجأة، أحس بوجود أمه.

بدأ مينغ في استيعاب الأمور، حين عمل أبوه وأمه في مصنع القطن في يانجين، وبعد انتهاء العمل كل يوم، كان يرى أبويه يعودان ورأساهما مغطيان بطبقة من زغب القطن. يتشاجران طوال الوقت. مينغ صغير لا يعلم سبب شجارهما. فقط يتذكر أكثر كلمة يكررانها «هذا ممل». لاحقًا، انتحرت أمه شنقًا بسبب حفنة من الكراث. لم يكن مينغ يعرف ما هو الملل عندما كان طفلاً، لكنه علم بعد عقود أن الملل يمكنه جعل الناس ينتحرون شنقًا، أو بالقفز من أعلى المباني. بعد عقود، حين يطالع مينغ الأخبار على هاتفه المحمول ويجد شخصًا ما شنق نفسه أو قفز من أحد المباني، يجد من حوله يسألون: هل يستحق الأمر هذا؟ ما الداعي للانتحار؟ يرد: نعم الأمر يستحق، الملل هو السبب. يسأله الناس: كيف عرفت؟ لا ينطق بإجابة، لكنه في داخله يقول: من أمي.

اليوم الذي انتحرت فيه أمه كان يوم أحد، يومها استعدت العائلة لطهو الجياوتسي(7). بعد تناول الإفطار، ذهب أبوه لشراء حفنة من الكراث، ولأنها غير طازجة تشاجرت أمه مع أبيه. بعد ذلك بكت الأم وقالت: هذا ممل. ركل الأب المبصقة الموضوعة أمام السرير بقدمه - في ذلك الوقت كان استخدام المبصقة في البيوت أمرًا طبيعيًا- وصاح: هذا ممل، غادر البيت وأغلق الباب بعنف تاركًا الأم وابنها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انخرطت الأم في البكاء إلى أن استلقت ونامت على السرير. أمسك مينغ بالمبصقة المقلوبة ووضعها في مكانها، ثم مسح مكانها بالممسحة، وجلس على حافة السرير يهز ساقيه. بعد ما يقرب من ساعتين استيقظت الأم، شاهدت مينغ جالسًا على حافة السرير، أخرجت اثنين ماو(8) من جيبها، وقالت له:

- ألست تحب شرب المياه الغازية؟ اذهب واشترِ لنفسك زجاجة.

أخذ مينغ النقود، لكنه لم يخرج لشراء المياه الغازية، ظل جالسًا على السرير يهز ساقيه، عندما رأى أمه تعود للنوم مرة أخرى نزل من على السرير، ثم خرج إلى الشارع متوجهًا إلى كشك المشروبات الغازية، اشترى واحدة؛ سعر زجاجة المياه الغازية وقتها ماو ونصف، أعطاه بائع المياه الغازية الباقي نصف ماو؛ وضع النصف ماو في جيبه، ثم جلس على درج السلم على جانب الشارع يشرب المياه الغازية ويتفرج على المارة. بعدما انتهى، أعاد الزجاجة الفارغة إلى صاحب الكشك، ثم ذهب إلى متجر الحلوى القريب، اشترى بالنصف ماو قطعتين من حلوى الأرنب الأبيض. وضعهما في جيبه ثم خرج من المتجر وجلس على درج السلم بجانب الشارع، نزع غلاف قطعة من الحلوى، وضعها في فمه يتناولها على مهل متابعًا المارة. بعدما انتهى من تناول القطعة الأولى، أخرج الثانية ونزع غلافها وتناولها بالطريقة نفسها. بعدما انتهى، ذهب إلى التقاطع لزيارة جدته، عائلة جدته تبيع كعك العناب. ولأن أمه تشاجرت من قبل مع جده وجدته، لم يكن هناك تواصل بين العائلتين، لذا يُخفي الطفل أمر الزيارة عن أمه.

يحب مينغ جدته، فالجدة تمسك بيده و«ترش الهواء» له، أي تحكي له الحكايات، كما أنها تعطيه كل الطعام اللذيذ في المنزل، الجد له لحية تشبه لحية الماعز، وجهه عابس طوال الوقت، وهو شديد البخل، يبيع الكعك، ولا يعطي مينغ منه، يقول «للبيع، وليس للأكل». كل هذه الأسباب جعلته لا يحب جده.

عندما وصل إلى التقاطع لم يجد جدته، الجد جالس يبيع الكعك وحده. رآه الجد قادمًا وتجاهله كالعادة. جلس مينغ على درج السلم بجانب الشارع ينتظر الجدة، يعرف أنها عندما تأتي ستعطيه قطعة كعك ليأكلها. انتظر حتى الظهيرة، لكن الجدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم تأتِ، قرصه الجوع، نهض من على الدرج، ثم غادر التقاطع متجهًا إلى البيت. وعندما وصل كانت أمه قد شنقت نفسها.

منذ ذلك اليوم ظل يفكر في أمر واحد، وهو أنه لو لم يذهب لشرب المياه الغازية، وتناول حلوى الأرنب الأبيض، والجلوس عند التقاطع لانتظار قطعة كعك؛ لو لم يخرج من البيت، أو لو عاد سريعًا، لم تكن أمه لتنتحر؛ ولو حاولت الانتحار، كان يمكنه منعها. رسخ داخله اعتقاد بتورطه في موت أمه.

في ذلك اليوم المشؤوم أنزلوا والدته من على المشنقة، وحُملت إلى المستشفى، ثم أُعيدت إلى المنزل، ووُضعت في نعشها. جلس أمام النعش دون أن ينطق بكلمة. لاحظ حفنة الكراث التي اشتراها أبوه في الصباح ملقاة عند زاوية الجدار وقد اهترأت بعدما دهستها الأقدام. ليلاً عثر على صورة لأمه بين الورق المبعثر بجوار النعش، طالعها، التقطت الصورة خلال عرض الأفعى البيضاء. وضع الصورة في جيبه. دُفنت أمه في مقبرة جماعية، ثم غادر بعدها من يانجين إلى ووهان رفقة أبيه. مرت ثلاث سنوات، بهتت خلالها تلك الصورة التي يحملها في جيبه، وهو ما جعله يشعر أن أمه صارت بعيدة عنه. ولم يتخيل أن يشعر بقربها ثانية حتى وصل هذا العم القادم من يانجين.

3

كان الهدف الأساسي لقدوم ينغ تاو إلى ووهان هو إعادة تشن تشانغ جيه معها إلى يانجين لنقلها من المقبرة الجماعية، والبُعد عن ذلك المغتصب القاتل الذي أُعدم رميًا بالرصاص، لكن بعدما وصلت وجدت أن زوجها لم يعد هو من عرفته سابقًا. فبعد دخولها منزله الجديد، ورؤية المتعلقات والأشياء فيه، لم تجد لها أثرًا في أي زاوية، ولا أي إشارة لحياتهما السابقة معًا، حينها علمت أنه نسيها تمامًا؛ لا تلومه على ذلك، فالأيام تُنسي الناس علاقات الماضي مهما كانت قوتها، كما أن علاقتهما لم تكن جيدة، فبعد عامين من الزواج تحوّل الحب إلى علاقة مملة؛ لم تشعر بالغيرة لزواجه من تشين، لكن بعدما رأت ابنها مينغ، شعرت أن هذا المكان قريب منها. جاءت إلى ووهان للبحث عن تشن تشانغ جيه، لكن بعد وصولها أدركت أنها جاءت لأجل ابنها،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا ما دفعها لتغيير رأيها، لم تعد راغبة في العودة، ستقيم هنا بجواره، يمكنها أن تصبح العضو الخامس في هذه الأسرة. لن تشغل مساحة إضافية بهذه الشقة الصغيرة، كما أنها لا تأكل أو تشرب، لن تسبب لهم أي مشكلة؛ ستتجاهل الزوجين والابنة ويوي، تذهب رفقة ابنها إلى المدرسة في النهار وتنام جواره في الليل.

لن تعود إلى يانجين، ولن تتمكن روح المغتصب في تلك المقبرة الجماعية من المجيء إلى ووهان دون تلبُّس جسد شخص ما؛ ومكوثها هنا يعني تخلصها منه، لذلك فلا داعي لنقلها من المقبرة الجماعية. هناك أمر آخر، تشعر أن هذا المكان قريب منها، ليس فقط لأنها رأت ابنها مينغ، لكن بسبب وجود صورة قديمة لها مخبأة في جيبه. لولا هذه الصورة لما بقي لها مكان تتلبسه روحها هنا؛ لأنه لا يمكنها سوى تلبس شخص تعرفه، وسواء تلبست جسد الزوج أو الابن، فسيصاب كلاهما بالمرض، وهذا ليس حلاً طويل المدى، لكن يمكنها التلبس بصورتها، وبذلك تظل ملازمه لابنها.

الهدف الثاني لها هو أن تطلب من تشن تشانغ جيه تعليمها إلقاء النكات، تريد أن يدربها على خمسين نكتة مضحكة من جملة واحدة، وبعدما تعود إلى يانجين تُلقي النكات على ملاك الموت، حينها سيمكنها التناسخ؛ ولكنه لم يعد قادرًا على إلقاء النكات. ليس هذا فحسب، إنه نادرًا ما يتحدث، تمامًا مثل وو ذي الفم الكبير خلال حياته، لم يعد بإمكانها الآن تعلم الخمسين نكتة منه، ولن تستطيع التناسخ، وبالتالي فمن الأفضل لها البقاء هنا.

رافقت ابنها للمدرسة لمدة يومين، تجولت خلالهما في شوارع ووهان وأزقتها، اكتشفت صرامة المدينة وخلوّها من حس الفكاهة، فالناس هنا لا يحبون النكات؛ بعكس يانجين التي تنقذك فيها نكتة من هوا آرنيانغ التي تنتظرك في أحلامك. فضّلت المكان هنا لقرب الأجواء الصارمة من شخصيتها ولبُعدها عن الجنية هوا آرنيانغ، لكنها لطالما تنهّدت وحيدة خلال الليل، لو أن لها إمكانية العيش في مسقط رأسها مع هذه المميزات! عاودت التنهد، أخذت تفكر في حياتها الجديدة كصورة، بينما يانجين تشغل حيزًا كبيرًا داخلها لا يرغب في التقلص.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منذ أن شعر مينغ بوجود أمه بجواره، لاحظ أن صورتها عادت زاهية كالسابق. بالإضافة إلى ذلك، صار بإمكانه سماع أمه تتحدث إليه، قالت له:

- مينغ ليانغ.

- أمي.

- جئت من مسقط رأسي لزيارتك.

- شعرت بوجودك.

- هل تريدني أن أغادر؟

- لا.

- لا أريد تركك وحدك، لكن هل تشعر بالخوف من كوني مختبئة بجوارك؟

- لا.

- لا تُخبر الآخرين عن هذا، فبمجرد أن يكتشف الآخرون ذلك لن أتمكن من البقاء بجانبك.

- لن أفعل.

لا أحد آخر يسمع حديث ينغ تاو بخلاف مينغ. في بعض الأحيان عندما يجتمع أفراد الأسرة الأربعة لتناول الطعام يتوقف مينغ عن الأكل ويتحدث إلى نفسه، وأحيانًا أخرى يتحدث إلى نفسه أثناء السير في طريقه. يسأله أبوه: ما الذي تقوله في سرك؟

«لا شيء»، أو «أخشى أن يسألني المعلم في المدرسة، لذلك أردد الإجابات في سري». جملتان يختار منهما واحدة يقولها حين يسأله أبوه.

بعد أسبوعين اكتشفت تشين وجود ينغ تاو المختبئة داخل الصورة التي يحملها مينغ. واللوم في هذا الأمر يقع على ينغ تاو نفسها. في البداية عقدت العزم على العيش بهدوء وسط العائلة، ولم تهتم بأحد في المنزل سوى مينغ. كانت تذهب معه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى المدرسة أثناء النهار، وليلاً بعد نومه تخرج من الصورة، ترتب حقائبه المدرسية، تنظف بقع الطعام من على ملابسه. لاحظ الزوجان أن مينغ صار أكثر نظافة من ذي قبل، فاعتقدا أنه كبر وصار مهتمًا بنفسه؛ ولم يهتما كثيرًا، لكن بعد أسبوع أقدمت ينغ تاو على فعل شيء آخر، وهو ما كشف أمر وجودها.

في تلك الليلة، بعد نوم مينغ، نظفت ينغ تاو بقع الطعام من على ملابسه، ثم ذهبت إلى باب غرفة المعيشة لنفض الغبار عن حذائه، أثناء ذلك سمعت أصوات تأوهات قادمة من غرفة الزوجين، تسمّرت مكانها مغتاظة. تتذكر أنها وتشن تشانغ جيه كانا قد توقفا عن ذلك بعد عامين من زواجهما، والسبب هو أنه لم يكن يجيد الأمر، توقف ذلك كان من عوامل دعم حياة الممل التي عاشاها، ولو أنه أجاد ذلك لما توقفت الحياة بينهما، والآن أصبح يجيد ذلك مع زوجته الجديدة؟ ألا يعني ذلك أن العيب فيها؟ استشاطت غضبًا وهي تستمع إلى تأوهاتهما المستمرة. لم يكن بوسعها إيقاف الأمر، ركضت إلى الحمام وألقت الملابس الداخلية لزوجته في المرحاض. في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، ذهبت تشين إلى الحمام، رأت ثيابها الداخلية داخل المرحاض. لم تهتم، ظنت أنها لم تكن مثبتة جيدًا على علّاقة الملابس وسقطت، تكرر ذلك في اليوم التالي، شعرت بأن ما يحدث غير طبيعي. في البداية اعتقدت أن مينغ هو من يفعل ذلك للتنفيس عن غيرته واستيائه من زوجة أبيه، ثم فكرت في أمر ملابس مينغ التي أصبحت نظيفة هذه الأيام، وتحدثه إلى نفسه كما لو أن شخصًا آخر معه، اشتبهت في وجود سبب آخر. لكنها لم تخبر زوجها بشكوكها، لأنها لو كانت مخطئة ستصبح هي الجاني. ذهب الزوج إلى وردية عمل طويلة، وجاءت ويوي لتنام معها، سألتها بصوت منخفض:

- ويوي، هل لاحظتِ أي تغيرات بشأن مينغ أثناء وجودك معه في الغرفة؟

- عادة ما يتحدث إلى نفسه.

- أعلم ذلك، وماذا أيضًا؟

- في السابق، كان يخلع ملابسه وينام فور ذهابه إلى الفراش. أما الآن فقبل ذلك يستلقي ويتطلع خلسة إلى إحدى الصور.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بحلول منتصف الليل تسللت تشين إلى غرفة مينغ، وعندما رأته نائمًا التقطت الملابس التي خلعها من فوق السرير، عثرت على صورة مخبأة في جيب ملابسه. بمجرد أن أمسكتها انبعث منها ضوء أحمر، شعرت كأنها صُعقت بالكهرباء، سقطت الصورة من يدها على الأرض. عندما انحنت لالتقاطها تكرر الأمر. علمت حينها أن هناك خطبًا ما بشأن هذه الصورة، لذا اتجهت للمطبخ، ارتدت القفازات المطاطية المستخدمة في غسل الأطباق، ثم عادت إلى غرفة مينغ، التقطت الصورة من على الأرض؛ تطلعت مليًا إليها، علمت أنها ينغ تاو لأنها رأت صورتها من قبل مع زوجها في اليوم السابق لزواجها منه. في ذلك الوقت كانا يرتبان بيتهما الجديد، فقالت فجأة:

- أرني صورة زوجتك السابقة.

- لماذا؟

- أشعر بالفضول.

لم يكن أمامه أي خيار سوى إخراج صورة من محفظته وإعطائها لها. التقطت الصورة بعد مرور شهر على ميلاد مينغ، يومها ذهبا إلى الاستوديو خصوصًا لالتقاطها، تظهر فيها ينغ تاو جالسة على كرسي تحمل مينغ بين ذراعيها، بينما يقف تشن تشانغ جيه بجانبها، وهناك ستارة خلفهما مرسوم عليها مزهرية بها باقة من زهور الياسمين. بعد مشاهدة الصورة علقت تشين:

- كانت جميلة بالفعل.

- لقد وضعت بعض المكياج قبل الذهاب إلى الاستوديو، فالممثلون يعرفون كيف يضعون الماكياج، لذلك من الطبيعي أن تبدو جميلة.

وما هو المرض الذي أودى بحياتها؟

بسرعة كذب قائلاً:

- تليُّف الرئة.

- لقد أطلعتني على صورة زوجتك السابقة، فهل ترغب في رؤية صورة زوجي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السابق؟

هز تشن تشانغ جيه رأسه نافيًا.

- لماذا؟

- لا فائدة من مشاهدة صورته.

- بالفعل، هذا أمر عديم الفائدة.

الآن فقط فهمت تشين سبب وجود ملابسها الداخلية ملقاة داخل المرحاض، في هذه اللحظة صار للصور فائدة. قالت: السبب هو أنتِ إذن، لقد أتيتِ إلى ووهان للانتقام وتدمير حياتي، لحسن الحظ أنني رأيت صورتك من قبل.

أمسكت بالصورة، خرجت من الغرفة، لفّتها بقماش بلاستيكي لتعزل الكهرباء التي تصدر عنها؛ ثم وضعتها في جيبها؛ وعادت إلى غرفتها، همست إلى ويوي قائلة:

- لا تخبري والد مينغ بما حدث الليلة.

- حسنًا.

استيقظ مينغ في وقت مبكر من اليوم التالي، اكتشف أن صورة والدته اختفت. المفترض أن مينغ وويوي يعيشان في الغرفة نفسها طوال الوقت، لكنها لم تكن تناديه أخي، كذلك لم ينادها أختي، لا يتشاجران، لكنهما ليسا قريبين من بعضهما. اشتبه مينغ أولاً في أن ويوي أخذتها، فعلى الرغم من أن والده سافر للعمل وويوي نامت مع أمها في الغرفة أخرى، بقيت أغراضها بالكامل هنا، وفي الليل تأتي إلى هذه الغرفة لأخذ ملابس النوم، وصباحًا تأتي لأخذ حقيبتها المدرسية. سألها مينغ:

- معي صورة أحملها في جيبي، ربما تكون قد سقطت على الأرض الليلة الماضية. هل أخذتها؟

- لا.

أثناء تناول الإفطار، سأل مينغ زوجة أبيه: «معي صورة أحملها في جيبي، ربما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تكون قد سقطت على الأرض. هل رأيتِها وأنتِ تكنسين الأرض في الصباح؟».

- صورة مَن؟ لا أعرف عما تتحدث.

بعد ذهابه إلى المدرسة أخذت تشين الصورة إلى عرّافة في الضاحية الغربية من ووهان. بدأت العرافة رحلتها كراهبة طاوية، بعد ذلك تركت حياة الرهبنة ومارست الدجل والشعوذة بالإضافة إلى عمل تعويذات طرد الأرواح والشياطين. قصت عليها الحكاية. طمأنتها العرافة:

- من السهل علاج المشكلة ما دمنا قد عرفنا المتسبب فيها، أعطيني تلك الصورة.

سلّمت تشين الصورة الملفوفة في غلاف بلاستيكي إلى العرّافة التي قالت:

- اذهبي إلى الغرفة الأمامية لدفع الحساب، واعتبري الأمر قد انتهى، فلن يعود بإمكانها مغادرة المكان.

في تلك الليلة حلم مينغ بأمه. رآها تتدحرج وسط الأدغال الشائكة، تصرخ: تعال وأنقذني، أكاد أموت من شدة الألم. لا أريد البقاء في ووهان بعد الآن، أريد العودة إلى يانجين. عندما استيقظ وجد العرق يتصبب من كل مكان في جسده. اعتقد أن الكابوس سببه ضياع الصورة منه فلم يهتم، عاد للنوم مرة أخرى. في الليلة التالية حلم بأمه مجددًا، تصرخ طالبة الإنقاذ. أدرك أنها في ورطة حقيقية، سألها:

- أين أنتِ؟

- لا أعرف، فأنا لست على دراية بمدينة ووهان.

- كيف سأجدك إذن؟

- يبدو أن مصيري مثل الأفعى البيضاء، سأبقى مدفونة أسفل المعبد إلى الأبد.

حينها سمع مينغ صوتًا آخر يقول في أذنه:

- أعرف مكان أمك.

- هل يمكنك أن تأخذني إليها؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نعم، لكن هناك شرط، سأساعدك اليوم، وبعد عقود ستأتي إلى ووهان مرة أخرى، حينها عليك أن تساعدني.

- من أنت؟

- ستعرف عندما يحين الوقت.

ارتدى ملابسه خلسة، وتبع الصوت، خرج متسللاً من البيت. الساعة قاربت منتصف الليل، والشارع خالٍ تمامًا، لم يكن يعرف إلى أين يذهب، أخذ يبحث عن مصدر الصوت حوله، ثم سمعه يقول: اتبعني.

اكتشف مينغ أن هذا الصوت مصدره خنفساء تحلق في الأمام. تبعها، انعطفت داخل أحد الشوارع، ثم إلى شارع آخر؛ حتى وصلت إلى فناء صغير؛ ثم حلقت فوق سياج الفناء الصغير، تسلقت من فوقه؛ كذلك فعل مينغ، وصلا إلى كوخ خشبي، فتح بابه، شاهد الأضواء داخله أشبه بحبات الفاصوليا، هناك صورة لشخص معلقة على جدار الكوخ الأمامي، لم يعرف مينغ أن هذه صورة ملاك الموت إلا بعد أن كبر في السن. بجوار ملاك الموت يقف رجل وجهه أزرق له أنياب طويلة، يمسك بعفاريت يأكلها. لم يعرف مينغ أن هذا الشخص يُدعى تشونغ كوي إلا بعد أن كبر في السن، وأمام تلك الصورة شاهد خشبي مثبت عليه صور لأشخاص كثر بواسطة مسامير فولاذية. ومن بين هذه الصور صورة أمه، مغطاة بالكامل بمسامير فولاذية. دون أي مقدمات، سارع مينغ بإزالة المسامير، ثم نزع الصورة وأمسكها في يده، فسمع صوت أمه تبكي:

- ها أنت قد جئت أخيرًا.

- الجروح تملأ جسدي، كأنها نيران مشتعلة.

- وماذا عليّ أن أفعل؟

- ابحث عن بعض الماء، ضعني بداخله، بمجرد أن يغمرني سأكون بخير.

- لست على دراية بهذه المنطقة، لا أعرف أين يمكنني العثور على الماء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تدخلت الخنفساء قائلة: تعال معي، حمل مينغ صورة أمه بين ذراعيه، وتبعها خارجًا من هذا الفناء الصغير؛ حلقت الخنفساء في المقدمة، وخلفها مينغ، انعطفت من شارع لآخر، حتى وصلا إلى ضفة نهر اليانجتسي. مياه النهر مضطربة، يشع فوقها ضوء القمر، بدا سطحه ساطعًا. قال مينغ:

- أمي، هل عليّ أن ألقي بكِ في النهر؟

- نعم، لقد خشيت الماء في السابق، لكني الآن لم أعد أهتم.

أمسك بالصورة، ألقى بها في النهر. بمجرد أن غمرها الماء خرجت الأم من الصورة مرتدية زي الفتاة البيضاء في مسرحية أسطورة الأفعى البيضاء، ثم تحولت هيئتها لتصبح مثل هيئة الفتاة البيضاء في المسرحية، أخذت ترقص بأكمامها المبللة بالماء، وتغنى فوق نهر اليانجتسي تلك الأغنية التي كانت تشكو فيها من فاهاي وشيوشيان. صوتها عالٍ يغلفه حزن وغضب، كأنه يخترق السماء. في تلك الأثناء طارت الخنفساء في الهواء، فجأة انفجرت كالألعاب النارية لتضيء السماء بالألوان. لم يكن بإمكان الآخرين رؤية أو سماع ما حدث. وحده مينغ رأى وسمع. فهم مينغ حينها أن أمه التي كانت تخاف الماء لم تعد كذلك بعدما غطت الجروح جسدها بسبب تلك المسامير الفولاذية. تذكّر أن أمه قالت في الحلم أنها تريد العودة إلى يانجين، قال:

- أمي، دعكِ من الغناء، عودي إلى يانجين بسرعة قبل أن يعلقوكِ على الشاهد بالمسامير الفولاذية مرة أخرى.

جاءت موجة كبيرة، صرخت أمه: خمسة وأربعون... ثم غمرتها المياه. لم يعرف مينغ ما الذي قصدته بذلك. فقط رآها تنجرف مع الأمواج، ثم اختفت في غمضة عين. حينها اعتقد مينغ أنها عادت إلى يانجين، لم يعرف أن يانجين تقع شمال ووهان وأن نهر اليانجتسي يتدفق شرقًا إلا بعدما درس مادة الجغرافيا لاحقًا في الصف الثالث؛ مما يعني أن انجرافها مع الموج يعني أنها لن تعود إلى يانجين أبدًا.

لكن إلى أين ذهبت؟

ملحق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حوار داخل الكوخ

كادت ينغ تاو تموت من شدة الألم بمجرد تثبيتها على الشاهد الخشبي بواسطة المسامير الفولاذية، فتوسلت إلى ملاك الموت قائلة: سيدي، أعلم أنني أخطأت. لقد أخطأت بمغادرتي يانجين ومجيئي إلى ووهان دون إذن. قبل أن يتكلم ملاك الموت، لوّح تشونغ كوي الواقف جواره بالسوط الفولاذي وقال: العالم كله في قبضة ملاك الموت، هل تعتقدين أنكِ بمجيئك إلى ووهان يمكنك الهروب من قبضته؟

سارعت ينغ تاو تكذب قائلة: سيدي، ألم تقُل إن الأشخاص الذين ماتوا بسبب النكات يمكنهم التناسخ بعد إلقاء خمسين نكتة مضحكة مكونة من جملة واحدة؟ باستثناء رعاية ابني أثناء وجودي في ووهان خلال الأيام القليلة الماضية لم أتوقف عن البحث عن النكات، لقد فكرت بنفسي في خمس نكات. من فضلك أنزلني من هنا، وسأحكيها لك، ما رأيك؟

قبل أن يتكلم ملاك الموت، صاح تشونغ كوي مرة أخرى: لقد طلب السيد خمسين، وليس خمسة؛ أنتِ الآن في العالم السفلي، وليس عالم البشر، وما يقال هنا غير قابل للتفاوض، وإلا فالمصير البائس هو نهايتك، وامتلاكك خمس نكات يعني أن المتبقي خمسة وأربعون، يمكنك التفكير فيها على مهل.

بحلول منتصف الليل جاء مينغ لأخذ صورة أمه، لوّح تشونغ كوي بسوطه الفولاذي ليضرب مينغ وهو يقول: لا يزال هناك خمسة وأربعون. بالطبع لم يسمع مينغ هذه الكلمات. طلب ملاك الموت من تشونغ كوي التوقف وقال: ألم تقُل إن العالم كله في قبضتي؟ دعها تذهب، ولننظر ماذا يحدث لها بسبب هذه النكات الخمس والأربعين. ثم أكمل: ربما تحدث أشياء غريبة تكون بمثابة نكتة إضافية.

فهم تشونغ كوي، وترك السوط من يده.

5

جاءت جدة مينغ إلى ووهان. عمرها يتجاوز السبعين. يقع منزل الجدة في الشارع الشمالي بمدينة يانجين. داخل ساحته شجرة عناب، من فرط ضخامتها لا يمكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لشخص أن يلف ذراعيه حولها، بينما يمكن لاثنين معًا فعل ذلك. قالت الجدة إن عمر الشجرة أكثر من مائتي عام، وإن من زرعها هو جد مينغ الأكبر الذي عمل تاجرًا للحمير في شبابه، أحضر معه شتلة شجرة العناب هذه من روتشيانغ في منطقة شينجيانغ. ولا تزال تلك الشجرة مورقة مثمرة، يمكنها أن تطرح ثلاثة أجولة كبيرة من ثمار العناب كل خريف. يخلط جد مينغ وجدته ثمار العناب مع العجين لصناعة كعك العناب، ثم يبيعانه في الشارع من الصباح حتى المساء.

في ذلك الوقت عمل والدا مينغ في مصنع غزل القطن بالمقاطعة، العمل في هذا المصنع مقسم إلى ثلاث ورديات يوميًا، لم يملك والدا مينغ وقتًا للاعتناء به، لذلك اهتمت جدته بشؤونه حتى بلغ الثالثة. أحب الطفل الاستماع إلى حكاياتها كل يوم قبل النوم، ولأن الناس يطلقون على حكي القصص اسم «رش الهواء»، فالطفل دومًا كان يطلب من جدته أن ترش له بعض الهواء، فترد قائلة: حسنًا سأرش لك رشة، أنصت جيدًا.

بعد عقود ظل مينغ يتذكر أن هناك ثلاث «رشات» أحبت الجدة حكيها. إحداها قصة «ذو الفراء الأصفر، ابن عرس». حكت الجدة أنه في طفولتها أتت حيوانات ابن عرس إلى الفناء الخلفي لمنزل أمها. وما إن يحل الليل حتى يقود ذو الفراء الأصفر العجوز مجموعة من ذوي الفراء الأصفر الصغار للعب. حينها يصيح أبوها فيهم قائلاً: توقفوا عن هذا الضجيج، نريد أن ننام. فيرد ذو الفراء الأصفر العجوز: لا. ثم تصطف مجموعة من ذوي الفراء الأصفر الصغار، يضع كل واحد منهم يده على كتف الآخر، يقودهم العجوز في الأمام، ثم يسيرون في طابور من أمام النافذة الخلفية يهزون أردافهم. ذات ليلة زاد الرعد والبرق، سمعنا صوت طرق الباب. فتح أبي الباب، فوجد ذا الفراء الأصفر العجوز واقفًا ينحني أمامه يضم يديه متوسلاً ويقول: إله الرعد يريد التخلص منا، من فضلك اسمح لي أنا وزوجتي وأبنائي العشرة بالاختباء عندك لبعض الوقت. قال أبي: ألن تضايقني ثانية؟ رد: لن أضايقك ثانية. سأله أبي: ألن تثير الضجيج بعد الآن؟ أجاب: لن أثير الضجيج بعد الآن. ذهب أبي إلى الفناء الخلفي، وفتح باب الكوخ، وسمح لذي الفراء الأصفر وعائلته بالاختباء. في صباح اليوم التالي، وبعدما هطل المطر وصفت السماء، ذهب أبي إلى الكوخ فوجد أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذوي الجلود الصفراء قد اختفوا عدا واحدًا أعرج يرقد منكمشًا فوق الحطب. تنهد أبي وحدث نفسه قائلاً: يا ذا الفراء الأصفر العجوز، يا لك من حاذق، تركت لي هذا الصغير الأعرج في الكوخ وسط الخراف كي أعتني به. قالت الجدة إنها لطالما لعبت مع ذي الفراء الأصفر في طفولتها. لكن مرت أكثر من عشر سنوات، ولم يكبر ذو الفراء الأصفر الصغير. سألته: لماذا لا تكبر؟ أجاب: أنا خروف، ولست إنسانًا، ولو كبرت فسوف يذبحونني ويأكلونني. قالت الجدة: لقد بكى ذو الفراء الأصفر الصغير كثيرًا يوم زواجي.

«الرشة» الثانية هي قصة إحدى البقرات. قالت الجدة إن تلك البقرة كانت في نفس عمرها. وقالت أيضًا إن الأبقار تنقسم إلى أبقار كسولة وأبقار عنيدة، بمجرد أن تُربط البقرة الكسولة في الطاحونة لا تفعل سوى التغوط والتبول والدوران. أما الأبقار العنيدة فتحب العمل، وتلك البقرة كانت عنيدة أكثر من أي بقرة أخرى. فبمجرد ربطها بالمحراث، لا تتوقف عن حرث الحقل من الصباح حتى المساء، حتى يصاب الشخص الذي يوجه المحراث بالتعب دون أن تتعب هي. في أحد الأيام سحب عم الجدة الثالث هذه البقرة إلى الحقل لحرثه. العم الثالث كسول للغاية، وجّه المحراث وقال: هل يمكنكِ أن تبطئي قليلاً؟ بعد العمل لمدة نصف ساعة يترك العم العمل ويجلس على الأرض يدخن، تحثه البقرة وتقول: هل يمكنك أن تسرع قليلاً، وإلا فمتى ننتهي من حرث الأرض؟ فيجيبها: هل تريدينني أن أموت تعبًا؟ أهي أرضك أم أرضي؟ ثم يشتمها ويقول: لو ألححتِ عليّ مرة أخرى سأرسلك إلى المسلخ للذبح. سمعت البقرة هذا الكلام فتحررت من المحراث والحبل ثم نطحته فأسقطته أرضًا وركضت هاربة إلى أعلى الجبل. نادى العم على الناس للإمساك بها، لكن أني لهم العثور عليها، فالجبال مغطاة بالغابات الكثيفة. وعند ناصية الطريق الجبلي رأى الناس امرأة عجوزًا تجلس على جانب الطريق تحمل على ظهرها صرة من الأمتعة، سألوها إن كانت قد رأت بقرة هاربة. أجابتهم المرأة أنها لم ترَ تلك البقرة، كل ما لديها قطة تنام بجوار قدمها، هل تبدو مثل بقرتكم التي تبحثون عنها؟ فوقف الناس يتطلعون إلى القطة الصفراء التي تنام متوسدة قدم المرأة العجوز.

سألت الجدة مينغ:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل تعرف من هذه المرأة العجوز؟

- من هي؟

- إنها سيدة الجبل، تلك البقرة واحدة من قططها. لقد أكلت القطة من كعكة العجوز فغضبت وحوّلتها إلى بقرة. ثم أرسلتها لتحرث الأرض في العالم السفلي، قائلة إنها لن تسمح لها بالعودة إلا بعد الانتهاء من حراثة خمسمائة هكتار، لذلك لم تتوقف أبدًا عن العمل.

أما «الرشة» الثالثة فهي قصة والد الجدة. قالت الجدة إن والدتها توفيت في وقت مبكر، وصار والدها المسؤول الوحيد عن أمور البيت كافة. في اليوم الذي تزوجت فيه قال لها أبوها: لقد عرفت كيف أكون أبًا، لكني لم أعرف كيف أكون أماً، تحملت الكثير على مدار سبعة عشر عامًا. أكمل: أنت الآن ستتزوجين، وأنا لا أعرف ماذا أفعل من أجلك، لا أستطيع خياطة ملابس جديدة، أو حتى أغطية للفراش. لذلك قطعت شجرة دردار وصنعت لك خزانة، ستكون هي جهاز عرسك. قالت: لقد رعيت شؤون الأسرة على أفضل وجه طيلة هذه السنوات، وهذه الخزانة بالنسبة لي أغلى من أي شيء آخر، سأتذكرك دومًا كلما رأيتها. قالت أيضًا: بعد زواجي ستبقى وحيدًا في البيت، لذلك أشعر بالقلق عليك. طمأنها: لا تقلقي بشأني، أعرف كيف أعتني بنفسي. توفي والدها في العام الثاني من زواجها. في بداية الربيع ذهبت ذات ليلة وفتحت الخزانة لأخذ بكرة الخيط التي خزنتها الشتاء الماضي كي تضعها على نول الغزل. وعندما رأت الخزانة تذكرت أباها فلم تتمالك نفسها، قالت: كم أفتقدك يا أبي. سمعت صوتًا خارج النافذة يقول: لا تقلقي، لا يزال بإمكانك رؤيته. هرعت إلى الفناء وسألت: من أنت؟ شعرت أنه صوت ذي الفراء الأصفر الصغير، لكنه مات أيضًا منذ خمس أو ست سنوات. بحثت داخل الفناء وخارجه، لكنها لم تعثر عليه، بعدها نسيت ذلك الأمر تمامًا.

قالت الجدة: عندما كان أبوك تشن تشانغ جيه في التاسعة من عمره، أخذته إلى السوق الذي ازدحم بالناس. رأيت أمامي رجلاً يمسك بقطعة من اللحم يتناولها وهو يسير في طريقه، هذا الرجل ظهره يشبه ظهر أبي، اندفعت للحاق به، لكن الرجل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اختفى وسط الزحام. أكملت متنهدة: فقط رأيت ظهر أبي. ظلت الجدة تحكي ومينغ يستمع إليها إلى أن يستغرق في النوم.

عندما بلغ مينغ الثالثة سقطت أمطار غزيرة على يانجين لمدة يومين كاملين، امتلأت الأنهار والحفر بالمياه. ذهب رفقة الأطفال للإمساك بالضفادع في حفرة مياه عند المعبر الشمالي، سقط في الحفرة. صرخ رفقاؤه وركضوا في الشارع، سمعت الجدة الخبر وهرعت إلى الحفرة، طفا جسد مينغ على السطح، وهذا يعني الغرق. أخرجته الجدة بمعاونة آخرين، وضعته فوق حجر الرحى، حينها صدرت من حلقه صرخة ولفظ الماء من بطنه وعاد إلى الحياة ثانية. بكت الجدة. ثم قالت: لا تخبر والديك بما حدث اليوم.

هزّ رأسه مجيبًا. لكن والدته علمت بالحادثة، هو من أخبرها، فكلما سألته والدته عن شيء أجاب؛ ونسي تعليمات الجدة. بجانب حادثة الغرق، حكى لها الحكايات التي تحكيها له جدته. لهذا السبب تشاجرت مع زوجها قائلة:

- لن أتحدث عن واقعة غرق الطفل، ما رأيك في ذلك الهراء الذي تحكيه أمك للطفل طوال الوقت؟

- سأتحدث إليها لاحقًا حتى لا تحكي له ثانية.

- لا داعي لذلك، من الغد لن أسمح له بزيارتها.

في اليوم التالي أرسلته إلى روضة الأطفال التابعة لمصنع غزل القطن قائلة: لنتركه يتعلم بعض الأشياء المفيدة. كما طلبت من زوجها إخبار أمه بألا تزور الطفل إذا لم يكن هناك ضرورة. لكن الجدة كانت تذهب خُفية إلى روضة الأطفال لزيارة مينغ عندما تكون أمه في العمل. يحب مينغ تناول كعك العناب مع المشروبات الغازية، وعندما تأتي الجدة، تُحضر له بعضها، يتناول الكعك ويشرب المياه الغازية، وتوصيه الجدة: لا تدع والدتك تعرف هذه المرة.

أخبر مينغ والدته بالحقيقة في المرة السابقة، ودفع ثمن ذلك بإرساله إلى روضة الأطفال التي لم يحبها، كذلك لم يحب مدرسته، فهو فقط يريد العودة إلى جدته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والاستماع إلى حكاياتها؛ لكنه لن يستطع، لذلك تعلم الدرس، ولم يعد يخبر أمه أن الجدة تأتي لزيارته؛ لأنه لو أخبرها فلن تأتي جدته، وبالتالي لن يتمكن من تناول كعك العناب وشرب المياه الغازية. بعد ثلاثة أشهر لم يعد مينغ مضطرًا للقلق بشأن هذه الأشياء، لأن أمه انتحرت شنقًا، ولم تعد الجدة مضطرة إلى إخفاء أمر ذهابها لزيارة حفيدها عن أي شخص؛ لكن بعدها اصطحبه أبوه معه إلى ووهان. ثم مرت ثلاث سنوات في غمضة عين دون أن يرى جدته. وأول ما نطقت به الجدة عندما رأته مجددًا: يا إلهي، لقد كبرت كثيرًا. ثم سألته: عندما كنت طفلاً، قلت إنك ترى ظلامًا أمام عينيك، ألا تزال تراه حتى الآن؟

هزّ رأسه بالنفي، لم يشعر مينغ بالألفة السابقة عندما قابل جدته، ولكن عندما أخرجت كعك العناب من الكيس، قضم منه وبدأ يألفها مع الوقت. تذكّر شيئًا وقال:

- لم أتناول مشروبًا غازيًا منذ وقت طويل.

- سآخذك إلى الشارع لتشرب المشروبات الغازية غدًا.

بمجيء الجدة، لم تستوعب الشقة الصغيرة كل من في البيت، بعد تناول العشاء مع الجدة، اصطحبت شين ابنتها ويوي إلى منزل جدها لتبيت فيه. وبحلول المساء، نام مينغ مع جدته في غرفته، ونام تشن تشانغ جيه في الغرفة الأخرى. استلقى مينغ على السرير وقال:

- جدتي، أريد أن أستمع إليك ترشين الهواء، لقد مضى وقت طويل منذ سمعتك ترشين الهواء آخر مرة.

- لقد مر وقت طويل لم أرش الهواء، لذلك لا يحضرني الآن أي رشة جديدة.

- لا بأس في تكرار رشات الهواء السابقة إذن.

حكت له الجدة قصة ذي الفراء الأصفر وقصة البقرة وقصة والدها مرة أخرى. في الماضي في يانجين، لطالما نام أثناء سماع الحكايات؛ أما الآن فكلما استمع إليها صار أكثر انتباهًا. عندما رأته الجدة متيقظًا سألته: أليس لديك رشات هواء لتحكها لي، أنت لم ترني منذ ثلاث سنوات؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فكّر مينغ أن يحكي لها عن أمه التي جاءته منذ وقت غير بعيد، لكنه تذكّر صورتها المثبتة فوق شاهد خشبي بمسامير فولاذية، وجسدها المثخن بالجروح، ثم إلقاءها في نهر اليانجتسي، وانجرافها وسط الأمواج العاتية، لا يعرف إلى أين ذهبت. شعر بالخوف عندما تذكر، لم يجرؤ على إخبار جدته، قال: جدتي، ليس لديّ هواء أرشه لك.

بعد عقود أدرك مينغ ليانغ أن ذلك الهواء الذي لم يرشه للجدة في ذلك الوقت ظل حبيسًا داخله طيلة حياته.

اليوم التالي كان يوم أحد، اصطحب الأب الجدة والطفل في نزهة. صادفوا محل بقالة على جانب الطريق، اشترت الجدة مشروبًا غازيًا للطفل. وبحلول الظهيرة تناولوا جميعًا المعكرونة الجافة، ثم ذهبوا لزيارة برج الكركي الأصفر، بعد ذلك تناولوا أسماك ووتشانغ. في يوم الاثنين غادر تشن تشانغ جيه في وردية عمل، ولم يتبقَّ سوى الجدة ومينغ في المنزل. في الصباح الباكر أوصلته إلى المدرسة، عند الظهيرة عادت لاصطحابه إلى المنزل لتناول طعام الغداء، بعدها أوصلته إلى المدرسة ثانية؛ ثم عادت لاصطحابه بعد انتهاء اليوم الدراسي. وفي الليل رقدا على السرير يتسامران:

- جدتي، لماذا أتيتِ إلى ووهان؟

- لزيارتك، لقد رأيت حلمًا يخصك.

- ما هو؟

- رأيت أحدهم يقول لي: يجب أن تذهبي لزيارة حفيدك.

- من هو؟

- لم أتبين وجهه، لكن صوته أشبه بصوت جدك.

- ألم يمت جدي؟

- صحيح، منذ عامين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل أثمرت شجرة العناب هذا العام؟

- أرى نتاجها أكثر وفرة من السنوات السابقة، أعتقد أنه بالإمكان ملء أربعة أجولة من حصادها.

سكتا.. ثم سألت الجدة:

- ما رأيك في ووهان؟

- لا أحبها.

- لماذا، هل تعاملك زوجة أبيك معاملة سيئة؟

لو أخبرها أنها تعامله بسوء فلديه حق، فهي لا تحب التحدث معه؛ ما يخيفه حقًا هو ما حدث لأمه هنا. لكنه لم يجرؤ على إخبار جدته بهذا الأمر، فقط قال:

- أريد العودة معك إلى يانجين.

- هذا غير ممكن، لا يزال عليك الذهاب إلى المدرسة هنا.

- لماذا لا تبقين معنا؟

- لو بقيت فلن يوجد مكان لويوي ووالدتها هنا. علاوة على ذلك، لقد حل الخريف، ولا بد لي من العودة لجني العناب.

مكثت الجدة أسبوعين، وعندما حان موعد عودتها أوصلتها الأسرة إلى محطة القطار. وقبل أن تستقله، أمسك مينغ بيدها وقال:

- متى ستعودين لزيارتنا ثانية؟

- بعد جني العناب.

- لا تخدعيني.

- جدتك لا تخدعك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم استقلت القطار مغادرة.

بعد شهر، تلقى تشن تشانغ جيه برقية تفيد بوفاة أمه. لما كبر مينغ تذكّر أن جدته جاءت إلى ووهان قبل شهر من وفاتها لرؤيته للمرة الأخيرة، وأنها أخبرته أن جده طلب منها في الحلم هذه الزيارة. ربما علم الجد بمغادرة زوجته هذا العالم في وقت قريب، لذلك نبّهها لتسافر؛ الجد البخيل في حياته، الذي لم يعطِ مينغ من كعك العناب، اهتم بعد وفاته بأمر مينغ.

قال تشن تشانغ جيه بعدما تلقّى النبأ المؤسف:

- رأيتها بخير قبل شهر.

استمر يقول:

- لحسن الحظ أنها جاءت إلى هنا، وإلا ما قابلتها لمرة أخيرة.

عاد إلى يانجين لحضور الجنازة، أراد مينغ أيضًا الذهاب معه، لكن أباه رفض مبررًا:

- والمدرسة؟ ستفوتك دروس كثيرة، لن تقدر على مواكبة الدراسة بعد عودتك.

أضاف:

- لا جدوى من الذهاب معي، ليس بإمكانك مساعدتي في شيء.

غادر الأب، وفي اليوم نفسه ذهب مينغ إلى المدرسة. مكث في الفصل شارد الذهن ولم ينتبه إلى شرح مدرس الرياضيات. بعد انتهاء الحصة الأولى، انتهز فرصة وقت الراحة بين الحصص وحمل حقيبته المدرسية راحلاً. لم يعد إلى المنزل، ذهب مباشرة إلى محطة القطار. يملك أكثر من ثلاثين يوانًا في حقيبته المدرسية، عشرون منها أعطاها له يانشنغ عندما جاء إلى ووهان، وعشر يوانات ادخرها من مصروفه. أخرج المال من حقيبته واشترى تذكرة طفل للقطار المتجه إلى مدينة شينشيانغ القريبة من يانجين. بعد دخول المحطة وجد قطارين على الجانبين الأيسر والأيمن من الرصيف، أحدهما متجه من مدينة قوانغتشو إلى مدينة بكين، والآخر من بكين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى قوانغتشو.

تقع يانجين في شمال ووهان، لذلك يجب أن يستقل القطار المتجه من قوانغتشو إلى بكين، لكنه استقل القطار المعاكس المزدحم للغاية، لم يجد مكانًا للجلوس سوى بين تقاطع العربات. سار القطار يتأرجح، وسرعان ما نام، ولم يستيقظ إلا في صباح اليوم التالي مع الوصول إلى تشوتشو. في هذا الوقت، جاء محصل التذاكر لفحص تذكرته، أخبره أنه استقل القطار المعاكس. عندما نزل من القطار، لم يملك سوى ثلاث يوانات لا تكفي لشراء تذكرة قطار أخرى، سار على قدميه متجهًا نحو الشمال بمفرده. يتسول بعض الطعام من الناس في طريقه. في النهاية وصل إلى يانجين بعد مرور شهرين. ذهب إلى منزل الجدة في الشارع الشمالي، رأى أوراق شجر متساقطة في جميع أنحاء فناء المنزل الخالي، اختفت شجرة العناب التي يبلغ عمرها مائتي عام. جار جدته يُدعى باي العجوز، تصادف مروره أمام الفناء أثناء ذهابه لجمع الحطب، فرأى طفلاً لا يعرفه داخل الفناء يجلس بجوار الباب ويبكي. تقدم وسأله:

- من أنت؟

ظل الطفل يبكي، ولم يتكلم. رأى باي العجوز أنه يرتدي حذاء في إحدى قدميه والأخرى حافية؛ وعلى الرغم من حلول الشتاء، يرتدي ملابس خفيفة، قال باي:

- أنت مينغ، أليس كذلك؟ لقد مر شهران منذ اختفائك، اعتقد الجميع أنك ضعت.

ظل الطفل يبكي ولم يتكلم. بسبب نحيبه تجمع الناس حوله تدريجيًا. سمع يانشنغ بالأمر أثناء عمله بالمتجر، فسارع بالركض نحو الفناء، سأل الطفل: هل تعرفني؟ أنا عمك يانشنغ، التقينا في ووهان منذ عدة شهور.

ظل يبكي. استمر يانشنغ يقول:

- سآخذك لزيارة جدتك.

نهض الطفل. ركض باي متجهًا إلى منزله ليُحضر له بعض الملابس الشتوية وزوجًا من الأحذية القطنية؛ صحبه يانشنغ إلى مقبرة العائلة خارج المدينة، ثم أشار إلى القبر الذي دُفنت فيه جدته؛ تقدم أمام القبر، بكى، صرخ:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ألم تقولي إنك ستجمعين العناب ثم تعودين لزيارتي في ووهان؟ لماذا خلفتِ وعدك؟ من سيرش لي الهواء بعد رحيلك؟ كما أن لديّ بعض الهواء الذي أرغب في رشه لك.

لم يهدأ إلا بعد أن ظل يبكي لثلاث ساعات كاملة.

أمسك يانشنغ بيده، سار به عائدًا إلى البيت، سأله مينغ:

- أين ذهبت شجرة العناب؟

- بعد موت جدتك بأسبوعين ماتت الشجرة أيضًا، حتى إنه لم يُجن العناب هذا العام، ألا تعتقد أن الأمر غريب؟

اصطحبه يانشنغ معه إلى المنزل، ثم هاتف أباه في ووهان لإبلاغه، في صباح اليوم الثالث وصل تشن تشانغ جيه إلى يانجين، عندما رأى طفله قال:

- لقد كدت أموت قلقًا بسببك، ظننت أنني لن أعثر عليك ثانية. زوجتي أيضًا تكاد تموت قلقًا بسببك، سألتها وقالت إنها لم تضربك.

أضاف:

- هيا لنعود معًا، لقد ماتت جدتك.

هزّ مينغ رأسه معترضًا.

- عليك العودة لتذهب إلى مدرستك.

- لن أعود إلى ووهان حتى لو قتلتموني ضربًا.

- لماذا؟ بسبب زوجة أبيك؟

لو أخبره أنها تعامله بسوء فلديه حق، فهي لا تحب التحدث معه؛ ما يخيفه حقًا هو ما حدث لأمه هناك. لكنه لم يجرؤ على إخبار أبيه بالأمر، حتى لو قال فلن يصدقه، لكن وفاة الجدة أعطته عذرًا لمغادرة ووهان والعودة. فقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ليس بسبب زوجة أبي، فهي تعاملني جيدًا. لكني لا أشعر بالألفة في ووهان، أشعر بالألفة هنا، إذا أجبرتموني على العودة، فسألقي بنفسي في نهر اليانجتسي.

6

في المرة التالية التي التقى فيها يانشنغ مع تشن تشانغ جيه، لم يأتِ الثاني على ذكر ينغ تاو، ولم يجرؤ الأول على السؤال عما حدث بعد ذهابها إلى ووهان، فهو من أحضرها قبل شهور؛ خلال هذه الفترة مرت على تشن تشانغ جيه أحداث كثيرة، توفيت أمه، وهرب ابنه؛ شعر يانشنغ أنه من غير المناسب أن يسأل عن موضوع ينغ تاو. في مساء ذلك اليوم دعاه لتناول الكوارع في مطعم المارشال، ودار بينهما حوار:

- بمجرد وصولي إلى هنا، تذكرت عملنا معًا في الفرقة المسرحية ومصنع الآلات.

- أمر بديهي.

أكمل:

- نحن الذين نتغير، لا الأماكن.

- لديّ فكرة بخصوص مينغ، لا أعرف مدى مناسبتها لك.

- تفضل.

- يبدو أنه لن يقتنع بالرجوع إلى ووهان، ظاهريًا لا توجد بينه وبين زوجتي أي مشكلات، لكن كليهما لا يطيق الآخر. لو أرغمناه على العودة لن نتمكن من العثور عليه لو هرب ثانية. هذه المرة عاد إلى يانجين، لذلك وجدناه، لكن لو ذهب إلى مكان آخر، كيف كنا سنعثر عليه؟

- ابنك عنيد، رأيت ذلك عندما قابلته لأول مرة.

- هل يمكن له الإقامة في بيتك؟ لقد لاحظت ارتياحه عندك خلال الأيام الماضية.

أضاف:

- لم يعد لديّ أقارب هنا في يانجين بعد وفاة أمي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أعرف أنك تريد ذلك لثقتك بي، ولو تعلّق الأمر بي وحدي لوافقت دون تردد؛ لكني متزوج، ويجب أن تشاركني زوجتي القرار، لو سيبقى الطفل لديّ شهرين أو ثلاثة لم أكن لأستشيرها، لكنك تريده أن يمكث طويلاً، وبهذا سيصبح فردًا من الأسرة، لذلك يجب أن أناقش الأمر معها.

- حسنًا، أوضح لها الأمر، أخبرها أنني لن أتركه لديكما لتنفقا عليه من مالكما الخاص، سأعطيكما ثلاثين يوانًا في الشهر مقابل رعايته. بهذه الطريقة سيكون من السهل عليك إقناع زوجتك.

- وإذا أعطيتنا هذا المال، فكيف ستدبر نفقات بيتك في ووهان؟ وماذا لو اكتشفت زوجتك هذا الأمر؟

- راتبي معقول، كما أنهم يصرفون لنا بدلات إضافية بعد كل وردية عمل. وبإمكاني العمل لكسب بعض الأجر الإضافي، هذه أموال لا تدخل ضمن الراتب، ولن تعرف زوجتي بحصولي عليها.

عاد يانشنغ إلى بيته، وبينما يستبدل ملابسه ويستعد للنوم، تحدّث إلى زوجته بخصوص ما قاله صديقه. وعندما سمعت أنه سيمنحهم ثلاثين يوانًا شهريًا مقابل رعاية الطفل وافقت على الفور. والسبب هو أن زوجها الذي يبيع صلصة الصويا والخل والمخللات والفلفل والتوفو في متجر المواد الغذائية راتبه لا يتجاوز ستين يوانًا شهريًا؛ أما هي فعملها في تغليف الحلوى في المصنع يمنحها راتبًا لا يتجاوز الخمسين يوانًا؛ رعاية هذا الطفل ستوفر لهما دخلاً إضافيًا يعادل نصف راتب الواحد منهما.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، دعا يانشنغ صديقه لشرب حساء الفلفل الحار، وأخبره بنتيجة مناقشته مع زوجته. قبل الظهيرة اصطحب تشن تشانغ جيه ابنه إلى الشارع لشرب المياه الغازية، تناقش معه في أمر بقائه في بيت يانشنغ إذا لم يرغب في العودة إلى ووهان. قال مينغ:

- ما دمت لن أعود إلى ووهان، يمكنني العيش مع أي شخص.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في يوم الاثنين التالي التحق مينغ ليانغ بمدرسة الشارع الغربي الابتدائية في يانجين كطالب محول في الصف الأول. صار زميلاً لكل من دونغ قوانغ شنغ ابن العراف دونغ العجوز، وقو تسيكاي ابن قوه باوتشن الكناس، ومنذ أن التحق بالصف الأول وصولاً إلى الصف الرابع استمر يجلس جوار دونغ على الطاولة نفسها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد عشرين عامًا

1

في يوم زفاف مينغ حضر تقريبًا كل زملائه المقربين في المدرسة الإعدادية. وخلال حفل الزفاف تولى دونغ قوانغ شنغ ابن دونغ العراف العجوز تقديم الحفل. أما قو تسيكاي ابن الكناس قو باوتشن الطالب بمرحلة الدراسات العليا في بكين فقد طلب إجازة خصوصًا للعودة إلى يانجين لحضور حفل الزفاف، وهناك زميل مقرب آخر اسمه فنغ مينغ تشاو يعمل مندوب تسويق في المتجر الكبير بمدينة تشنغتشو طلب أيضًا الحصول على إجازة، ولعب الاثنان دور رفقاء العريس خلال الحفل.

في ذلك العام كان مينغ في السادسة والعشرين من عمره، يعمل طاهيًا في مطعم المارشال. قبل عشر سنوات ترك الدراسة من الصف الأول الثانوي. لم يترك مينغ المدرسة لرغبته في ذلك، لكن لأنه تلقى رسالة من أبيه في ووهان يقول فيها إنه تركه قبل عشر سنوات في يانجين ليعيش في بيت يانشنغ، واتفق مع صديقه أن يعطيه ثلاثين يوانًا شهريًا، ولاحقًا زاد المبلغ مع ارتفاع الأسعار. وعندما بلغ مينغ السادسة عشرة، أصبح المبلغ 1500 يوان شهريًا. هذا المبلغ يتحصل عليه من خلال العمل الإضافي دون علم زوجته. لم يكن بقية العمال في قسم المركبات يرغبون في العمل لساعات إضافية، أما هو فتوسل دومًا إلى رؤسائه ليسمحوا له بالعمل ساعات إضافية، وقد أخفى الأمر عن زوجته، لكنها اكتشفت السر الشهر الماضي.

Telegram:@mbooks90

ذهب أبوه تشن تشانغ جيه إلى مكتب البريد لتحويل المال كالمعتاد. وبعد التحويل، كان في عجلة من أمره للذهاب إلى وردية العمل، فوضع إيصال التحويل في جيبه، فعثرت عليه زوجته وهي تغسل ملابسه، سألته عن الإيصال، فقال لها إن صديقه طلبه منه على سبيل السلف. ذهبت تشين إلى القسم المالي لمستودع القاطرات تستعلم عن الأمر، اكتشفت أن زوجها كان يتلقى أجرًا عن العمل الإضافي كل شهر دون علمها. عادت إلى المنزل وسألته عن هذا الأمر، علم أنه لم يعد بإمكانه إخفاء الأمر، وليس أمامه سوى قول الحقيقة. بكت تشين، أخبرته أنها لم تكن لتمانع أن يدفع نفقات المعيشة لابنه، فلماذا أخفى هذا الأمر عنها؟ كيف له أن يقرر مسبقًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنها ستعارض هذا الأمر البديهي؟ لقد عاشا معًا لعشر سنوات، ولكن اتضح الآن أنه لم يكن يثق بها؛ الأمر هنا لا يتعلق بالمال، بل لأن هذا الأمر سيزيد من كُره ابنه لها في كل مرة يحول فيها الأموال له. قال إنه لم يفكر في تصرفه بهذا الشكل، ولم يخبرها من باب الاحتياط فقط، لذلك قال لها إنه سيترك مينغ ليقيم في بيت يانشنغ في يانجين كفرد من عائلته، ولم يأتِ على ذكر موضوع المال.

الشيء المحرج هو أنه ظل يرسل الأموال كل شهر إلى صديقه على مدار عشر سنوات دون أن يعلم ابنه مينغ بذلك. قال تشن تشانغ جيه في خطابه إنه بعد أن بكت زوجته ذهبت إلى الإدارة المالية لمستودع القاطرات وطلبت تحويل راتب زوجها والمكافآت وأجر العمل الإضافي إلى بطاقتها المصرفية، ثم قالت إنه لن يملك مالاً ليرسله إلى مينغ مستقبلاً، حينها لن يكرهها ثانية، بل سيكره أباه، وإذا احتاج إلى نفقات معيشة فليأتِ إلى هنا ويعرف أنك أنت الذي جعلته يكرهني طوال عشر سنوات، بعدها يمكننا التحدث بخصوص نفقات المعيشة.

قال تشن تشانغ جيه في خطابه أيضًا إنه من الواضح أن ما دفع زوجته لذلك هو الغضب؛ وإن هدفها استغلال الخطأ لمعاقبته وجعله يقطع علاقته بابنه. وما دامت الأمور قد وصلت إلى هذه النقطة، فهو لا يعرف هل يستمر أم يتراجع، هو الذي تسبب في المشكلة، ولن يتحصل على أي أموال أخرى في المستقبل، ولن يكون بإمكانه توفير نفقات المعيشة لابنه. لذا فهو لا يملك ما يقدمه له في المستقبل. ما يأمله الآن هو استمرار يانشنغ وزوجته في رعايته كابن لهما دون مقابل. كتب تشن تشانغ جيه في خطابه أيضًا أنه بصفته أبًا لا يستطيع حتى إعالة ابنه، فمجرد التفكير في ذلك يجعله يشعر وكأن سكينًا يخترق قلبه؛ واللوم في كل هذا يقع على عاتقه. في نهاية الخطاب كتب يقول: لقد تجاوزت الخمسين من عمري، وبدأت الأمراض تداهمني في السنوات الأخيرة، وما دامت زوجتي ترفض إعطاءك نفقات معيشتك، فلن أمارس أي عمل إضافي في المستقبل.

قرأ مينغ الرسالة، ولم يرد عليها، فهو لا يعرف كيف يرد. لم يكن يعلم أن أباه أمدّه بنفقات المعيشة، ولكن بما أنه لا يستطيع إمداده بها الآن، فليس بوسعه إجباره على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاستمرار. ربما أبوه هو الملوم من الأساس، فإنفاق الآباء على أبنائهم شيء بديهي، ولم يتوجب عليه إخفاء ذلك عن زوجته، بل والكذب عليها. بالطبع عندما يكذب المرء من أجل الحقيقة، فلن يجرؤ على المكابرة، خوفًا من اعتراض الآخرين؛ وعندما يكون المرء في حالة خوف، لا يكون خائفًا من شيء واحد، بل يخاف من كل شيء، لذلك أبقى على السرية. يمكن لمينغ الذهاب إلى ووهان ليعترف بخطئه لزوجة أبيه من أجل نفقات المعيشة، لكنه يعلم أنه حتى لو اعترف لها هو وأبوه بخطئهما، فستبحث عن أسباب أخرى لتصعّب الأمور عليهما بسبب ذلك الغضب الذي تراكم داخلها خلال السنوات العشر الماضية، وربما هذا هو المقصود بالمثل القائل: لهيب الانتقام لا يُخمده الوقت؛ بالإضافة لذلك، لم يعلم مينغ من قبل بخصوص الأموال التي كان يرسلها لها أبوه، فكيف يعترف بخطأ كهذا؟ لا يمكنه الذهاب إلى ووهان، ولا جدوى من الذهاب. ليس بوسعه الآن سوى التظاهر بأنه لا يعرف شيئًا؛ لن يستطيع تغيير حقيقة أن أباه لن يمنحه نفقات المعيشة بعد الآن؛ وبالحديث عن علاقته بوالده، فلم تكن هناك أي علاقة تربطهما على الإطلاق باستثناء نفقات المعيشة التي كان أبوه يرسلها له سرًا.

بعدما قرأ مينغ الرسالة ذهب وحده إلى النهر الواقع في الضواحي الشمالية لمحافظة يانجين، وأحرقها دون أن يخبر بأمرها أحدًا. ومع ذلك لم يكن انقطاع التواصل بينهما يشكل فارقًا بالنسبة إلى مينغ، لكن الأمر اختلف بالنسبة لعائلة يانشنغ، لأنه بداية من الشهر التالي، لم يعد تشن تشانغ جيه يرسل الأموال، وبالتالي كان على يانشنغ وزوجته تحمُّل نفقات مينغ فيما يخص الطعام والشراب ومصاريف المدرسة. في الشهر الأول، لم يُبدِ يانشنغ وزوجته أي انزعاج. وفي الشهر الثاني كذلك، لكن في الشهر الثالث بدأت زوجته تثور وتغضب وتوجه الاتهامات إلى مينغ لأتفه الأسباب. في الشهر الرابع ترك مينغ المدرسة طواعية وغادر منزل يانشنغ، وأصبح عاملاً في مطعم المارشال. الأستاذ جياو الذي يدرس الجغرافيا في المدرسة الإعدادية هو من عثر له على هذا العمل. مالك مطعم المارشال يُدعى تشو العجوز مولع بغناء الأوبرا، يحب الغناء في أوقات فراغه، والأستاذ جياو معلم الجغرافيا في فصل مينغ يحب الأوبرا أيضًا. في أوقات فراغهما يغنيان معًا مقاطع من «الصياد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والقاتل»، و«لقاء فوق البرج»، وغيرهما. عندما سمع جياو بالظروف التي يعاني منها مينغ، تحدّث إلى تشو بشأنه حين التقيا لغناء الأوبرا، موظفًا مقطعًا من إحدى الأغنيات قائلاً:

- «أيها الرجل النبيل، هلا نظرت إلى هذا الطفل. ليس لديه قريب يعيله، ولا مكان يؤويه، افعل الخير واشمله بعطفك، ولا تحتقرن صغائر الخير».

ضحك تشو وقال:

- أيها المعلم جياو، طهو الكوارع ليس بالأمر السهل، لكني سأسألك سؤالاً، هل هذا الطفل كسول؟

- ليس كسولاً، ليس كسولاً، لو كان كسولاً ما كنت لأطلب منك هذا الطلب.

- الكسول لن يستطيع المكوث عندي على أية حال.

في اليوم التالي، أصبح مينغ متدربًا في مطعم المارشال. المتدربون لا يتلقون رواتب، فقط يوفر لهم المطعم الطعام والسكن. أول عمل أداه كمتدرب إزالة شعر الكوارع، أي نزع الشعر من أقدام الماشية التي تأتيهم من مسلخ يانجين، بحيث تكون نظيفة لامعة. في السابق استخدم مكشطة أزالت الشعر من السطح فبدا نظيفًا، لكن بعض الشعر يبقى وسط اللحم، وذلك أمر لا يقبله الزبائن. لكن الآن صارت هناك وسيلة جديدة وهي استخدام القطران الساخن، حيث يسكبه على الكوارع، وعند إزالته يزيل الشعر سواء على الجلد أم داخل اللحم، وفي حال بقاء بعض الشعر، يُنزع بالملقط، ثم تُشطف الكوارع بالماء النظيف، وتُنقع في محلول ملحي يحتوي على الفلفل والملح. وخلال اليوم الواحد كان بوسع مينغ تنظيف ما يقرب من ثلاثمائة قطعة كوارع.

يفتح مطعم «المارشال» أبوابه في الحادية عشرة صباحًا، وبحلول الثالثة عصرًا يغادر الزبائن الذين جاؤوا لتناول الغداء، ثم يعود المطعم للعمل بحلول السادسة مساء، ويُغلق أبوابه بحلول الحادية عشرة مساء. والفترة من الثالثة عصرًا وحتى السادسة مساء فترة توقف، يمكن للعمال العاديين في المطعم أخذ استراحة من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العمل خلالها، أما المتدربون فلا يمكنهم الاستراحة، حيث يكون عليهم تنظيف الكوارع في الفناء الخلفي. أحيانًا ينتهون من تنظيف الكوارع مبكرًا حوالي الساعة الخامسة، حينها يمكن لمينغ الحصول على راحة لمدة ساعة. يعود أولئك الذين لهم بيوت إلى بيوتهم خلال فترة الراحة، أما مينغ فلا يملك مكانًا يذهب إليه، ولا يريد العودة إلى منزل يانشنغ، لذلك يظل في المطعم خلال الراحة.

يمكنه أيضًا التجول في الشوارع، أو الذهاب إلى معبر يانجين، فالشارع والمعبر مكانان حيويان؛ لكنه ليس سوى متدرب لا راتب له، وحتى لو ذهب إلى السوق فلن يمكنه شراء زجاجة من المشروبات الغازية، لذلك فارتياد هذه الأماكن عديم الفائدة، وبالتالي لم يذهب؛ كما أنه خشي مقابلة زملائه السابقين في الشارع مصادفة حتى لا يحرجه أحدهم بسؤاله عن سبب انقطاعه عن الدراسة، وهو أمر يصعب عليه شرحه، ومن الأفضل عدم الحديث عنه، لذلك فالجلوس وحيدًا في الجزء الخلفي من المطعم خلال أوقات فراغه هو الحل الأمثل. هناك نهر خلف المطعم، في ليالي الصيف يوصل صاحب المطعم بعض المصابيح ويضع بعض الطاولات بجانب النهر، حيث تمتلئ ضفة النهر بالزبائن، يتناولون الكوارع ويشربون البيرة، ويستمتعون بنسمات الليل المنعشة؛ لكن البعوض ينتشر خلال ليالي الصيف، لذلك يجب وضع بخور طرد البعوض أسفل الطاولات. وبعد الجسر الممتد فوق النهر، هناك حقل كبير، ينمو فيه القمح في الربيع، والذرة في الخريف.

يحب تشو صاحب المطعم غناء الأوبرا، يأتي كل صباح إلى النهر ويغني أمام الحقول. بحلول الخامسة عصرًا، تبقى ضفة النهر وحيدة والحقول خالية من الناس، حينها يسير مينغ عبر الجسر الصغير ويصل إلى نهاية الحقول، يُخرج الناي من جيبه ويعزف ببراعة. تعلّم ذلك من زميله في المدرسة الإعدادية فنغ مينغ تشاو. عمل عم صديقه عازف ناي في إحدى الفرق الموسيقية بالمدينة، تلك الفرقة كانت تعزف خصوصًا في حفلات الزواج والجنازات، نشأ فنغ منذ صغره في بيت جدته، فتعلّم من عمه العزف على الناي. قال فنغ مينغ تشاو إن عمه أخبره أن مفتاح العزف هو القدرة على تغيير الأنفاس، فقط عن طريق تغيير الأنفاس يمكن النفخ بصوت عالٍ وطويل؛ وفقط من خلال النفخ العالي الطويل يمكن عزف ألحان متنوعة ومتناسقة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من يتعمد إظهار القدرة على ذلك هاوٍ وليس محترفًا، فالمحترفون يفعلون ذلك خفية. وإضافة إلى النفس الطويل، يجب أن يبرع العازف أيضًا في القطع والوصل. تعلّم مينغ من صديقه عزف أغنيات: «الراعي العازف» و«البقرة الصغيرة»، و«طائر الحجل»، و«الأجنحة الصفراء»، و«خمسة عيدان» وغيرها. وفي وقت لاحق، أغرم فنغ مينغ تشاو بصيد الطيور وهجر الناي، لكن مينغ استمر في العزف. في البداية عزف الألحان المعروفة فقط، وبعد أن أصبح متمرسًا عزف على هواه، لكن ليس بشكل عشوائي، بل بترتيب وإيقاع لكنه مسبقًا وفقًا للأحوال والظروف التي يمر بها. على سبيل المثال، كثيرًا ما يتذكر وهو في السادسة من عمره في ووهان، عندما أنقذ صورة أمه من على الشاهد الخشبي وألقاها في نهر اليانجتسي، وخرجت أمه من الصورة وغنت فوق الماء. على سبيل المثال أيضًا، عندما استقل القطار الخطأ واستغرق الأمر منه شهرين للعودة إلى يانجين، حينها وجد فناء بيت جدته خاليًا إلا من الأوراق المتساقطة على الأرض، وموت شجرة العناب التي عمرها أكثر من مائتي عام بعد موت جدته، كل تلك الأحداث والمشاعر عزفها كألحان على آلة الناي.

يظل يعزف حتى تفيض ألحانه بمعانٍ مؤثرة، تتفجر منها مشاعره وأحاسيسه التي لا يمكن وصفها بالكلمات، تلك العاطفة الخفية داخل هذه الألحان يمكن الإحساس بها، ولا يمكن البوح بها. فكّر مينغ أنه لو تمكن من البوح والتعبير بالكلمات، فما فائدة العزف على الناي؟ علّمه زميله فنغ، لكنه وحده اكتشف المعاني الخفية داخل ألحان الناي. في ذلك اليوم، عزف مينغ على الناي أمام الحقول، شاهد تشو العجوز صاحب المطعم يقف على الجانب الآخر من النهر يتطلع نحوه، توقف عن العزف. لوّح له تشو قائلاً:

Telegram:@mbooks90

- عزف رائع أيها الفتى، استمر في عزفك.

واصل مينغ العزف. وبشكل غير متوقع، لوّح له تشو بالتوقف مرة أخرى، سأله:

- يا فتى، يمكنني الغناء، أريد أن أغني، هل يمكنك العزف رفقتي؟

- يمكنني فقط عزف بعض الألحان، ولا أستطيع العزف بمصاحبة الغناء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- انسَ الأمر إذن، واستمر في عزفك.

فعل مينغ ذلك.

في أحد الأيام، وهو يزيل شعر الكوارع في الفناء الخلفي للمطعم، جاء شخص ووقف أمامه، رفع رأسه، كان يانشنغ. وضع صرة كبيرة على الطاولة المجاورة، وقال:

- نحن على مشارف الشتاء، حان الوقت لارتداء الملابس الثقيلة. أحضرت لك سترتك القطنية، وسروالاً صوفيًا وأحذية مبطنة.

- أشكرك يا عمي.

- لقد طلب أبوك مني أن أعتني بك، لكني لم أعتنِ بك كما يجب.

- لقد اعتنيتَ بي طوال عشر سنوات.

- لا تتردد في طلب مساعدتي إذا احتجت.

- فهمت، شكرًا يا عمي.

- فقط تذكّر أمرًا واحدًا، لا تأتِ إليّ في المنزل، يمكنك أن تأتي إليّ في متجر المواد الغذائية.

- فهمت، شكرًا يا عمي.

- أريد أن أخبرك أيضًا أن علاقتي جيدة بصاحب المطعم تشو العجوز، وقد طلبت منه الاعتناء بك وقت الحاجة، ووعدني بذلك.

- فهمت، شكرًا يا عمي.

تساقطت ثلوج كثيفة وهما يتحدثان. وصار الجو باردًا فجأة.

وفي أحد الأيام، وبينما مينغ ينظف الكوارع، جاء تشو العجوز مرتديًا معطفًا من فراء الثعلب. وسأله:

- لماذا لم أسمعك تعزف على الناي مؤخرًا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- سيدي، الجو بارد ولا يمكنني العزف في أجواء كهذه.

- يا لك من أحمق، من قال إنه لا بد من الذهاب إلى حافة النهر للعزف، يمكنك العزف داخل المنزل.

لم يجب مينغ، فتابع تشو:

- يا فتى، أنا أحدثك.

أخرج مينغ يده من حوض الغسيل وهو يقول: يداي غارقتان في الماء طوال الوقت، وانتفختا بسبب البرد، لو أمكنني الإمساك بالناي فلن يمكنني تحريك أصابعي فوق الفتحات.

خبط تشو العجوز جبهته قائلاً:

- اعذرني، لم أنتبه لهذا الأمر.

في اليوم التالي، نُقل مينغ للعمل في المطبخ، بدأ في تعلُّم طهي الكوارع من طاهٍ يُدعى هوانغ العجوز. وهكذا أصبح يعمل في مكان دافئ ويتعلم مهارات الطهي أيضًا؛ كما أنه ليس عملاً صعبًا مرهقًا مثل غسل الكوارع؛ أضف إلى كل هذا أنه سيتقاضى راتبًا شهريًا قدره مائتي يوان. عملية الانتقال من العمل في غسل الكوارع إلى طهوها أشبه بتسلق السماء في خطوة واحدة. لم يعرف مينغ هل هذا بسبب عزفه على الناي، أم بسبب طلب يانشنغ من تشو الاعتناء به؛ أو كلاهما معًا. لم يعرف السبب، ولم يكن بوسعه أن يسأل تشو، لذلك قرر ألا يشغل باله. مر شهر في غمضة عين، وقبض مينغ الراتب؛ استغل وقت الراحة، ركض إلى الشارع وشرب ثلاث زجاجات من المياه الغازية دفعة واحدة في يوم اكتسى ببرودة شديدة.

مرت ثلاث سنوات منذ بدأ مينغ يتعلم طهو الكوارع على يد هوانغ، وكما كان الحال بالنسبة لتعلمه العزف على الناي من فنغ، صار مينغ بارعًا في طهور الكوارع بمرور الوقت، المهارة وليدة الممارسة. في العامين الأولين، كانت الكوارع التي طهاها إما نيئة أو ناضجة أكثر من اللازم؛ حينها كان على هوانغ إعادة طهوها مرة أخرى. بالطبع أعاد طهو الكوارع النيئة، أما تلك الناضجة أكثر من اللازم فليس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بوسعه إعادة طهوها، فبيعت لكبار السن الذين فقدوا أسنانهم. العمل الشاق يؤتي ثماره في النهاية، بعد ثلاث سنوات صار مينغ بارعًا في طهو الكوارع كما ينبغي، ومع ذلك فإن طعمها وملمسها لم يضاهيا تلك التي يطهوها هوانغ الذي قال له إن هذا أمر طبيعي، فهو يعمل في طهو الكوارع منذ ثلاثين عامًا، أما مينغ فلم يتعلم الطهو سوى منذ ثلاث سنوات، ولو اكتسبت الكوارع التي يطهوها المذاق نفسه، فما فائدة وجود هوانغ إذن؟ شعر مينغ بمنطقية كلام هوانغ.

في يونيو من ذلك العام، خاض زملاؤه السابقون امتحان القبول بالجامعة، وبحلول أغسطس ظهرت نتائج امتحان القبول. التحق قو تسيكاي بإحدى جامعات بكين، والتحق فنغ مينغ تشاو بمعهد فني في مدينة بعيدة، وفشل دونغ قوانغ شنغ في الالتحاق بأي من الجامعات أو المعاهد، لذلك بدأ يتعلم العرافة وقراءة الطالع رفقة والده. فكر مينغ: ماذا لو استمر في دراسته؟ هل كان ليتمكن من الالتحاق بأي جامعة أو معهد، ولو نجح فإلى أي مكان سيذهب؟ بعد ولادته أطلقت عليه والدته اسم «هانلين» على أمل أن يحقق المركز الأول في الامتحان مثل الشاب هانلين في مسرحية «أسطورة الأفعى البيضاء»، لكنه الآن يطبخ الكوارع. ترك المدرسة الثانوية في السنة الأولى، وعلى ما يبدو قد لا تتاح له الفرصة أبدًا لدخول امتحان القبول بالجامعة، ويظل يعمل في طهي الكوارع طيلة حياته. تنهّد حزنًا، فطن إلى أن هذا التفكير لن يُجدي نفعًا، خلال وقت الراحة ذهب إلى الشارع لشراء المياه الغازية؛ جلس يشربها وهو يشاهد المارة يتجولون في الشارع ذهابًا وإيابًا؛ شعر أن يانجين التي ألفها في الماضي صارت غريبة فجأة. في اليوم التالي لم يذهب إلى الشارع، بل ذهب إلى شاطئ النهر خلف المطعم للعزف على الناي. عزف بشكل عشوائي، لكن عزف بحزن، وهو مندمج في العزف انهمرت بضع قطرات من دموعه.

بعد شهرين جاءت إلى المطعم عاملة جديدة اسمها شياومنغ، بيضاء، طويلة، شاركت من قبل في امتحان القبول الجامعي قبل بضعة أشهر لكنها فشلت في اجتياز الامتحان، ومن ثم جاءت للعمل في مطعم المارشال. لم يتذكر مينغ أنه رآها من قبل عندما كان طالبًا في مدرسة يانجين الإعدادية قبل ثلاث سنوات، لكنه تذكّر أيضًا أن الصف الواحد كان به ما يزيد على عشرة فصول، ومن المستحيل أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعرف جميع الطلاب بعضهم البعض، ربما رآها ونسيها. بعد ذلك سمع أن سبب عدم نجاحها في اجتياز امتحان القبول الجامعي هو أنها واعدت زميلاً لها أثناء الدراسة الثانوية ولم تهتم بمذاكرتها. هذا الزميل نجح في الالتحاق بالجامعة قبل شهرين، وذهب إلى مدينة قوانغتشو ثم قطع الاتصال بها، وهو ما جعلها تشعر بالاكتئاب لدرجة أنها أقدمت على الانتحار، ولحسن الحظ اكتشفت أمها الأمر وأنقذتها. أول ما يفكر فيه مينغ عندما يسمع أحدهم يتحدث عن الانتحار هو أمه. هي وأمه أقدمتا على الانتحار، لكن لأسباب مختلفة. واحدة ماتت، والأخرى أُنقذت. لم يتمكن مينغ من إنقاذ أمه، تنهّد حزنًا، ثم تذكّر أن الندم بشأن ما جرى لأمه لن يُجدي نفعًا، وأن الندم بشأن ما جرى مع شياومنغ يشبه الندم على أمر لا يد له به؛ لذلك توقف عن التفكير في الأمر. علم لاحقًا أن أسرة شياومنغ تسكن بالقرب من معبر يانجين، ولدى الأسرة متجر بقالة هناك، شعر مينغ أنه رأى هذا المتجر وهو يتجول من قبل. المثير للاستغراب بالنسبة له هو أن هذه الفتاة لا تعود إلى بيتها خلال وقت الراحة عند الظهيرة، بل تبقى جالسة في المطعم تستمع إلى الراديو. أثناء استراحة العمل في أحد الأيام، عزف مينغ على الناي بجوار الحقل، شاهد شياومنغ تتطلع نحوه من الجانب الآخر من النهر. توقف عن العزف، فسألته:

- ما هذا اللحن الذي تعزفه؟ إنه جميل للغاية.

- أنا أعزف بشكل عشوائي.

- وهل يمكن عزف الألحان بشكل عشوائي؟

أراد مينغ أن يقول إنه يعزف عشوائيًا بالفعل، يعزف عن والدته التي انجرفت في نهر اليانجتسي، وعن شجرة العناب التي لم تعد موجودة في فناء منزل جدته، وعن يانجين التي صارت غريبة عنه.. أليس كل هذا عزفًا عشوائيًا؟ لكن شرح كل هذه الأشياء أمر مرهق، كما أنه لن يتمكن من شرحها بوضوح، لذلك قرر ألا يشرح لها؛ قال:

- أنا أقول الحقيقة، وإذا كنت لا تصدقين ذلك، فلننس الأمر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- مينغ ليانغ، لقد اكتشفت أنك شخص انعزالي للغاية.

- ومن أين لكِ بهذا الاكتشاف؟

- أنا هنا منذ شهر، وأنت لم تتحدث معي. عادة تفضل العزف على الناي بدلاً من الحديث، لمَ كل هذا؟

فكّر مينغ في الأمر، هي فعلاً على حق، فهو عادة لا يحب الحديث؛ لماذا؟ هو نفسه لا يعرف السبب، ضحك وقال:

- أريد أن أسألكِ سؤالاً.

- ماذا؟

- عائلتك لديها متجر بقالة، لماذا لا تعملين في متجر عائلتك بدلاً من العمل هنا؟

- وما شأنك بهذا؟

فكّر مينغ ليانغ في الأمر، فشعر أنها على حق، هذا أمر لا يخصه بالفعل.

بعد شهرين تركت العمل في مطعم المارشال، وذهبت للعمل في بكين. لم تخبر أيًا من زملائها ولم تودعهم، ولا حتى مينغ. قيل إنها ذهبت إلى بكين للعمل في أحد المطاعم أيضًا، خمّن مينغ أن المطاعم في بكين لا بد أن تكون أكبر بكثير من مطعم المارشال في يانجين.

بعد خمس سنوات عادت من بكين، فتحت متجر ملابس بالأموال التي حصلت عليها خلال الخمس سنوات. اكتشف مينغ عودتها عن طريق الصدفة. في ذلك اليوم ذهب للتجول في الشوارع خلال وقت الراحة، سار ناحية التقاطع فوجد متجرًا جديدًا للملابس في الركن الشمالي الغربي من التقاطع، اكتشف أن شياومنغ داخل المتجر. رأته أيضًا. استند مينغ على باب المتجر ووقف يتحدث معها، سألها متى عادت، ولماذا فتحت متجر الملابس هذا؛ تحدث الاثنان عن زملائهما في المطعم، ثم سألته شياومنغ:

- أما زلت تعزف على الناي؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حك رأسه، تذكّر أنه لم يعزف على الناي منذ خمس سنوات؛ قال:

- كدت أنسى هذا الأمر تمامًا لو لم تذكّريني به.. أقصد نسيان الوقت الذي مر دون العزف على الناي، وليس العزف نفسه.

ابتسمت شياومنغ. ثم تحدثا عن التغيرات التي حدثت في يانجين خلال السنوات الخمس، زاد عدد السفن السياحية عند المعبر، وافتُتح على متنها العديد من المطاعم، كما افتُتح مقهى جديد في الشارع الجنوبي، وساحة رقص عند الشارع الشمالي، وصالة سينما جديدة في الشارع الغربي، وبالوصول إلى هذه النقطة، قال مينغ ليانغ:

- لم نلتقِ منذ وقت طويل، ما رأيكِ في أن أدعوكِ إلى السينما الليلة؟

ضحكت شياومنغ وقالت:

- مينغ ليانغ، صرت أكثر شجاعة مما كنت عليه منذ خمس سنوات.

فكرت لبرهة وقالت:

-- حسنًا، بما أننا كنا زملاء في السابق، سأذهب معك، لكن تذكّر، سنشاهد فيلمًا فقط، لا تسرح بخيالك.

- أنا لست من هذا النوع.

في تلك الليلة ذهبا إلى سينما الشارع الغربي. بعد دخولهما، اشترى مينغ كيسين من مقرمشات الذرة، سألها:

- ماذا تحبين أن تشربي؟

- أخبرني أنت ماذا تحب أن تشرب؟

- لطالما أحببت شرب المياه الغازية منذ أن كنت طفلاً.

- وأنا أيضا، لكن بعدما ذهبت إلى بكين، صرت أحب شرب المياه الغازية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المستوردة كوكاكولا.

- حسنًا، لنشرب الكوكاكولا معًا.

بعد مشاهدة الفيلم، ذهبا لتناول لحم الضأن في المطعم المقابل للسينما. سألته:

- مينغ ليانغ، هل تشرب؟

- نادرًا جدًا.

- أنا أشرب، لقد تعلمت في بكين.

- حسنًا، لنشرب معًا.

عندما بدآ في الشرب، اكتشف أن قدرتها على الشرب أقل منه بكثير، فبعد تناول نصف زجاجة ظل واعيًا، أما هي فصار لسانها ثقيلاً أثناء الحديث. لكنهما استمرا في الحديث، بل وبحماسة أكثر مما قبل الشراب، حينها سألها:

- غادرتِ لمدة خمس سنوات، لماذا رجعتِ من بكين؟

- هل تريد الحقيقة أم سواها؟

- لن تفرق، الأمر لا يخصني، فقط أسأل بشكل عشوائي.

- سأخبرك الحقيقة.

- وما هي؟

- لن أتحدث عن سبب العودة، سأخبرك عن سبب المغادرة.

- كما تشائين.

سأبدأ بالحديث منذ كنت في العاشرة من عمري.

- حسنًا.

تحدثت بلسانها الثقيل عن طلاق أمها وهي في العاشرة، تزوجت أمها من شخص

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اسمه «ما العجوز» يمتلك متجر بقالة عند معبر يانجين. في العام التالي أنجبا أخاها الأصغر. منذ بلغت الخامسة عشرة استغل زوج الأم سفر أمها رفقة أخيها الأصغر إلى مسقط رأسها وتحرش بها في المنزل. وعندما التحقت بالمدرسة الثانوية انتقلت للإقامة في سكن الطالبات التابع للمدرسة لتجنب تحرشاته. أقامت في سكن المدرسة طيلة الوقت، ومن ثم نشأت علاقة غرامية بينها وبين أحد زملائها. لاحقًا رسبت في امتحان الالتحاق بالجامعة، فاضطرت للعودة إلى المنزل، عاد زوج أمها لمضايقتها مرة أخرى، وقال لها إن عدم نجاحها في امتحان الالتحاق بالجامعة له جانب إيجابي، ألا وهو أنه يمكنهما العيش معًا إلى الأبد. زميلها الذي وقعت في حبه اتسم بالانتهازية، قطع علاقته بها بعد التحاقه بالجامعة، فاغتنم زوج الأم الفرصة لمضايقتها مرة أخرى، وهكذا وجدت نفسها تعاني من هاتين الأزمتين في آن واحد، فأقدمت على الانتحار. ولهذه الأسباب، بعد إنقاذها تركت العمل في متجر البقالة وذهبت للعمل في مطعم المارشال، فيما بعد سافرت بعيدًا للعمل في بكين للأسباب نفسها أيضًا. قالت إنه رغم أن زوج أمها كان حيوانًا، فإنه عامل أمها بشكل جيد، لذلك التزمت الصمت حيال أفعاله معها؛ فهي تعرف أن هذه الأسرة ستتشتت لو أخبرت أمها؛ ناهيك عن وجود أخ أصغر لا يد له في كل هذا.

- «وبعد عودتي من بكين، فتحت متجرًا للملابس لأنني لا أرغب في العودة إلى متجر البقالة مهما حدث. قد يبدو للآخرين أن لديّ بيتًا وأسرة في يانجين، لكن الحقيقة هي أنني بلا أسرة وبلا بيت».

تسمّر مينغ مكانه، ذهل وهو يستمع إلى حديثها، لم يتوقع حدوث كل هذه الأشياء لها. في الوقت نفسه لم يتوقع أن تخبره بكل هذه الأشياء أيضًا؛ سارع يقول:

- لو كنت أعرف إجابتك، ما كنت أطلب منك أبدًا إخباري بالحقيقة.

- لم أخبر أحداً بهذا الكلام من قبل، وإياك أن تنقله إلى أي شخص.

استطردت:

- أعلم أنك كتوم قليل الكلام، لذلك أخبرتك، ولو لم أكن في حالة سكر الآن ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلت.

انخرطت في البكاء بعدما انتهت من حديثها.

- لا تقلقي، لن أخبر أحدًا بأي شيء، أعرف مدى حساسية هذه الأمور.

مسحت الدموع من على أنفها وهي تقول:

- لديّ سؤال لك.

- ماذا؟

- كنتَ طالبًا مجتهدًا في المدرسة، لماذا تركت المدرسة فجأة؟

- لقد أخبرتِني الحقيقة، ولذلك سأخبركِ الحقيقة.

- وما هي؟

جرع مينغ ليانغ كأسًا من الشراب وقال:

- لن أتحدث عن ترك المدرسة، سأتحدث عن الالتحاق بها.

- كما تشاء.

- سأبدأ بالحديث منذ كنت في الثالثة من عمري.

- حسنًا.

أخبرها كيف انتحرت أمه شنقًا في يانجين؛ وكيف غادر هو ووالده إلى ووهان؛ ثم زواج أبيه من امرأة أخرى هناك؛ ووفاة جدته، واستقلاله القطار الخطأ، واستغراقه شهرين للعودة إلى يانجين، وكيف عاش في منزل يانشنغ؛ وكيف ترك الدراسة بعدما توقف والده عن الإنفاق عليه، ثم ذهابه للعمل في مطعم المارشال... أخبرها بالتفاصيل من البداية إلى النهاية، بعدما انتهي من حديثه تنهّدت وقالت:

- لقد عانيت كثيرًا بالفعل.

ثم عادت وسألت:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لماذا انتحرت والدتك؟

هذا الأمر مرتبط بالعديد من الأحداث الماضية المؤلمة، ولا يمكن شرحه بجملة أو جملتين، قال مينغ:

- هذا أمر يصعب شرحه، لم أخبر أحداً بهذا الكلام من قبل، وإياكِ أن تخبري به أحدًا.

- لماذا عدت من ووهان إلى يانجين حينها؟

- اشتقت إلى جدتي.

صحيح أنه يفتقد جدته، لكنه ظل يحتفظ بالسبب الأكثر أهمية. وهذا السبب الأكثر أهمية هو ما حدث لأمه ينغ تاو في ووهان، حيث عُلقت صورتها على شاهد خشبي بمسامير فولاذية، تذكّر جسدها المثخن بالجراح.

ظلا يتحدثان حتى الثلث الأخير من الليل.

في عصر اليوم التالي، استغل مينغ وقت الراحة وذهب إلى معبر يانجين، حيث متجر عائلة شاومنغ. نظر من بعيد، وجد زوج أمها يقف واضعًا يديه خلف ظهره عند الباب، يراقب الناس وهم يجولون الشارع ذهابًا وإيابًا. قصير القامة، سمين قليلاً، أنفه أحمر، وعندما يدخل أحدهم المتجر يبتسم ويسأل: ماذا تريد أن تشتري؟ لا يبدو من مظهره أنه حيوان متحرش. تنهّد مينغ وهو يقول: المظاهر خادعة بالفعل.

ذهبا إلى السينما مرة أخرى، وبعدها لم يذهبا لتناول لحم الضأن، بل إلى المعبر الغربي، صعدا فوق سور مدينة يانجين. يقال إن سور المدينة عمره أكثر من ألفي عام، من أعلى السور تظهر مدينة يانجين مضاءة بشكل مبهر؛ ويبقى سور المدينة وحده مظلمًا. ووسط الظلمة التي تغلف السور عانق مينغ ليانغ شياومنغ وحاول تقبيلها، ولم تمنعه. وبينما هو يقبلها اكتشف مينغ أن لديها لسانًا طويلا للغاية، بعد لحظات دفعته بيدها بعيدًا وهي تقول:

- هل يمكنك أن تعزف لي؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لكنني لم أحضر الناي معي.

- سأذهب معك لنحضر الناي.

- لقد مر وقت طويل منذ آخر مرة عزفت، أخشى أنني لن أتمكن من العزف كالسابق.

- لا يهم.

نزلا من أعلى سور المدينة وذهبا إلى المطعم متشابكي اليدين. بعدما أخذ مينغ الناي من غرفته ذهبا إلى ضفة النهر خلف المطعم، وقف يعزف وسط الظلام. في البداية، كان عزفه ركيكًا بعض الشيء، وبمرور الوقت اندمج في العزف بكل مشاعره. وبعدما انتهى سألته:

- ما اسم هذا اللحن؟

- أنا فقط أعزف بشكل عشوائي.

- وما هو هذا اللحن الذي عزفته بشكل عشوائي؟

- مضمون اللحن يقول: أنت الشخص الوحيد القريب لي في هذا العالم.

- كلام مصطنع، لا بد أنك تعلمته من الأفلام والمسلسلات.

- صحيح، لكنه مختلف عما يقال في الأفلام والمسلسلات.

- وما الفرق؟

- ما يقال في الأفلام والمسلسلات كذب، وما أقوله حقيقة.

- هل تتعمد إثارة مشاعري؟

- وهل هذا مثير للمشاعر؟ من المفترض أن هذا مثير للحزن.

- ماذا تقصد؟

- هذا يثبت أنه ليس لدي أي قريب في هذا العالم بأكمله حتى هذه اللحظة، وهل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هناك ما هو مثير للحزن أكثر من ذلك؟

عانقته بشدة، أدخلت لسانها في فمه وهي تقول: أنا أيضًا أشعر أنك الشخص الوحيد القريب مني في هذا العالم. بعد لحظات أخرجت لسانها وقالت: هلا عزفت لي هذا اللحن مرة أخرى.

عزف مينغ مرة أخرى. ثم استمر يعزف حتى الثلث الأخير من الليل.

تزوجا قبل حلول عيد منتصف الخريف في ذلك العام. لاحقًا أدرك مينغ أن الآخرين يتزوجون لوجود ميزات يراها كل طرف في الآخر، أما هما فتزوجا لأن كلًا منهما صار على دراية بعيوب الآخر، أو لأن كلاً منهما يحمل في قلبه أسرارًا لا يريد أن يطلع الآخرون عليها، تلك الأسرار المكبوتة جميعها ذكريات سيئة. بالطبع لم يخبرها مينغ ليانغ عن أسوأ ذكرياته. في يوم زفافهما حضر زملاء دراسته المقربون، بالإضافة إلى السيد جياو مدرس الجغرافيا في المدرسة الإعدادية، وتشو العجوز صاحب مطعم «المارشال»، والسيد هوانغ الذي علّمه طهو الكوارع، وبعض العاملين في المطعم. كما حضرت أيضًا أم العروس شياومنغ وزوجها. كان من الواجب على مينغ إخبار أبيه بأمر زواجه، فهو أبوه على أي حال؛ لكنه خشي أن يتسبب مجيئه من ووهان لحضور حفل زواجه في وقوع خلافات بين أبيه وبين زوجته. أضف إلى ذلك أنه كتب له خطابًا منذ عشر سنوات يقول فيه إن زوجته تطلب منه قطع علاقته بابنه مينغ. وقد انقطعت علاقتهما بالفعل خلال السنوات العشر الماضية؛ وحتى لا تزيد الأمور سوءًا، قرر مينغ عدم دعوة أبيه لحضور حفل زواجه، لكنه دعا يانشنغ وزوجته، فعلى الرغم من مغادرته منزلهما قبل عشر سنوات، فإنه عاش في منزلهما لعشر سنوات منذ كان في السادسة إلى أن بلغ السادسة عشرة. وخلال الحفل قدم الحفل زميل الدراسة دونغ قوانغ شنغ، ألقى الكثير من النكات، ولعب زميلاه قو تسيكاي وفنغ مينغ تشاو دور رفيقي العريس، لكنهما ثملا قبل بقية الضيوف، أما السيد جياو وتشو العجوز ويانشنغ فأمسكا بيدي بعضهما وصعدا إلى المسرح، وغنيا معًا أغنية «الصياد القاتل». ووسط فرحة الجميع، نهض مينغ ترافقه عروسه وجالا قاعة الحفل وشربا نخب الحضور، ثم وقفا أمام والدة شياومنغ وزوجها يشربان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نخبهما مبتسمين، وكأن شيئًا مما حدث في الماضي لم يحدث؛ بعدها وقفا أمام يانشنغ وشياوفنغ يشربان نخبهما أيضًا، كان يانشنغ يضحك، بينما زوجته تبكي، وثبرر: إنها دموع الفرح.

2

مر عام على زواج مينغ، لكن شياومنغ لم تحمل. لم يكونا في عجلة من أمرهما خلال الشهرين الأولين، ولا بعد مرور ستة أشهر، لكن بعد عام شعرا بالقلق لسببين، الأول عدم الحمل، الثاني هو خوف كل منهما أن يكون هو السبب في تأخر الحمل. ذهبت شياومنغ إلى طبيب أمراض النساء، وذهب مينغ إلى طبيب أمراض الذكورة في مستشفى المحافظة لإجراء الفحوصات. أخبرهما المختصون أنهما لا يعانيان من أي مشكلات، وهو ما جعلهما يشعران بقلق أكبر.

قبل عشر سنوات تولى وي الصغير مهمة غسل الكوارع في مطعم المارشال بدلاً من مينغ الذي عمل في هذه المهمة لعام واحد فقط قبل أن يسمح له تشو صاحب المطعم بتعلم طبخها. ظل وي يغسل الكوارع لمدة عشر سنوات، قال له تشو: ما زلت لا تستطيع تنظيف الكوارع بشكل جيد حتى بعد مرور كل هذه السنوات، ولن أسمح لك بتعلم طهوها إلا عندما تتمكن من تنظيفها بشكل جيد. كان مينغ يشعر أيضًا أن وي غبي بعض الشيء، وبجانب كونه لا ينظف الكوارع بشكل جيد، فهو يتسبب أيضًا في تلف ثلاثة كوارع على الأقل من كل عشرة يغسلها؛ وهذا التالف لا يمكن تقديمه للزبائن، لكن مينغ رأى في وي شخصًا أمينًا؛ فبعد الانتهاء من طهو الكوارع، عادة ما تتبقي بعض قطع اللهم اللحم المهترئ داخل قدر الطهو. هذه القطع تُصفى ثم تباع كطبق رخيص لبعض الزبائن؛ لكن بعض العمال كانوا يأكلون منها خلسة عندما يشعرون بالجوع، عدا وي، لم يفعل ذلك مُطلقًا.

ليس تنظيف مينغ الكوارع بشكل جيد هو السبب الوحيد الذي جعل تشو يسمح له بتعلم الطبخ قبل عشر سنوات، الأمر تعلق أيضًا بمهارته في العزف على الناي؛ لكن وي لا يمكنه العزف. كثيرًا ما دافع مينغ عن وي عندما كان تشو يتهمه بالغباء، وأيضًا كان يدافع عنه عندما كان يسخر منه الآخرون. عندما تزوج مينغ دعاه لحضور حفل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الزفاف، وأثناء الحفل ظهرت فرحة الجميع جلية عدا شخصين يبكيان، أحدهما وي الذي نزلت دموعه وهو يشاهد حفل الزفاف الصاخب.

وي قليل الكلام، تمامًا مثل مينغ عندما جاء إلى المطعم في البداية. لكن مينغ صار ثرثارًا بعدما تعرّف إلى شياومنغ، أما وي الصغير فظل على حاله طوال العشر سنوات. عندما يتعرض للتوبيخ أو السخرية يواسيه مينغ قائلاً: يومًا ما سيصبح كل شيء على ما يرام. يرد بعد تنهُّد: يا أخي، ومتي يحل ذلك اليوم؟

يعمل أكثر من عشرين عاملاً في المطعم، كلهم يتجاهلهم وي، عدا مينغ الذي يناديه دومًا «يا أخي».

في أحد الأيام أثناء طهو مينغ الكوارع، جاء وي يركض لاهثًا، لوّح له من أمام الباب؛ قلب مينغ محتوى الوعاء واستدار يسأله: ماذا بك؟

لم يتكلم وي الصغير، بل استمر يلوّح. وضع المغرفة من يده وخرج من المطبخ، سار وي إلى النهر عند الفناء الخلفي للمطعم يتبعه مينغ. عندما وصلا إلى النهر، قال وي: أخي، حدث أمر خطير.

- ماذا أصابك؟

- لست أنا، بل أنت.

- ماذا حدث؟

- زوجتك.

ثم أخرج من جيبه إعلانًا صغيرًا بحجم بطاقة العمل وسلّمه إلى مينغ الذي طالعه فشاهد صورة زوجته ترتدي ملابس داخلية من ثلاث قطع فقط، مستلقية على السرير تتوسد يديها؛ وبجوار الصورة مكتوب: سيقان طويلة، لسان طويل، نشوة لا تُنسى، بالأسفل مكتوب العنوان ورقم الهاتف المحمول. بدا واضحًا أنها بطاقة من ذلك النوع المستخدم في الدعارة. قال مينغ:

- من فعل هذا؟ من يريد تشويه سمعتي؟ كيف يمكنه فعل شيء كهذا؟ زوجتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معي كل يوم.

- العنوان المكتوب على البطاقة ليس بيانجين، بل في بكين.

وي محق، العنوان ببكين، تطلع إلى الإعلان مرة أخرى، تصبب عرقًا باردًا، قال وي: أخي، لا تصدق ذلك.

لم يتفوه مينغ بأي كلمة، لكنه صدّق المكتوب على البطاقة. والسبب الجملة المكتوبة عن لسان شياومنغ الطويل. قبل أن يواعدها ويقبلها لم يعرف هذه المعلومة، وبعدما فعل عرف لذة تقبيل فتاة لها لسان طويل؛ إنها تستغل هذه الميزة في إعلانها، إنها عاهرة، فجأة أدرك أن المكتوب على البطاقة لا يخص الوقت الحاضر، بل الماضي. أخبرته شياومنغ أنها عملت في مطعم في بكين لمدة خمس سنوات، لكن يتضح له الآن أنها عملت كعاهرة. تذكّر أنه عندما سألها عن سبب عودتها من هناك لم تخبره، لقد تعمدت إخفاء الأمر عنه؟ يظن مينغ أنهما تزوجا لأن كلاً منهما صار على دراية بعيوب الآخر، لكنه لم يتوقع إخفاءها ذلك العيب الجسيم. أخبرته عن عيوبها الصغيرة، لكنها أخفت العيوب الكبرى؛ تمامًا كما أخفى عنها ما حدث لأمه في ووهان. لكن الأمرين مختلفان تمامًا. سأل مينغ: من أين لك بهذه البطاقة؟

- شوارع المدينة امتلأت فجأة بهذه البطاقات اليوم.

علم مينغ أن شخصًا ما يريد إيذاءها. تذكّر شيئًا، ترك وي، لم يكترث لأمر القدر الكبير الممتلئ بالكوارع، غادر المطعم وهو يركض مسرعًا نحو المنزل. عندما وصل وفتح الباب، وجدها قد شنقت نفسها بحبل يتدلى من السقف. أنزلها سريعًا، تحسس أنفاس أنفها، وجدها ما زالت تتنفس؛ نقلها إلى المستشفى على الفور، عادت إلى الحياة بعد إسعافها. أخبره الطبيب أن الفضل في إنقاذها يرجع إلى عودته في الوقت المناسب، فلو تأخر لدقيقة واحدة لما تمكن من إنقاذها. عندما شنقت أمه نفسها لم يتمكن من إنقاذها لتأخره في شرب المياه الغازية، لكن هذه المرة عاد قبل دقيقة واحدة من زيارة الموت لها. بعدما استفاقت قالت له: لم يكن عليك أن تنقذني، فما قرأته في تلك البطاقة صحيح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل تعرفين من فعل ذلك؟

- أعرف.

- من؟

- فتاة اسمها شيانغ شيو، تسكن في الشارع الغربي، مارسنا العمل نفسه معًا في بكين. وقبل عدة أيام عادت إلى يانجين وطلبت مني إقراضها مائة ألف يوان، وعندما أخبرتها أنني لا أمتلك هذا المال، غضبت مني بشدة وفكرت في هذه الحيلة لتفضحني وتنتقم مني.

غادر مينغ المستشفى وذهب إلى الشارع الغربي بحثًا عن شيانغ شيو. لم يجدها بالمنزل، أخبرته أمها أنها غادرت يانجين في وقت مبكر من صباح اليوم ذاهبة إلى عملها.

- أين تعمل؟

- لا أعرف.

في تلك الأثناء لاحظ مينغ وجود صورة عائلية معلقة على الحائط، يجلس فيها والدا شيانغ شيو على كرسيين في الصف الأمامي، وهناك فتاة في العشرينات من عمرها تقف خلفهما، وبجوار الفتاة يقف صبي مراهق. علم مينغ أن تلك الفتاة هي المتسببة في أزمة زوجته، وأن الصبي ربما يكون شقيقها الأصغر. شيانغ شيو فتاة ذات وجه مستدير وعينين واسعتين، تبتسم فتظهر غمازتاها للكاميرا، كيف لشابة جميلة مثلها اختزان كل هذا الحقد؟

3

تزامل مينغ ودونغ قوانغ شنغ ابن العراف دونغ في المقعد نفسه من الصف الأول حتى الصف الرابع الابتدائي. خلال تلك السنوات غالبًا ما ذهب مينغ إلى منزل صديقه للعب بعد انتهاء الدراسة حاملاً حقيبته على ظهره. تعيش عائلة العراف في زقاق الجنادب المتفرع من الشارع الشرقي للمدينة، ما زال مينغ يتذكر المرة الأولى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي التقى بها العراف العجوز، حيث سأله:

- ابن من أنت؟

- أبي تشن تشانغ جيه.

تدخّل الصديق وقال لوالده:

- أبوه يعمل قائد قطار في ووهان.

- عرفته، استمعت إلى والدك يغني في الأوبرا، أنا أكبر منه ببضع سنوات، عليك أن تناديني بالجد.

- حسنًا أيها الجد.

- سأحضر لك بعض حلوى السمسم.

أما أم صديقه فعندما تقابله تحب أن تسأله:

- كيف حال دونغ قوانغ شنغ في المدرسة؟ هل يتشاجر مع زملائه؟

- لا يتشاجر، لا يتشاجر.

- وما هو ترتيبه الدراسي بين زملائه؟

- دائمًا من الأوائل، دائمًا من الأوائل.

في وقت لاحق أصبح مينغ عاملاً في مطعم المارشال. ذات مرة جاء العراف العجوز إلى المطعم لتناول الكوارع، عندما رآه مينغ رحب به قائلاً:

- مرحبًا بالجد دونغ.

- مينغ ليانغ، مع من أتيت لتناول الكوارع؟

- لست هنا لتناول الكوارع، أنا أعمل هنا، أطهو الكوارع.

- ماذا تقصد؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخبره مينغ أن أباه لن يقدر على تحمل نفقاته ومصاريف دراسته، لذا لم يعد بوسعه البقاء في منزل يانشنغ أيضًا، لذلك جاء للعمل هنا. ضرب دونغ الأرض بقدمه وقال:

- لقد تأخرت في إخباري بهذا الأمر.

- أيها الجد، ماذا تقصد؟

- لو علمت بهذا قبل تركك للمدرسة لتوليت أمر هذه المسألة. فرغم أنني كفيف، لا تزال لديّ القدرة على إعالة طفل إضافي والتكفل بمصاريف دراسته، لكنك تركت منزل يانشنغ بالفعل، وجئت للعمل في هذا المطعم، ولو تدخلت في هذا الموضوع سيضع هذا يانشنغ في موقف محرج.

لم يُجب مينغ ليانغ. استمر العجوز يقول:

- هل تعرف تاريخ ميلادك؟

- نعم أعرف.

أخبره مينغ بتاريخ ميلاده، فأخذ يعد على أصابعه. بعد فترة طويلة من العد تنهّد وقال:

- لا داعي للحديث، هذا قدرك في الحياة.

أضاف:

- سواء كان هذا قدرك أم لا، هذا مجرد هراء، لا داعي لأخذ الأمر على محمل الجد.

- حتى لو اعتبرته مجرد هراء، لم يهتم أحد لأمري سواك طيلة هذا المدة، ولم يقُل لي أحد كلامًا آخر غير هذا، لذا سأعتبرها مواساة منك، سأنصاع لقدري وأستمر في طبخ الكوارع.

- تأخذ الهراء على أنه مواساة! مينغ ليانغ، أنت شخص فطن.

مرت أكثر من عشر سنوات في غمضة عين، صار العراف العجوز في السبعينيات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من عمره. توفيت زوجته كواي منذ عامين، وتزوجت ابنته منذ ثماني سنوات، ولم ينجح ابنه في الالتحاق بجامعة أو معهد، لذلك بقي في المنزل يساعد والده في أعمال العرافة. ما أثار حيرة مينغ كيف للعراف العجوز ألا يساعد ابنه للالتحاق بجامعة أو معهد؟ لكنه فكر أيضًا: ربما يُعد هذا قدر دونغ قوانغ شنغ، تمامًا مثل عمله في مطعم المارشال.

عندما وقعت حادثة زوجته، ظل مينغ في حيرة لا يعرف كيف يتصرف؛ لذلك استغل فرصة نوم شياومنغ في المستشفى، وخرج متجهًا إلى زقاق الجنادب، ثم دخل إلى منزل العراف ليسأله عما يقول الطالع. عندما جلس أمامه بدأ يتحدث عن حادثة زوجته، لوّح العجوز بيده وهو يقول:

- لا داعي للكلام، الخبر منتشر في جميع الأنحاء، علمت به.

- أريد فقط أن أسأل، ماذا عليّ أن أفعل؟

- أخبرني بتاريخ ميلادك وتاريخ ميلاد زوجتك.

أجابه مينغ، فأخذ العجوز يعد على أصابعه. بعد فترة طويلة من العد، سأل:

- ما هو التصرف الذي تريده؟

- بوصول الأمور إلى هذا الحد، لا سبيل سوى الطلاق، انظر لحجم العار الذي ألمّ بي.

هز العجوز رأسه رافضًا، سأله مينغ:

- لماذا؟

- أنت وزوجتك كنتما زوجين في الحياة السابقة. أنت مدين لها بالكثير، وهذا هو الجزاء الذي تستحقه.

تسمّر مينغ مكانه مذهولاً.

- الطالع يخبرني أن زواجكما لم ينتهِ بعد؛ وإذا أصررت على الطلاق سيتعين عليك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سداد دينها في حياتك القادمة.

- وماذا فعلت في حياتي السابقة؟

عد العجوز على أصابع مرة أخرى؛ بعد فترة قال:

- أنت مدين لها بنصف حياتك. ولن أتحدث معك عن حياتك السابقة، لنتكلم عن الحاضر، زوجتك حاولت شنق نفسها للتو، وأنت تريد تطليقها، لو شنقت نفسها ثانية ألن تكون أنت المتسبب في ذلك؟

استطرد:

- هناك بعض الذنوب القديمة التي لا يمكن التكفير عنها في الحياة السابقة أو الحالية أو القادمة، هذه أمور شائعة الحدوث.

أكمل:

- هذا مجرد هراء، لا داعي لأخذ الأمر على محمل الجد.

- أيها الجد، مسألة كبيرة كهذه لا بد أن آخذها على محمل الجد، وإذا لم يكن بإمكاني طلاقها فماذا عساي أن أفعل؟

- ليس بوسعك سوى أن تطلق يانجين.

- ماذا تقصد؟

- غادر.

استوعب مينغ كلامه فجأة، في الماضي غادر ووهان وأتى إلى هنا بسبب ما حدث لأمه، والآن هو في حاجة إلى المغادرة والذهاب إلى مكان آخر. بهذه الطريقة، فيانجين اليوم تشبه ووهان القديمة. تنهّد وقال:

- من السهل مغادرة يانجين، لكن إلى أين نذهب؟

- دعني أرى ماذا يقول الطالع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشعل صديقه البخور، وبينما يحترق، نهض العجوز وذهب إلى الطاولة، ثم ركع على ركبتيه ووقف يتمتم ببعض الكلمات، تطلع نحو الأمام بعنين مغمضتين، ثم قال:

- إلى الغرب.

- أي مكان في الغرب؟

- لم يخبرني الطالع.

- لكني لا أعرف أحدًا في المناطق الغربية.

- المدينة بأكملها تعرف ماضي زوجتك الآن، كما أنها أقدمت على الانتحار، وبغضّ النظر عما يقول الطالع، أو المكان الذي ستذهب إليه، المهم مغادرة يانجين.

4

إلى أين يذهب؟ هذه هي المشكلة التي تؤرق مينغ. ما هو فيه يختلف عن مغادرة الوطن من أجل العمل. فمن يخرج للعمل قد يغادر لعام، لثلاثة أو خمسة، لكنه سيعود في النهاية، وما دام يقدر على كسب المال المناسب فالمكان لا يهم، لكن مغادرته يانجين رفقة زوجته دائمة لا عودة فيها، لذلك عليه التفكير مليًا في وجهته. من الأفضل أن يكون لديه أحد المعارف في ذلك المكان الذي سيتجه إليه، وأن يكون ملمًا به؛ بحيث يعتني به إذا واجهته صعوبات في المستقبل. كما أن عليه اختيار مكان جهة الغرب كما أخبره العراف العجوز.

بخلاف يانجين، لم يكن مينغ قد ذهب سوى إلى ووهان التي تقع إلى الجنوب من يانجين، وليست في الغرب، ناهيك عن أنه يحمل ذكريات حزينة تجاهها، كما أن عائلة أبيه لا تزال هناك، لذلك لن يمكنه الذهاب إليها؛ أما زوجته فقد ذهبت إلى بكين التي تقع في شمال يانجين، كما أنها مارست هناك عملاً مشينًا. أين يذهب؟ هناك العديد من الأماكن في الغرب والعديد من الناس، لكن مينغ لا يعرف هذه الأماكن ولا هؤلاء الناس.

في «المارشال» تعلم مينغ طهو الكوارع على يد الطباخ هوانغ الذي اتسم بسلاطة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللسان، فور بدئه بالعمل معه في المطبخ، طها قدرًا من الكوارع، النصف طُهي بشكل جيد والآخر بقي نيئًا، قال هوانغ: من يهاب الصعب لا يتعلم، ومن يتعلم لا يهاب الصعب، ويوم بارد واحد لا يكفي لتراكم الجليد. يعرف مينغ أن هذا الحديث على سبيل السخرية، ولكن عند تعلمك من الآخرين، ليس بوسعك سوى إظهار الطاعة، وألا تأخذ الأمر على محمل الجد، فتهكُّم المعلم على تلاميذه أمر شائع، المهم تنفيذ أوامره، وجعله راضيًا ما أمكن. أجاب مينغ قائلاً: سيدي، أنت محق. بعد ثلاث سنوات أصبح قادرًا على طهي الكوارع بشكل جيد، لكن مذاقها ليس بنفس جودة الكوارع التي يطهوها هوانغ. حينها قال له العجوز: لقد عملت في طهو الكوارع لمدة ثلاثين عامًا، أما أنت فلم يمر على عملك في طهوها سوى ثلاث سنوات، ولو أن لها مذاق ما أطهو، ألا يجب عليّ ترك العمل والتقاعد؟ رد مينغ: سيدي، أنت محق. بعد عشر سنوات، صار مينغ يطهو الكوارع بالمذاق نفسه الذي يطهوها به هوانغ. حينها قال له: إذا تعلم التلميذ جاع المعلم، ألست بذلك كمن حفر قبره بنفسه؟ سارع مينغ يرد: أنت معلمي مهما حدث، ولو أن الأمر كما تقول، ألن أكون بذلك ناكرًا للجميل؟ حينها بدا على الطاهي العجوز الغيظ وقال: معلمك يمزح، ألا تفهم؟ رد مينغ ليانغ: كم أنا غبي، لقد اعتقدتك جادًا في حديثك. حينها ضحك هوانغ.

بعدما سمع هوانغ عن حادثة شياومنغ توقف عن السخرية من مينغ، بل صار قلقًا مثله تمامًا، قال له: إنها طعنة سكين في الظهر، يا له من عمل خسيس. تحدّث عن الفتاة شيانغ شيو التي تسكن الشارع الغربي؛ استمر يقول: هل هذا يلطخ سمعتك وحدك؟ لا، بل يلطخ سمعتي أيضًا بصفتي معلمك. تحدّث كثيرًا عن العلاقة التي تربطه مع مينغ؛ وعندما سمع باضطراره للسفر جهة الغرب، فكّر أثناء طهوه للكوارع في مكان يناسب تلميذه.

بعد تفكير عميق، خبط هوانغ على يديه عندما تذكّر جده. في عام 1942 مات الكثيرون في يانجين جوعًا بسبب الجفاف؛ وفرّ كثير من السكان إلى مقاطعة شانسي. من بين الذين فروا جد هوانغ، كان في السادسة من عمره حينها، في ذلك الوقت فرت الأسرة بأكملها؛ حيث مات والداه جوعًا في طريق الفرار، فسار رفقة الناجين من سكان يانجين، ونجح في تسلق القطار حتى وصل إلى مدينة شيآن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبعد أكثر من ستين عامًا، مات الفارون الذين كانوا في العشرينيات من العمر حينها؛ أصبح أحفادهم من سكان شانسي، وانقطعت صلتهم مع يانجين مع الوقت؛ جد هوانغ الآن في السبعينيات من عمره، ما زال على قيد الحياة، لم ينقطع التواصل بينه وبين عائلة هوانغ. قال:

- شيآن تقع غرب يانجين أليس كذلك؟

- نعم.

- جدي يعيش هناك، لماذا لا تذهب إليه؟ سأحدثه لمعرفة مدى إمكانية مساعدته لك.

عندها فقط عرف مينغ سمات المعلم الحق. قد يكون سليط اللسان ولكن عندما يواجه تلميذه مشكلة كبرى يقف إلى جانبه على الفور؛ سارع مينغ يقول:

- شيآن رائعة، إنها مدينة كبيرة، سأكون ممتنًا للغاية لو ساعدتني في هذا الأمر، لكن فقط لا تخبره لماذا تركنا يانجين.

استمر هوانغ يقلب الكوارع في الوعاء بمجرفته، قال: «لا تقلق، لست غبيًا. سأهاتفه فور أن أنتهي من طهو هذا القدر».

ذهب هوانغ إلى مكتب البريد ليهاتف جده. عندما عاد قال إنه اتصل به، لكنه يعاني من ضعف السمع، بالكاد يمكنه سماع من يحدثه وجهًا لوجه، وطبيعي أنه لم يسمع ما قاله عبر الهاتف، حتى إنه لم يسمع جملة واحدة مما قاله. لحسن الحظ أن جده يقيم في بيت أحد أحفاده، لذلك فقد وجد هوانغ نفسه مضطرًا إلى إخبار ذلك الحفيد عن نية ذهاب مينغ إلى شيآن؛ الحفيد اسمه فان يوتشي، يعمل قائد حافلة نقل عام في منطقة بيداو بمدينة شيآن؛ تحدّث هوانغ إلى فان يوتشي وأخبره عن تلميذه مينغ الذي وقع بينه وبين إخوته نزاع بسبب الميراث، ونشبت بينهم عداوة شديدة فقرر مغادرة يانجين مع زوجته والاستقرار في مكان آخر. بعد تفكير عميق، قررا الذهاب إلى شيآن؛ لكنهما لا يعرفان أحدًا هناك، لذلك طلب منه مساعدتهما في العثور على مكان للإقامة وطريقًا لكسب العيش. قال فان يوتشي إنه لا يحب توريط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نفسه في مثل هذه الأمور، لكن ما دام هو من طلب منه ذلك فسيساعدهما في البحث، وسيرد عليه في غضون ثلاثة أيام. قال هوانغ إن الأمر عاجل بعض الشيء، لذا يفضل الرد في أسرع وقت، فهل يمكنك الرد غدًا؟ وافق فان يوتشي على طلبه. شكر مينغ معلمه على هذه المساعدة.

في عصر اليوم التالي ذهب مينغ رفقة معلمه إلى مكتب البريد مرة أخرى ليهاتفا فان يوتشي. قال فان يوتشي إنه استفسر لهما أمس عن هذا الأمر، لكنه ليس سوى سائق حافلة وقدرته محدودة، من السهل مساعدتهما في استئجار منزل رخيص. أما بشأن العثور على عمل، فقد فكر مليًا في الأمر ولم يجد بين معارفه الذين لهم القدرة على توفير عمل سوى سون، ذلك الرجل العجوز الذي يعمل مسؤولاً في سوق الخضار في منطقة داوبي؛ وقد تحدث إلى سون هذا الصباح، هذا الرجل لا يحب مساعدة الآخرين، لكن مزاجه الجيد اليوم جعله يوافق على تخصيص مكان لهذين الزوجين داخل السوق ليبيعا فيه الخضار؛ لماذا وافق سون العجوز بهذه السهولة؟ هل مزاجه الجيد فقط المتسبب في ذلك؟ لا، إنه أيضًا حفيد لأسرة فرت من يانجين خلال المجاعة، وعندما سمع أن هذين الزوجين قادمان من يانجين قرر مساعدتهما؛ لكني لا أعرف ما إذا كان بيع الخضار في شيآن عملاً مناسبًا لهما أم لا؟ نظر هوانغ إلى مينغ الذي سارع يقول:

- بالطبع مناسب، هلا طلبت من العم فان يوتشي مساعدتي في استئجار ذلك المنزل اليوم.

أغلق هوانغ الهاتف، التفت إلى مينغ وقال:

- السماء لا تسد أبوابها في وجه أحد.

ثم أضاف: جيد أن يكون لديك عمل بعدما تصل إلى شيآن، لن تعاني بشأن توفير نفقاتك، لحسن الحظ أن المسؤول عن سوق الخضار شخص تعود أصوله إلى يانجين.

ثم أوصاه قائلاً:

- عندما تلتقي فان يوتشي في شيآن تذكّر أن تناديه بالأخ، وليس العم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إنه ابن عمك، وأنت معلمي. كيف لي أن أناديه بأخي، أليس هذا عدم احترام؟

- لو ناديته بالعم سيعتبرك غريبًا، لكن لو ناديته بالأخ سيعتبرك قريبًا، وما دمت بعيدًا عن موطنك فالمهم في النهاية النتيجة وليس الطريق.

علم مينغ أن أستاذه يفكر في مصلحته، وعرف ثانية ما هو المعلم الحق، فسارع يقول:

- معلمي أدرى مني ببواطن الأمور، ويهتم بكافة التفاصيل، سأنفذ كل تعليماتك.

ودّع مينغ معلمه، ذهب إلى المنزل لمناقشة الأمر مع زوجته، سألها عن رأيها في الذهاب إلى شيآن وبيع الخضار هناك، أجابت وأصابعها تتحسس آثار خنق الحبل التي لم تترك رقبتها بعد:

- ما دمنا غادرنا يانجين، فلا يهم إلى أي مكان نذهب.

- لن يزعجني بيع الخضار، ألست أبيع الملابس في يانجين الآن؟

- حسنًا، لنعتبر أننا سنغادر فرارًا من المجاعة، وأن الوقت قد عاد بنا إلى عام 1942.

في اليوم التالي غادرا، وبينما هما جالسان في القطار، شاهد مينغ المزروعات والقرى في يانجين تتلاشى بالخلف تدريجيًا، تذكّر الوقت الذي عاد فيه إلى يانجين من ووهان؛ كان في السادسة من عمره، ركض وحيدًا على خط السكة الحديد في ذلك الوقت. لم يتخيل أنه سيغادر يانجين ثانية إلى مكان آخر بعد عشرين عامًا. قطعت زوجته أفكاره وقالت:

- قبل وصولنا إلى شيآن، أريد أن أسألك سؤالاً.

- ماذا؟

- ألا تهتم حقًا بما فعلته في الماضي؟

- كيف لا أهتم؟ أفكر في الأمر كل يوم. كل هذا العدد من الرجال ضاجعوا زوجتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طوال خمس سنوات.

سكت، ثم أضاف:

- خاصة اللسان.

- إذن، ما رأيك أن أنزل في المحطة التالية، وليذهب كل منا في طريقه.

لم يخبرها مينغ بما قاله العرّاف العجوز؛ بل فكر في مشاعره تجاهها. لقد ارتكبت خطأ شنيعًا، لكنه لم يستطع أن يكرهها، بل شعر كأنها فرد من عائلته أخطأ وعليه مسامحته، فقال:

- لقد فكرت في شيء يجعلني أتغاضى عن الأمر.

- ماذا؟

- عندما مارستِ الدعارة في بكين، هل ذكرتِ اسمك الحقيقي؟

- لا، كنت أقول إن اسمي ماري.

- لا توجد مشكلة إذن. لقد تزوجتُ بشياومنغ، وليست ماري.

ضحكت، ثم توقفت عن الضحك وبكت فجأة، قالت:

- اطمئن، كل ما حدث بيني وبينهم تمثيل ومشاعر مصطنعة، ليس حقيقيًا، مشاعري تجاهك فقط حقيقية.

- يشغل بالي شيء آخر؟

- ما هو؟

- كم عدد الأشخاص الذين نمتِ معهم في بكين؟

- لا أتذكر العدد.

ثم استطردت:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لكن نصفهم لا يُحتسب.

- لماذا؟!

- نصف هؤلاء الرجال عاجزون جنسيًا.

دهش مينغ ليانغ مما قالته، فهذا أمر لم يتوقعه. استمرت تقول:

- أعلم أنك تحمّلت عاري، لكن اطمئن، من الآن فصاعدًا سأعيش حياتي كلها إلى جوارك وسأحفظ لك هذا الجميل طيلة حياتي.

- لن نتحدث عن هذا الأمر ثانية، فلا فائدة من فتح هذا الجرح القديم.

أومأت برأسها موافقة على كلامه.

5

وصلا إلى مدينة شيآن، اتجها لمنطقة داوبي، لم يعثرا على منزل فان يوتشي إلا بحلول ظهر اليوم التالي. تقدم مينغ ليطرق الباب، سارعت شياومنغ تلف وشاحًا حول رقبتها لتخفي آثار الحبل. بعد الطرق لوقت طويل لم يرد أحد، وبدلاً من ذلك فُتح باب المنزل المقابل، وأطلت من خلفه عجوز، فسارع مينغ يسألها:

- أيتها الجدة، آسف لإزعاجك، هل المنزل المقابل لفان يوتشي؟

هزت العجوز رأسها بالإيجاب.

- وأين أفراد أسرته؟

- ما زلنا ظُهرًا، الكل في أعمالهم.

- والرجل الكبير ضعيف السمع، هل هو هنا ولا يسمع الطرق؟

- تتحدث عن فان العجوز، لقد انتقل للعيش مع ابنته أمس.

علم مينغ أن البيت خالٍ تمامًا. لكنه يعرف أن فان يوتشي يقود حافلة في شيآن، لذلك سأل:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ما رقم خط سير الحافلة التي يقودها؟

- الخط رقم سبعة.

- أيتها الجدة، نحن أقاربه. جئنا من مقاطعة خنان وجلبنا له معنا بعض الأشياء. هل تمانعين في إيداعها في منزلك مؤقتًا؟

- لا مانع، لن تشغل حيزًا عندي.

أحضر مينغ وزوجته معهما عشر قطع كوارع، ودلوين من زيت السمسم، وكيسًا من الفول السوداني المقشر هدية إلى فان يوتشي. وضع مينغ الهدية في منزل العجوز ثم شكرها، حمل وزوجته أمتعتهما، ثم غادرا المكان؛ قال لها:

- لنذهب إلى محطة الحافلات التي تمر بها حافلة الخط رقم سبعة، لو وجدناها سنجده.

سارا في عدة شوارع يسألان عن الطريق إلى أن وجدا أخيرًا المحطة التي تمر بها الحافلة المرادة. ولأنهما لم يقابلا ذلك الرجل مطلقًا، ولا يعرفان شكله، ظل مينغ يركض نحو كابينة السائق وقت توقف الحافلات لنزول وصعود الركاب ويسأله:

- أيها الأخ، هل أنت فان يوتشي؟

كان السائقون يجيبون «الرحلة السابقة» أو «الرحلة التالية». مرت أكثر من اثنتي عشرة حافلة، ورغم أن كلام السائقين غير موحد، فإن مينغ ليانغ يعلم أن فان يوتشي يقود حافلة على هذا الخط. أخيرًا، قابلا سائقًا متورد الوجه، لديه شامة بجانب أنفه، سأله مينغ السؤال نفسه، رد السائق:

- أنا فان يوتشي، ماذا تريد؟

تذكّر مينغ وصية هوانغ، قال: أخيرًا وجدتك أيها الأخ فان يوتشي، لقد جئنا من يانجين. معلمي هوانغ طاهي الكوارع في مطعم المارشال.

ابتسم، وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لقد عرفتكما، هيا اركبا السيارة، لا يمكنني التوقف هنا.

- ركبا الحافلة، جلسا في المنطقة الفارغة أعلى غطاء المحرك أثناء القيادة كما طلب منهما فان يوتشي، سألهما متى وصلا إلى شيآن. أجابه مينغ أنهما وصلا في الصباح الباكر وذهبا إلى منزله وتركا الأشياء التي أحضراها من أجله في منزل العجوز المقابل. قال لهما:

- ليس هناك داعٍ لأن تحضرا معكما شيئًا.

- كلها منتجات محلية، بالإضافة لبعض من الكوارع التي طبخها المعلم هوانغ بنفسه.

عندما رأى مينغ السيارة مكتظة بالركاب الذين يصعدون وينزلون في كل محطة سأل:

- أيها الأخ فان يوتشي، هل الحافلة مزدحمة يوميًا بهذا الشكل؟

رد أثناء تحريكه ناقل الحركة:

- يُعتبر العدد قليلاً اليوم، لا توجد أي ميزة في القيام بهذا العمل سوى رؤية كثير من الأشخاص كل يوم.

ظلت الحافلة تسير، يمكن القول إن مينغ ليانغ وزوجته تجولا في نصف مدينة شيآن بالمجان. عندما وصلت الحافلة إلى المحطة النهائية أوقف فان يوتشي السيارة ونزل من الحافلة، ثم اصطحبهما واستقلوا حافلة أخرى إلى منطقة داوبي. وعندما وصلوا قال:

- سأريكما المنزل الذي استأجرته لكما أولاً.

ثم أشار إلى المارة الذين يتجولون في الشارع وأكمل:

- سكان منطقة داوبي جميعهم من خنان، سواء من جيل الأجداد أو الآباء، جميعهم ممن فروا من المجاعة في ذلك الوقت، وهذه ميزة سكنكما هنا، الجميع يتحدثون بلكنة خنان، لذا عندما تفتحان فمكما وتتحدثان، فلن يعاملكما أحد على أنكما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غريبان.

سارع مينغ مومئًا برأسه وقال:

- إن أكثر ما خشيناه عند الانتقال للعيش في مكان جديد التعرض للتنمر، لكننا شعرنا بالألفة عندما سمعنا الناس يتحدثون هنا.

صحبهما فان يوتشي وساروا بعيدًا عن الشارع الرئيسي إلى أن وصلوا إلى الزقاق الخلفي، ثم عبروا عدة أزقة، إلى أن وصلوا إلى تقاطع للسكك الحديدية؛ ثم دخلوا زقاقًا على الجانب الغربي من التقاطع، وفي نهاية الزقاق تقدم فان يوتشي وفتح قفلاً موصدًا على باب أحد المنازل، رأى مينغ أن المنزل عبارة عن غرفة واحدة فقط، مساحتها حوالي سبعة أو ثمانية أمتار مربعة، رطبة لا تدخلها الشمس.

- هذا هو المنزل الذي استأجرته لكما. لا أعرف ما إذا كان مناسبًا أم لا، أعلم أن ظروفه سيئة بعض الشيء، لكني وضعت في اعتباري أنكما جئتما للتو للاستقرار هنا، وفي حاجة لتوفير المال.

- من حسن حظنا أن يكون لدينا مكان نعيش فيه، بالإضافة لتوفير المال، لذا فهذا المنزل ممتاز.

- ما دمتما وافقتما على السكن هنا، فهناك أيضًا ميزة أخرى، ألا وهي قربه من سوق داوبي للخضار.

- شكرًا لك أيها الأخ فان يوتشي لمراعاتك ظروفنا من جميع الجوانب.

بعد ذلك، بقيت شياومنغ لتنظيف المنزل، واصطحب فان يوتشي مينغ إلى سوق الخضار في داوبي لمقابلة سون العجوز. في طريقهما دخل مينغ أحد المتاجر، اشترى زجاجتين من النبيذ وأربع عبوات من السجائر، وضعها في كيس بلاستيكي. قال فان يوتشي:

- سون العجوز اسمه بالكامل سون أرهو، يعمل مديرًا في سوق الخضار. وكما أخبرتك عبر الهاتف، أصوله تعود إلى يانجين. عندما نقابله بعد قليل من الأفضل أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تناديه الأخ سون، حتى لا يشعر أنك غريب عنه.

من قبل أوصى المعلم هوانغ مينغ بمناداة فان يوتشي بالأخ، والآن يوصيه فان يوتشي بالشيء نفسه عند مقابلة سون. سارع مينغ بهز رأسه موافقًا، بعد عبور شريط السكة الحديد سارا عبر حارتين ضيفتين، ثم وصلا إلى سوق الخضار الذي يقع أسفل سقيفة كبيرة. هناك العديد من الأكشاك المتراصة في صفوف، يبدو من مظهرها أنها تحتوي على بضع مئات من الأكشاك على الأقل.

- هذا هو أكبر سوق للخضار في داوبي.

- حجمه كبير بالفعل.

بعد دخول المكتب الإداري لسوق الخضار، أشار فان يوتشي إلى رجل ذي لحية وقال:

- المدير سون أرهو.

ثم أشار إلى مينغ ليانغ وقال:

- أيها المدير، هذا هو من حدثتك عنه قبل يومين، جاء من مسقط رأسنا، يريد العمل في بيع الخضار لديك.

تقدّم مينغ وقال:

- أيها الأخ سون.

ثم وضع الكيس البلاستيكي على طاولة الشاي المجاورة له.

- سمعت من فان يوتشي أنك جئت من يانجين. هل تعرف لي تشيوان شون الذي يسكن في الشارع الجنوبي في يانجين؟

فكر مينغ قليلاً، ثم هزّ رأسه نافيًا وقال:

- هناك أكثر من نصف مليون شخص في يانجين، ولا يمكنني معرفتهم جميعًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إنه زوج عمتي.

في تلك الأثناء، دخل شخص وتحدّث إلى سون:

- أيها الأخ سون، لقد لقنت وو العجوز بائع القصب الذي تشاجر معك أمس درسًا، وهو الآن ينتظر بالخارج يريد أن يعتذر لك لتعفو عنه.

- دعه يغرب عن هنا، وأعطِ الكشك الخاص به لهذا القادم الجديد من مسقط رأسنا.

ثم التفت إلى مينغ وقال:

- هذا الكشك أفضل من ذلك الذي كنت أنوي أن أعطيك إياه.

أكمل قائلاً:

- هذا سيهاي، المسؤول عن الأمن والنظام في سوق الخضار، إذا احتجت إلى مساعدة في المستقبل يمكنك الذهاب إليه.

توجّه مينغ بالشكر إلى سون، ثم قال لسيهاي:

- أيها الأخ سيهاي، هل أنت من يانجين أيضًا؟

- لا، أنا من شيآن.

من اليوم التالي بدأ مينغ ببيع الخضار في سوق داوبي. يقود دراجة ثلاثية العجلات في الثالثة فجرًا متجهًا نحو سوق الجملة في الضاحية الشمالية مع بائعي الخضراوات الآخرين، يشتري بالجملة أنواعًا عديدة مثل البصل والثوم والملفوف والسبانخ والفلفل الأخضر والخس والطماطم والبيض. سأل مينغ أحد باعة الخضار القدامى الذي أخبره بضرورة التأكد من طزاجة الخضراوات والحرص على تنوعها. يصل مينغ السوق بحلول الفجر؛ يبدأ في البيع، ثم تأتي زوجته حاملة الإفطار. بينما يأكلان، شاهدت بعض الأكشاك التي تبيع حوامل الأكواب المنسوجة من خيوط الدوبارة، قالت: يمكنني نسج مثل هذه الحوامل. ذهبت واشترت عشر حزم من خيوط الدوبارة مختلفة الألوان من كشك بقالة مجاور؛ بعدما انتهيا من تناول الطعام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استمر مينغ في أداء وظيفته، وعادت شياومنغ لترتيب المنزل. بعدما انتهت بدأت في نسج حوامل الأكواب لبيعها في الكشك لاحقًا، بعد ذلك قامت بتجهيز الغداء وأخذته إلى السوق، بعدما انتهيا، استمر مينغ في بيع الخضار، بينما عادت لنسج حوامل الأكواب. بحلول المساء أغلق مينغ الكشك، وحمل معه الخضار المتبقي إلى المنزل، وبعدما انتهيا من تناول العشاء، أخرج مينغ الفواتير من صندوق صُنع من الورق المقوّى، بدأ في إجراء الحسابات. بعد يوم واحد من العمل خصم تكلفة شراء الخضار من سوق الجملة، فوجد أنه حقق ربحًا قدره خمسة وسبعون يوانًا وثلاثون ماو.

قال بسعادة:

- انظري، لقد ربحت كل هذا في اليوم الأول فقط.

ردت بسعادة أيضًا:

- لم أكن أتوقع أنك بارع في الأعمال التجارية.

- الفضل يعود إلى هذا السوق الكبير، فهناك الكثيرون ممن يشترون الخضار.

أضاف:

- هناك ميزة أخرى لبيع الخضار، لن نحتاج لشراء طعام، يمكننا أكل الخضار المتبقي.

- أصبنا في المجيء إلى هنا.

بحلول الليل احتضنها وقال:

- منذ أن وقعت تلك الحادثة لم نفعل ذلك.

- نعم، مزاجنا تعكر بسببها.

اختلط الحابل بالنابل، وبينما يتبادلان القبلات قال مينغ: زوجتي، لسانك طويل حقًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- وهو لك وحدك.

اعتلاها، ضاجعها بقوة، صرخت:

- أنت رائع، تكاد تقتلني من فرط المتعة.

مرت ثلاثة أشهر في غمضة عين، وفي يوم جاءه سيهاي محذرًا:

- من الغد فصاعدًا، ستغادر هذا المكان، عليك أن تترك هذا الكشك لشخص آخر.

- لماذا؟

- لا يوجد سبب، مجرد تعديل في توزيع الأماكن. ألم تأخذ مكان وو العجوز بائع القصب وقت مجيئك إلى هنا؟

أخذ مينغ يفكر في سبب هذا التغير المفاجئ، لا يوجد بينه وبين سيهاي أي ضغينة. لم يأخذ الأمر على محمل الجد نظرًا لأن سيهاي دائم التوبيخ لأصحاب الأكشاك داخل السوق وطردهم. عاد إلى المنزل حائرًا، أثناء تناول العشاء أخبر زوجته بما حدث فقالت:

- لم أكن أنوي إخبارك لو لم تخبرني بما حدث معك، أنا السبب في هذا.

- ماذا تقصدين؟

قالت إنها أثناء نسج حوامل الأكواب في المنزل بعد الظهر جاءها سون إلى البيت فجأة، زيارته جاءت بعد عودته من يانجين قبل يومين، علم بماضيها في بكين. أحضر معه بطاقة إعلان تحمل صورتها مستغلاً غياب مينغ في عمله. وبّخته شياومنغ، أخرج البطاقة وقال: الأمر لا يتعلق بكوني لم أضاجع عاهرة من قبل، بل أنني لم أضاجع من لديها مثل هذا اللسان الطويل من قبل، ما رأيك في أخذ بعض المال في المقابل؟ دفعها نحو السرير، صفعته، أمسكت بالمقص لطعنه، فرفع سرواله وفر هاربًا. قال مينغ:

- المظاهر خادعة بالفعل، قلت لنفسي إننا أبناء نفس البلدة، لم أتوقع أن تصل دناءته لهذا الحد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استطرد:

- سأصفي حسابي معه غدًا.

- من الأفضل أن ننسى هذا الأمر. وكما تقول الحكمة، تجنب المشاكل تضمن لقمة عيشك. وطالما لم يطردنا، فلنعتبر كأن شيئًا لم يكن. علاوة على ذلك، فأنا لم أتركه ينال مراده.

أكملت:

- لقد رأيت بنفسك، بيع الخضار مربح للغاية.

أخذ مينغ يفكر في الأمر طوال الليل، رأى أن ما قالته زوجته منطقي. بحلول الثالثة من فجر اليوم التالي، استقل دراجته ثلاثية العجلات متجهًا إلى سوق الجملة في الضاحية الشمالية، وبعدما جلب معه الخضار إلى السوق في داوبي، وجد أن الكشك الخاص به ذهب لبائع فواكه مجففة، ملأه بالكستناء والفول السوداني واللب والبندق والكاجو والجوز والفستق، وغير ذلك. تحدّث إلى ذلك البائع وقال:

- أيها الأخ، هذا مكاني.

رد عليه الرجل بلهجة الشمال الشرقي:

- هذا مكاني من اليوم فصاعدًا، وقد دفعت الإيجار بالفعل.

- من سمح لك بهذا؟

- المدير سون.

شعر مينغ بتمادي سون في تعسفه. لم يكتفِ بمحاولة الاعتداء على زوجته، بل عاد ليعاقب مينغ بنقله من الكشك. لم يتوقع مينغ أن يقع في صدام مع سون، يرى أن حظه سيئ، فلو أن سون من أي مكان آخر غير يانجين، لما عرف بأمر البطاقات أبدًا، ربما لم يتوجب عليه المجيء إلى هنا. تذكّر كلام دونغ العجوز عن الذهب إلى الغرب، من يدري أن العيش هنا أكثر صعوبة من البقاء في يانجين. كبح مينغ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غضبه وذهب إلى مكتب الإدارة للتحدث إلى سون. عندما دخل وجد سون وسيهاي بالمكتب فقال:

- لا تتمادَ في ظلمك.

رمقه سون أرهو بطرف عينه، قال:

- ماذا حدث؟

- كُف عن التظاهر وأعد لي الكشك الذي أخذته، ولننسَ الأمر، وإلا سأفضحك، لماذا ذهبت إلى منزلي أمس؟

- بما أنك تحدثت عن هذا الأمر، فدعني أخبرك بشكل واضح إذن. إعادة الكشك لك ليست بالأمر الصعب، لكن لديّ شرط.

- ما هو؟

- أريد لسان زوجتك لبعض الوقت.

تفاجئه دناءة سون التي لا يرى لها آخر. عندما سمعه يتحدث عن لسان زوجته، استشاط غضبًا، التقط كوبًا من على الطاولة، حطمه على رأس سون الذي سقط على الأرض والدماء تسيل من رأسه. أصيب مينغ بالذعر معتقدًا أنه مات. لكن بشكل غير متوقع، نهض سون متجاهلاً نزيفه، قال لسيهاي:

- لا تدعه يهرب.

قبض سيهاي على مينغ، طرحه أرضًا، فك سون أزرار سرواله، أخرج قضيبه، شرع يتبول على وجه مينغ وهو يقول:

- زوجتك لم تزر قضيبي بعد، لذا سأريك إياه أولاً.

حاول مينغ التملص من يد سيهاي، وقال:

- سأفضحك وسط سوق الخضار ليعلم الجميع حقيقتك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لست بحاجة إلى ذلك، هيا يا سيهاي، اذهب واطبع ألف نسخة أخرى من هذا الإعلان الذي عليه صورة زوجته ثم وزعه على كل شخص يأتي إلى سوق الخضار.

- حسنًا.

عاد مينغ من سوق الخضار، لم تكن شياومنغ في المنزل، غسل وجهه أولاً، ثم أمسك بسكين من المطبخ وشحذها فوق الحجر. يريد حمل سكينه والذهاب إلى سوق الخضار لقتل سون. لو تم له ذلك بسلاسة سيقتل سيهاي أيضًا. فكر وهو يشحذ سكينه أن شيآن التي جاءها هربًا من يانجين أسوأ منها، وربما أسوأ من ووهان، سيئة لدرجة تدفعه إلى القتل لينتقم ممن يسعون لتشويه سمعته. مينغ في الأصل شخص جبان، لكنه الآن تعرّض للإهانة الشديدة التي لم تنتهِ بعد، ينوي سون وسيهاي نشر صورة زوجته والاستمرار في إهانتهما، وما من سبيل لوقف الإهانة إلا قتلهما، لكن الجريمة ستحوله شخصًا آخر.

هل لديه الجرأة لكافية؟ هل يشعر بالخوف؟ شعر أنه تحول إلى شخص آخر بالفعل. أخذ يفكر أثناء شحذ السكين إلى أين سيهرب بعد ذلك؟ فتحت زوجته الباب. سارع يُخفي السكين أسفل الخزانة. لاحظها تستند على إطار الباب مرتجفة، سألها:

- ماذا بكِ، هل تعدّى عليك سون ثانية؟

هزّت رأسها نافية.

- إذن ماذا بك؟

- عدت لتوّي من المستشفى.

- ما المشكلة؟

- ظننت أنني مريضة لشعوري بالغثيان منذ أسبوعين، لكن بعد إجراء الفحوصات تبين أنني حامل.

تسمّر مكانه مذهولاً بينما فتحت الخزانة، أخرجت منها حقيبة مكتظة بملابسها الشتوية؛ ثم أخرجت منها سترة قطنية، أخذت من جيبها بطاقتها المصرفية، قالت:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هناك مائة ألف يوان في هذه البطاقة، اذهب إلى البنك واسحبها، علينا مغادرة سوق الخضار هذا والبحث عن عمل آخر، لقد جمعت هذا المال من عملي في بكين. لم أجرؤ على إنفاقه، كما أنني لم أخبرك بأمره أيضًا لأن لديّ هاجسًا دائمًا أنني أعاني من مرض ما، لذلك احتفظت بالمال من أجل العلاج مستقبلاً. لكني الآن صرت حاملاً، ألا يعني هذا أنني لست مريضة؟

أكملت:

- في يانجين عندما أرادت شيانغ شيو اقتراض المال مني رفضت؛ ولو علمت بحدوث ما جرى بعد ذلك لأعطيتها.

أضافت:

- لنترك منطقة داوبي ونذهب إلى مكان آخر في شيآن، فلا أحد يعرف من نحن، كما أن شيآن أكبر من يانجين، وهذه ميزة كبرى، كما أن مغادرتنا هذا المكان ليست بسبب تعرضنا للإهانة فحسب، لكن بسبب الطفل الذي في بطني، لا أريده أن يعرف أبدًا ماضي أمه.

بعدما سمع مينغ ليانغ ما قالته زوجته، لم يخبرها بشيء مما حدث، فقط تراجع عن فكرة القتل، وقفز إلى خاطره طفله الساكن في بطن شياومنغ، إنه منقذه من التحول إلى قاتل، فتح الباب، ركض مسرعًا إلى مكتب البريد وهاتف زميل دراسته دونغ قوانغ شنغ في يانجين، طلب منه أن يخبر أباه العرّاف العجوز بحمل زوجته، وأنه يريد منه تسمية الطفل؛ رد زميله متحمسًا:

- هذا خبر رائع. لو كنت هنا الآن لجعلتك تدعوني لتناول الطعام.

- عندما تأتي إلى شيآن سأدعوك لتناول الخبز المحشو بلحم الضأن.

- أخبرني بتاريخ ميلاد الطفل.

- لم يولد بعد، فكيف لي معرفة تاريخ ميلاده؟

- عذرًا، لقد نسيت، سأطلب من والدي أن يختار له اسمًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في هذه الأثناء، تذكّر مينغ سون، فقال:

- هناك شيء آخر، أريد من أبيك أن يقرأ لي الطالع ليرى إمكانية إيجاد طريقة للانتقام من شخص حقير يُدعى سون أرهو، هو أيضًا من يانجين.

- ماذا فعل بك؟

- لقد تمادى في إهانتي أنا وزوجتي إلى أقصى حد.

- هل تعرف تاريخ ميلاده؟

- لا أعرف.

أكمل:

- نحن أعداء الآن، ولا يمكنني سؤاله عن ذلك، لكن زوج عمته اسمه تشوان شون ويقيم في الشارع الجنوبي في يانجين. يمكنك الاستفسار منه بشكل غير مباشر عن التاريخ.

- فكرة جيدة.

هاتفه زميله دونغ في اليوم التالي، أخبره أن أباه يقول إذا أنجبت زوجته صبيًا فليسمّه هونغتشي، وإذا أنجبت فتاة فليسمّها هونغيان؛ كلا الاسمين يعني الطموح؛ كما أنه قد علم تاريخ ميلاد سون هذا، وبعدما قرأ الطالع قال إنه عاش قطًا في حياته السابقة.

علّق مينغ:

- هذان الاسمان رائعان، لكن أخبرني كيف أنتقم من هذا القط؟

- عليك تربية ثعبان في منزلك، ثم تكتب اسم سون وتاريخ ميلاده على ورقة وتضعها في قفص الثعبان.

فهم مينغ مغزى حديث العرّاف العجوز، يريد أن يلدغ الثعبان القط؛ استمر يسأل:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أي نوع من الثعابين؟

- ثعبان كوبرا سام.

حصل مينغ على تاريخ ميلاد سون من زميله، فكّر أنه لن يستطيع تربية ثعبان في منزله. إنه لا يخشى الثعابين، لكن زوجته قد تصاب بالذعر عندما تراها، ولو قام بتربية كوبرا في المنزل فستكون النتيجة موت شياومنغ رعبًا قبل الانتقام من سون، ناهيك عن كونها حاملاً الآن، لذلك لم يربّ ثعبانًا في المنزل. بعد عدة سنوات فهم مينغ مغزى آخر لكلام العجوز، تربية الثعبان ليس المقصود منها الانتقام من سون فقط، إن ينغ تاو أم مينغ مثلت دور الأفعى البيضاء في مسرحيتها الشهيرة في الماضي، وربما قصد بذلك أن يجعل الأم تساعد الابن بوجودها جواره.

6

غادر الزوجان منطقة داوبي، استأجرا متجرًا في الضاحية الجنوبية لمدينة شيآن، إيجاره السنوي خمسون ألف يوان؛ على ألا تقل مدة الإيجار عن ثلاث سنوات، أي أن عليهما دفع مائة وخمسين ألف يوان كمقدم؛ بعد مداولات مع المالك اتفقا معه على دفع أجر عامين فقط. قرر مينغ العمل على طهي الكوارع في شيآن؛ تحدّث إلى شياومنغ قائلاً:

- لطالما شعرت أن طهو الكوارع عمل غير مفيد، لكن الآن اتضح أنه ملاذنا الأخير.

ابتسمت زوجته وقالت:

- ومن يمكنه توقع المستقبل؟!

سمّى مينغ المطعم باسم المارشال أيضًا تيمنًا بازدهاره كنظيره في يانجين. بالنظر من نافذة المطعم يمكن رؤية برج الإوز الطائر. لم يحتج مينغ لتجهيز مطعمه، فالمتجر كان مطعمًا في الماضي أيضًا، وما زال مجهزًا بالطاولات والكراسي والأواني ومعدات الطبخ، وهذا سبب اختياره له.

في يوم استلام المطعم نظّفا المكان من الداخل والخارج. وعندما خرج مينغ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لتنظيف زجاج النوافذ من الخارج، شاهد جروًا صغيرًا من فصيلة الكلاب البكيني يرقد بجوار الباب، ربما علم بحدسه أن مطعمًا سيفتح هنا فجاء يبحث عن شيء يأكله. قال مينغ:

- لم نفتح بعد، اذهب إلى مكان آخر.

بعد الانتهاء من التنظيف ركب مينغ دراجته ثلاثية العجلات متجهًا إلى سوق الخضار في الضاحية الجنوبية لشراء التوابل والزيت والملح والخل الكوارع والخضراوات وغيرها، فاكتشف أن ذلك الجرو ما زال يتبعه فقال:

- لماذا تتبعني؟ لو تبعتني ستضل طريقك ولن تتمكن من العودة إلى منزلك.

تسمّر الكلب مكانه. استمر مينغ يقود دراجته، ظل الكلب يتهادى خلفه. تعجّب مينغ وقال:

- هل أنت كلب ضال؟ أتريدني أن أؤويك؟

هزّ الكلب رأسه مسرورًا.

تذكّر مينغ شيئًا فقال:

- يمكنني إيواؤك، لكن هناك شرط واحد.

تطلع الكلب إليه.

- سيكون اسمك سون أرهو.

هزّ الكلب رأسه مسرورًا.

نزل مينغ من على الدراجة، ركل الكلب بقدمه وهو يقول:

- عليك اللعنة.

أطاح بالكلب بعيدًا، فانطلق هاربًا وهو يعوي. تطلّع نحوه وقال:

- لا أجرؤ على تربية الثعابين، لكن يمكنني ركل الكلاب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعدما انتهى من شراء مستلزمات الطعام، اكتشف أن ذلك الجرو ما زال يتبعه، توقف وقال:

- لا تتبعني يا سون وإلا سأضربك مجددًا.

رقد سون على الأرض يتطلع في حيرة ولم يتبع مينغ.

7

افتتح الزوجان المطعم، وضعا سبع أو ثماني طاولات داخل الصالة؛ وطبخا أكثر من مائة قطعة من الكوارع. مر يوم كامل دون أن يأتي زبون واحد. ظل الحال كما هو في اليوم التالي، في مساء اليوم الثالث نبح الكلب في الخارج، خرج مينغ فرأى رجلاً يقف يتطلع إلى اللوحة المكتوب عليها اسم المطعم، نظر مينغ إلى الرجل، اكتشف أنه قو تسيكاي ابن قو باوتشن الذي عمل في كنس الشوارع في يانجين. قو تسيكاي ومينغ تزاملا في المدرسة، وهو الآن طالب دراسات عليا في بكين. وقد عاد من بكين خصيصًا لحضور حفل زفافه، لم يتوقع الزوجان قدوم أحد لزيارتهما، وهما أيضًا لم يرغبا في ذلك بعد كل ما حل بهما، تقدم مينغ ولكم زميله بيده وهو يقول:

- كيف وصلت إلى هنا؟ لم أتوقع أبدًا أن تأتي!

- ذهبت إلى مدينة باوجي لزيارة أحد أساتذتي، وعندما مررت في طريق عودتي بمدينة شيآن جئت لزيارتك.

أكمل:

- احتجت الكثير من الوقت للعثور عليك، في البداية سألت معلمك الطاهي هوانغ، فدلني على فان يوتشي الذي علمت منه أنك فتحت مطعمًا هنا.

أضاف:

- لقد سمعت منه أنك عملت ببيع الخضار في داوبي في بداية قدومك إلى هنا، فلماذا عدت إلى مهنتك القديمة ثانية؟

- هذا أمر يطول شرحه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- وكيف حال عمل المطعم؟

- افتتحنا المطعم منذ ثلاثة أيام، ولكنك أول زبون.

بدت شياومنغ سعيدة أيضًا لرؤية قو تسيكاي، طهت بعض الأطباق الجانبية سريعًا، وأحضرت طبقًا من الكوارع الساخنة، وقالت:

- ليس من السهل أن تتقابلا بعد هذا الغياب الطويل، هيا تناولا الطعام وبعض الشراب.

- مرت عدة سنوات بالفعل، سار كل منا في طريق مختلف، لذلك علينا أن نشرب.

فرك قو تسيكاي يديه وقال:

- عندما تقابل صديقًا قديمًا في بلد غريب عليك أن تشرب.

بينما هما يشربان، أخبر صديقه بحصوله على الماجستير، وأنه بصدد الذهاب للمملكة المتحدة قريبًا لاستكمال دراسته. وذلك المعلم الذي ذهب لزيارته في مدينة باوجي هو مشرفه في الماجستير، وهو أيضًا الذي رشحه لاستكمال دراسته بالخارج. أصول ذلك المعلم تعود إلى مقاطعة شانسي، وبعد تقاعده هذا العام انتقل من بكين إلى مدينة باوجي، أمنيته الدائمة تمثلت في العودة إلى جذوره. قال مينغ وهو يرفع كأسه:

- علينا أن نشرب كأسًا آخر، أنت الأكثر تفوقًا من بين زملائنا في الفصل بداية من المرحلة الابتدائية حتى الإعدادية، وستذهب للدراسة في المملكة المتحدة.

- لا داعي لهذه المجاملات، إن التفوق من عدمه لا يتعلق بالفرد نفسه أحيانًا، بل بالظروف المتوافرة في ذلك الوقت.

- ماذا تقصد؟

- كنت متفوقًا أكثر مني أثناء دراستنا الإعدادية، وظهر نبوغك في مادة الفيزياء، لكنك للأسف تركت الدراسة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخرج من حقيبته كتابًا قديمًا مهترئًا بدون غلاف وأكمل:

- هذا كتاب الفيزياء الخاص بك، انظر إلى ما كتبت به.

أخذ مينغ الكتاب، نظر إلى العبارة التي كتبها وسط المساحة الفارغة للتدريبات: «أعيش في يانجين، لكني أتطلع نحو العالم». كتب أيضًا في مساحة فارغة أخرى: «لننطلق من مدرسة يانجين الإعدادية إلى أكسفورد وهارفارد»، نسي مينغ الكلمات التي خطها بيده، وذكّره قو تسيكاي بها.

- انظر كم كنت طموحًا في ذلك الوقت، بعدما تركت المدرسة لاحقًا، تركت لي جميع كتبك، هل تذكر لقبك في ذلك الوقت؟ أطلقنا عليك «نيوتن»، لو واصلت تعليمك لكنت تدرس في الخارج الآن.

- دعك من هذا الحديث، أنا الآن لست سوى بائع كوارع.

- لا تقلل من نفسك، يمكنك أن تصبح الأفضل في مهنتك، هل تعرف لماذا أصبحنا صديقين في فترة الدراسة؟

- لماذا؟

- هل تذكر ما قلته لي عندما أخبرتك عن نظرة الناس لي بازدراء عندما يعلمون بعمل أبي الكناس، بالإضافة لما يُعرف عنه كمقامر؟

أكمل:

- قلت لي مهما بدا لك من سوء وضع أبيك، فأنت أفضل مني. ليس لديّ أب في يانجين.

لو لم يقُل قو تسيكاي هذا الكلام لما تذكّره مينغ؛ سأل نفسه عن تعريف الصديق. عندما جاءه أحضر معه الكتب التي تركها له في ذلك الوقت. خلال حديثهما لم يسأله أبدًا عن سبب مغادرة يانجين، من المستحيل ألا يكون قد علم بالأمر قبل قدومه، فقد انتشر بشدة؛ لكنه لم يذكره إطلاقًا خلال لقائهما، هذا هو تعريف الصديق. استمرا يتحدثان ويشربان، وكلما شربا انخرطا في الحديث، وبينما هما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتحدثان نبح كلب في الخارج. شعر مينغ بالانزعاج، خرج يستطلع الأمر، شاهد الكلب سون مرة أخرى؛ أمسك بعصا موضوعة عند زاوية الجدار وهوى بها فوق جسد الكلب الذي ركض بعيدًا وهو يعوي. وعندما رفع رأسه يتطلع للأعلى رأى القمر يتوسط السماء.

في تلك الليلة ثمل مينغ وقو تسيكاي وسط صالة المطعم الفارغة لدرجة أنست مينغ موعد رحيل صديقه إلى الفندق الذي يسكنه.

في صباح اليوم التالي، أثناء فتح مينغ باب المطعم، وجد الكلب سون لا يزال راقدًا أمام الباب. ركله بقدمه، فركض مجددًا. ظهرًا نبح الكلب من جديد، وعندما خرج مينغ ليطرده كالعادة رأى بعض الزبائن يتطلعون إلى اللافتة المكتوب عليها «مطعم المارشال» فسارع يقول:

- هذه علامة تجارية عريقة، تفضلوا وتذوقوا. طعامنا شهي ورخيص، لو لم يعجبكم فلن نأخذ مالاً.

دخل عدة زبائن إلى المطعم. ومع دخول الدفعة الأولى من الزبائن مرت مجموعة أخرى من أمامه، شاهدوا أشخاصًا يأكلون في الداخل، فدخلوا أيضًا. بحلول وقت العشاء نبح الكلب خارج الباب ثانية، وعندما خرج مينغ شاهد زبونًا آخر يتطلع إلى المطعم، فتقدم وكرر جملته داعيًا الرجل إلى المطعم.

زاد عدد الزبائن وقت العشاء بنسبة الثلث عن وقت الظهيرة. وعندما حل موعد الإغلاق ليلاً وجد الكلب لا يزال راقدًا أمام الباب فقال:

- يبدو أنك السبب في قدوم الزبائن.

تذكّر قصة ذي الجلد الأصفر والبقرة التي حكتها له جدته في طفولته، فبدا وكأنه فطن إلى شيء، فقال:

- يمكنك البقاء هنا إذا كنت ترغب في ذلك، ولن أضربك بعد اليوم.

بدا الكلب على وشك البكاء، بسببه بدأ يشعر بالألفة تجاه مدينة شيآن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد عشرين عامًا أخرى

1

في أحد أيام شهر مارس من ذلك العام، تلقّى مينغ على هاتفه المحمول الرسالة النصية التالية:

إلى السيد مينغ ليانغ: لقد كنا أخًا وأختًا في طفولتنا، لكن التواصل بيننا انقطع. الوقت يمر كالبرق، مرّ أكثر من أربعين عامًا في لمح البصر. أكتب إليك اليوم لا لسبب سوى أن والدك وزوج أمي تشن تشانغ جيه يرقد مريضًا طريح الفراش منذ النصف الثاني من العام الماضي، ومع بداية هذا العام صار يعاني من قصور في القلب والرئة، تعيّن عليه المكوث في المستشفى. لقد عاش هو وأمي معًا لأكثر من 40 عامًا، لم ينجبا، ليس لديهما أقارب سوانا، منذ الشهر الماضي صار يردد اسمك كثيرًا في أحلامه. بعد قراءتك هذه الرسالة أرجو أن تتمكن من القدوم إلى ووهان للقائه حتى لا تندم لو أصابه مكروه. لقد حصلت على رقم هاتفك من العم يانشنغ المقيم في يانجين، لذلك أرجو ألا تستغرب رسالتي المفاجئة. أتمنى لك كل التوفيق. أختك ويوي.

وصلته الرسالة بينما كان يجرب تناول الكوارع في الفرع الخامس لمطعم المارشال في شيآن. على مدار السنوات العشرين الماضية افتتح خمسة فروع. جميعها صغير الحجم كما هو الحال بالنسبة للفرع الرئيسي الواقع بالقرب من برج الإوز البري في الضاحية الجنوبية، حيث لا يتسع الفرع الواحد منها لأكثر من عشر طاولات. نصحه البعض بالتوسع أكثر نظرًا لإقبال الناس على تناول الكوارع الشهية التي يقدمها مطعمه، لكنه لم يوافق، قال لزوجته:

- علينا أن نعرف قدراتنا، نحن غير متعلمين، وكلما صغر الفرع أصبح من السهل إدارته؛ أما لو توسعنا في الحجم فسنعاني في إدارته.

- عندك حق، كلانا على مشارف الخمسين، لا داعي لأن نكلف أنفسنا ما لا نطيق.

- على الشخص أن يتحلى بالقناعة، يكفي أن نملك قوت يومنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحيانًا يفكر أنه اعتمد على المائة ألف يوان التي أعطتها له شياومنغ، وهذا المال هو حصيلة ما جمعته زوجته من عملها في بكين بالدعارة؛ إذن فالأموال قذرة في الأساس. لم يقدر على إخبار أحد بأفكاره، ولا حتى شياومنغ. أحيانًا يذهب إلى المطبخ، يراقب العمال وهم يغسلون الكوارع، أثناء نقلها من المسلخ تكون قذرة، مغطاة بالطين والشعر؛ لكن بعدما يشطفها العمال بمياه الصنبور، ويزيلون شعرها، ثم يشطفونها، تصبح نظيفة لامعة، وبالقياس على بقية الأشياء يمكن الوصول إلى المعنى نفسه، فلولا القذارة لن نصل إلى النظافة، تنهد مينغ، كتم أفكاره داخله، لم يشاركها مع أحد، بمرور الوقت صار يتجاهل الأمر.

افتتح الفرع الخامس في منطقة باتشياو، وعين مابيت ابن شقيق زوجته مديرًا للفرع. جاء من يانجين العام قبل الماضي للعمل معهم. عندما وصل كان اسمه ماتشي، لكنه غيّر اسمه منذ العام الماضي إلى مابيت. علاقة زوجته بأقاربها ومعارفها مقطوعة منذ ما حدث في يانجين قبل عشرين عامًا، الآن نسي الجميع الماضي وعادوا للتواصل معها، بعد أن صارت شياومنغ على مشارف الخمسين ولديها ابن يبلغ تسعة عشر عامًا. عندما جاء ماتشي إلى شيآن، عمل كنادل في الفرع الثاني، بعدها عمل كرئيس وردية، ومع افتتاح الفرع الخامس، حاول بشتى الطرق أن يصبح مديرًا للفرع. حينها توسطت له شياومنغ وقالت:

- لماذا لا تدعه يحاول؟

- يعجبني طموحه، سأجربه، إنها مجرد وظيفة مدير فرع، وليست مسؤولية تولي وزارة. ولو نجح سأعتمد عليه، أما إذا فشل فسيعود لعمله السابق كرئيس وردية.

في كل مرة يُفتتح فرع جديد يتذوق مينغ بنفسه أول طبق من الكوارع، من خلال قضمة واحدة يمكنه معرفة درجة نضجها وقوة طعمها. وعندما وطئت قدماه الفرع الخامس وجد العمال استبدلوا ملابس العمل بأخرى جديدة جعلتهم أشبه بمضيفي الطيران، كما شاهد العديد من الشعارات الملونة على جدران الفرع:

الفرع الخامس لمطاعمنا، عدد الكوارع التي قدمناها يزيد عن 10 ملايين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المارشال أصل الكوارع.

هل شاهدت البقر يركض؛ لماذا يركض؟ ستعرف عندما تتناول الكوارع.

غنية بالكولاجين، للصحة والجمال.

يقال إن يانغ قويفي، محظية الإمبراطور الجميلة، داومت على أكل الكوارع كل يوم.

ضحك مينغ عندما شاهد زي العمال وقال:

- ماتشي، أليس هذا مبالغًا فيه؟ نحن لسنا سوى مطعم لبيع الكوارع.

لو أن أي شخص آخر ناداه بهذا الاسم لغضب ولم يجب، لكن مينغ الاستثناء الوحيد، أما العمال فينادونه بمدير الفرع، أو على الأقل ينادونه بمابيت؛ في المقابل لم ينادِ مابيت مينغ أمام الآخرين بزوج عمته، بل بالسيد مينغ ليانغ، رد قائلاً:

- يا سيد مينغ ليانغ، ليست مبالغة، لكنها ريادة وابتكار.

- وكيف عرفت أن يانغ قويفي محظية الإمبراطور أكلت الكوارع كل يوم؟

- لذلك كتبت «يقال إن».

جلس مينغ على الطاولة، فأحضر مابيت طبقًا من الكوارع التي طُبخت للتو. قبل أن يأكل غرس عيدان الطعام في الكوارع لمعرفة درجة نضجها؛ تمزقت الكوارع إلى ثماني قطع بواسطة العيدان نفسها، قلبها مرارًا وتكرارًا. لم يأكل منها، بل قال:

- أحضر طبقًا آخر.

رد مابيت حائرًا:

- سيد مينغ ليانغ، ماذا تقصد؟

- افعل ما طلبته منك.

ليس لدى مابيت أي خيار سوى إحضار طبق آخر، فعل، كرر مينغ ما قام به مع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطبق الأول، أيضًا لم يأكل، بل قال:

- أحضر طبقًا آخر.

جاء مابيت مرتابًا يحمل طبقًا ثالثًا من الكوارع، ففعل مينغ الشيء نفسه، ثم رمى عيدان الطعام على المنضدة وتطلع إلى مابيت الذي قال:

- ألم تنضج جيدًا؟

- بالعكس، نضجها ممتاز.

- واللون؟

- جيد أيضًا.

- إذن لماذا لم تأكلها؟

التقط مينغ عيدان الطعام، قلب الكوارع، أشار إليها وقال:

- انظر، هذه القطع الثلاث لا يزال بها بعض الشعر.

استطرد:

- لو تعلقت المشكلة بواحدة منها فقط فهي صدفة، ولكن القطع الثلاث كلها بهذا الشكل، وهذا يثبت أن جميع الكوارع لم تنظّف جيدًا.

أضاف:

- ما فائدة كونها مطهوة جيدًا أو لونها مطابق وهي غير نظيفة كما ينبغي؟ وما فائدة هذا اللباس وهذه الشعارات أيضًا؟ تخلصوا من كل الكوارع التي طُهيت اليوم، واطبخوا قِدرًا جديدًا، سنعيد افتتاح هذا الفرع غدًا.

احمرّ وجه مابيت خجلاً، وبّخ العاملين في المطبخ قائلاً:

- اللعنة على أمهاتكم، من الذي نظّف الكوارع؟ اطردوه من هنا.

التفت إلى مينغ، وقال بصوت خفيض:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- التخلص من مئات القطع من الكوارع خسارة كبيرة، كما أنني قد دعوت العديد من الأصدقاء لحضور حفل الافتتاح اليوم.

- من الأفضل ألا يأتي أصدقاؤك. فلو جاؤوا وتناولوا شعر هذه الكوارع فمن سيكون الخاسر؟

أكمل ضاربًا بيده على الطاولة:

- الخاسر ليس أنت، بل سمعة مطاعم المارشال، هل تعتقد أنك مؤهل لتكون مدير فرع؟

- أعدك أن هذا لن يتكرر ثانية في المستقبل.

- الكلام لا يُجدي. من اليوم فصاعدًا ستذهب إلى المطبخ لتنظيف شعر الكوارع. وعندما تنجح في تنظيفها جيدًا ستعود لعملك مديرًا للفرع، أنا أيضًا عملت في إزالة شعر الكوارع لمدة عام كامل في مطعم المارشال في يانجين.

عبس وجه مابيت. في تلك الأثناء رن جرس هاتف مينغ بالنغمة المخصصة لاستلام الرسائل النصية. وجد رسالة ويوي. قرأ الكلمات التي استخدمتها في الرسالة النصية، أدرك أنها حظيت بتعليم أفضل منه.

بحلول المساء، عاد مينغ إلى المنزل لتناول العشاء، أخبر زوجته بما حدث، فقالت:

- لقد هاتفني مابيت بالفعل وهو يبكي.

- قبل ذهابه إلى هناك، أوصيته بتأدية عمله على أكمل وجه، وحذرته من الإهمال، لكنه لم يأخذ كلامي على محمل الجد، فطلبت منه الذهاب للعمل في تنظيف الكوارع.

- تلقينه هذا الدرس أمر جيد، لقد أخبرني خلال مكالمته أنك تتحامل عليه، وتتصيد له الأخطاء، وتجعل من الحبة قبة.

- الكوارع مليئة بالشعر، أليست تلك مشكلة كبيرة؟ والمشكلة الأكبر أنه شخص

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متسرع، ولا بد لي من اختبار صبره.

أضاف:

- لا تخبريه بما قلته، فلو فهم ما أقصده لتراخى في عمله، ولما أخذ كلامي على محمل الجد، لنجعله يعمل في تنظيف الكوارع مؤقتًا.

- لا تقلق، أنا لست غبية.

أخرج مينغ هاتفه المحمول، وأطلع زوجته على رسالة ويوي النصية، قالت:

- هذا لا يحتمل التأخير. رغم أننا لم نتواصل معه منذ أكثر من أربعين عامًا، فإنه أبوك مهما حدث، ويتوجب الذهاب لزيارته بما أنه مريض الآن.

- أفكر في فعل ذلك.

- سأذهب معك.

- أحب رفقتك، لكن هناك الكثير من الأعمال التي تتطلب وجود أحدنا هنا، لو غادرنا معًا فمن سيرعى مصالحنا.

- اذهب أنت إذن، وانتبه لسلامتك.

- عليكِ متابعة الفرع الجديد جيدًا، وعندما أعود سنقرر الشخص المناسب ليكون مدير الفرع.

- فهمت.

2

ذهب مينغ إلى ووهان بالقطار. أخبرته ويوي في الهاتف أنها قلقة من كونه لم يعد يعرف ووهان جيدًا، لذلك ستذهب إلى المحطة لاصطحابه؛ لكنهما لم يلتقيا منذ أكثر من أربعين عامًا، لذلك ستحمل لافتة عليها اسمه. نزل مينغ من القطار، خرج من البوابة، رأى وسط الحشود لوحة مكتوبًا عليها «مينغ ليانغ»، تحملها امرأة في منتصف العمر، سمينة قليلاً، ترتدي نظارة ذات إطار أسود. وضعت ويوي اللافتة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جانبًا، ثم غادرا المحطة معًا. وبينما هما يسيران قالت ويوي:

- لم نتقابل منذ أكثر من أربعين عامًا. هناك شيء نحتاج إلى مناقشته أولاً.

- ماذا؟

- كيف ينادي كل منا الآخر؟

- بالنسبة لي لا توجد مشكلة، الأمر متروك لك.

- في صغرنا، لم ننادِ بعضنا بالأخ والأخت مطلقًا، وقد مرت أكثر من أربعين عامًا، وصرنا كبارًا في السن، أليس من المحرج أن ننادي بعضنا ثانية هكذا فجأة؟

- نعم هذا محرج.

- ولو نادى كل منا الآخر وقال أنتَ وأنتِ سيكون هذا قلة احترام.

- ما رأيك أن ينادي كل منا الآخر باسمه مباشرة.

- أنت أكبر مني، يمكنك مناداتي باسمي، لكن مناداتك باسمك لا تليق.

- وما العمل إذن؟

- ما اسم طفلك؟

- لديّ ابن اسمه هونغتشي.

- وأنا لديّ ابنة اسمها تشن سي. ما رأيك أن أناديك أبو هونغتشي، وتناديني أم تشن سي؟

ابتسم مينغ وقال:

- أم تشن سي، أنتِ أذكى مني.

- لو أن هذا صحيح فلماذا أعمل موظفة صغيرة بينما أنت رجل أعمال كبير؟ لقد سألت العم يانشنغ عن أحوالك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ومن قال إنني رجل أعمال، أنا لست سوى بائع كوارع.

- هناك أيضًا من لديه مطاعم للزلابية، لكنها في النهاية تعد شركة مدرجة في البورصة.

سألها مينغ عن عملها في ووهان، قالت إنها تعمل محاسبة في الإدارة المالية بمستودع ووهان للقاطرات. وأخبرته أيضًا أن خال أمها سهّل لها الحصول على هذه الوظيفة قبل وفاته منذ أكثر من عشرين عامًا. لم يطرح أسئلة أخرى. ركب الاثنان سيارة الأجرة، طلبت ويوي من السائق التوجه إلى مستشفى مستودع ووهان للقاطرات. عندما نظر من نافذة السيارة رأى شوارع ووهان والمباني ذات الارتفاعات المختلفة، شعر بالمدينة غريبة عنه، مغايرة عما كانت عليه قبل أكثر من أربعين عامًا. في الواقع لم يكن لدى مينغ أي فكرة عن شكل هذه الأماكن منذ أكثر من أربعين عامًا، وما هي التغييرات التي طرأت عليها على مدار السنوات لأنه لم يزر هذه الأماكن من الأساس. الثلاث سنوات التي قضاها في ووهان انحصرت في عنبر مستودع القاطرات.

على سبيل المثال، عندما كان في الصف الأول الابتدائي، علمهم معلم اللغة الصينية كيفية كتابة كلمة ثلج، طلب المعلم منهم أن يرددوا خلفه: ثلج، ثلوج كثيفة، رياح وثلوج. ولأنه نادرًا ما تتساقط الثلوج في ووهان في فصل الشتاء، وحتى عندما تتساقط تكون بكميات صغيرة، سأل التلاميذ المعلم: وما هي الثلوج الكثيفة؟ أجاب المعلم: إنها الثلوج المكونة من التساقط بغزارة. وما نتعلمه الآن الكلمات الجديدة فقط، لذلك التزموا بالترديد خلفي بلا أسئلة. ولأن مينغ قادم من يانجين، حيث يتساقط الثلج بغزارة في فصل الشتاء، عندما قرأ كلمة ثلوج كثيفة، سمع صوت تساقطها في شوارع مدينته القديمة؛ تذكّر أيضًا الثلوج التي ظلت تتساقط لمدة ثلاثة أيام، وعندما صفت السماء في الصباح وضعته الجدة وكعك العناب على عربة اليد، ثم دفعت العربة متوجهة للتقاطع، بينما تسير في الطريق، انزلقت العربة، انقلبت، تناثر الكعك على الأرض، سقط مينغ أيضًا على الأرض المكسوة بالثلوج. لم تهتم الجدة بجمع الكعك، بل وقفت ومينغ يضحكان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مرت سيارة الأجرة عبر جسر نهر اليانجتسي، جاءه مينغ منذ أكثر من أربعين عامًا، لكن النهر والجسر صارا مختلفين تمامًا الآن. قالت ويوي إن الجسر الذي مرا به هو الجسر الثالث على نهر اليانجتسي؛ ثم أشارت إلى عدة جسور تظهر من بعيد وقالت: هذا هو الجسر الثاني، وهذا هو الجسر الأول؛ في صغرنا لم يكن هناك سوى ذلك الجسر الأول.

بعد وصولهما إلى المستشفى أخذته إلى إحدى الغرف بالطابق الخامس. تحوي الغرفة خمسة أسرّة، جميعها مشغولة بالمرضى. على أحدها يرقد رجل مسن وجهه ممتلئ بالبقع السوداء، يرتدي سترة قطنية ويشرب الماء. لو رآه في أي مكان آخر صدفة لن يعرفه على الإطلاق، هذه ليست هيئة أبيه التي رُسمت في مخيلته. رأى الرجل العجوز مينغ، لم يعرفه أيضًا، لم يتكلم إلا بعد أن أخبرته ويوي.

قال تشن تشانغ جيه:

- لماذا أنت هنا؟ من الذي طلب منك القدوم؟

تدخلت ويوي:

- أبي، أنا من طلبت منه أن يأتي.

أخذت العجوز الواقفة جوار سرير تشن تشانغ جيه تتطلع إلى مينغ الذي استطاع التعرف عليها، إنها تشين جياينغ زوجة أبيه. ما زالت نحيفة لم تتغير. بادر مينغ بالتحدث إليها:

- أمي.

- لقد مضت أكثر من أربعين عامًا.

- صحيح، أكاد أصبح كهلاً أيضًا.

- في ذلك العام الذي هربت فيه دون مقدمات كدنا نموت من فرط القلق عليك.

- تصرفت بطيش وقتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تدخلت ويوي مجددًا:

- لا داعي للحديث عن الماضي.

- كيف مرض والدي؟

- لقد تقدم بي السن يا بني.

قالت زوجة أبيه:

- ليس بسبب تقدمك في السن، إنه الغضب.

سأل مينغ:

- الغضب ممن؟

رد أبوه قبل أن تجيب الزوجة:

- لا داعي للحديث عن هذه الأمور، فمينغ قد وصل لتوه.

أغلقت تشين جياينغ فمها ولم تنطق.

في تلك الأثناء، صاح أحدهم خارج الغرفة قائلاً:

- العشاء جاهز، على المرضى الخروج لغرف طعامهم.

أمسكت زوجة أبيه بالطبق من على طاولة السرير، ثم التفتت إلى مينغ قائلة:

- سأغرف المزيد، يمكنك تناول الطعام هنا أيضًا.

- لا توجد مشكلة.

اقترحت ويوي:

- سأدعوه لتناول الطعام في الخارج.

وافقت زوجة أبيه وخرجت من الغرفة حاملة الطبق.

دخلت الممرضة وقالت:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أسرة المريض صاحب السرير خمسة وثلاثين، حان وقت تجديد الرسوم، يُرجى الذهاب إلى الطابق الأول للدفع.

نظرت ويوي إلى مينغ وقالت:

- إنها تقصدنا، انتظرني هنا.

أمسكت ويوي بحقيبتها المعلقة بجانب السرير، ذهبت لدفع الرسوم. خرج مينغ خلف الممرضة وسألها بصوت خفيض:

- كم تبلغ رسوم السرير خمسة وثلاثين؟

- أكثر من مائة وثمانين ألف يوان.

عادت تشين جياينغ بعد جلب الطعام وجلست جوار زوجها لتطعمه، ورجعت ويوي بعد دفع الفاتورة واصطحبت مينغ لتناول الطعام. سألته وهما يسيران عما يريد أكله.

أجاب متذكرًا طعامه المفضل في ووهان:

- المعكرونة الجافة الساخنة وسمك ووتشانغ.

- هذان الصنفان لا يباعان في نفس المطعم.

- إذن أختار المعكرونة.

وصلا إلى المطعم الذي علق عند مدخله لوحة أفقية مكتوبًا عليها «الأفضل في المنطقة»، وعلى جانبي الباب لوحتان رأسيتان مكتوب على إحداهما «طباخ ماهر أفضل من تاجر خاسر»، أما الأخرى فكُتب عليها «طبخ المعكرونة أفضل من طبخ أي شيء». سألته:

- هل تتذكر المكان؟ جئنا كلنا مرة لتناول الطعام هنا في عيد منتصف الخريف.

نظر مينغ إلى المطعم، لم يتذكر؛ حاول استرجاع الماضي، تلك اللوحات المعلقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على إطار الباب، يظن أنه رآها سابقًا لكنه حينها لم يعرف الكثير من كلماتها، تذكّر أن والده أشار إلى تلك اللوحات وقرأ له ما لم يعرفه؛ لكن هناك العديد من المطاعم التي تحتوي على لوحات مشابهة، لذلك لم يتأكد إذا ما رجعت ذكرياته لهذا المطعم أم لآخر.

بالحديث عن الأشياء التي تناولها في ذلك الوقت، تذكّر أنه بعد انتهاء الدراسة في ظهر أحد الأيام، جاء أبوه واصطحبه من أمام بوابة المدرسة مرتديًا ملابس العمل التي يرتديها على متن القطار؛ في العادة لطالما رجع وحده إلى البيت حاملاً حقيبته المدرسية، اصطحبه والده في اتجاه معاكس بدلاً من الذهاب إلى زقاق شين إي، لاحظ مينغ ذلك وقال:

- هذا ليس الطريق إلى المنزل.

لم يرد، فقط أمسك بيده وسار إلى الأمام. بعد اجتياز بضعة أزقة وصلا إلى ضفة نهر اليانجتسي، جلسا، أخرج أبوه من حقيبته دجاجة مشوية، قسمها إلى نصفين، أعطاه نصفها وقال:

- كُل، مررت بالسوق في طريق عودتي فاشتريتها.

ثم أوصاه قائلاً:

- لا تُخبر أحدًا بهذا الأمر بعد عودتك إلى المنزل.

هز مينغ رأسه موافقًا، انهمكا في الأكل، انتهيا دون أن ينطق أحد منهما بكلمة واحدة.

دخلا إلى مطعم المعكرونة، ولأنه كان وقت الغداء كان المطعم ممتلئًا؛ أخرجت ويوي كيسًا بلاستيكيًا به بعض الفكة من جيبها؛ طلبت من مينغ العثور على طاولة ليجلس عليها أولاً، اتجهت لطاولة البيع وطلبت الطعام، بعد قليل عادت تحمل صينية عليها طبقان من المعكرونة الجافة الساخنة، وطبق من اللحم البقري، وآخر من الكرفس المخلوط بالفول السوداني، قال مينغ وهما يأكلان:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- قالت أمك في المستشفى قبل قليل إن أبي مرض بسبب الغضب، اشرحي لي.

- أبوك شخص مسالم طيلة حياته، ظل يعمل على متن القطارات، وعندما تقاعد قبل بضع سنوات خطرت بباله فكرة. رغب في الثراء فتشارك مع صديق عجوز يُدعى شينغ، هو أيضًا وقاد متقاعد، نجح في إقناعه بمشاركته في ممارسة بعض الأعمال التجارية، أعطاه أبوك مدخراته التي بلغت أكثر من نصف مليون يوان؛ افتتحا مطعمًا لبيع المعكرونة الجافة الساخنة، ثم افتتحا مغسلة سيارات، وورشة لصناعة الأبواب الحديدية، ومتجرًا للأسماك، كلما افتتحا مشروعًا خسرا أموالهما، بعدها يغيران نشاطهما، ولم يتبقَّ في النهاية سوى خمسين ألفًا، استولى عليها شينغ.

- وأين شينغ هذا؟

- لم نتمكن من العثور عليه، إن خسارة المال ليست السبب الرئيسي لمرضه، لكن السبب الأهم أن صديقه خدعه واستولى على المبلغ القليل الذي يُعتبر آخر ما يملك.

أضافت:

- وكما تعلم، أبوك سريع الغضب.

هز مينغ رأسه متفهمًا. في الوقت نفسه، رأى ويوي تمسك بعيدان الطعام في يدها اليمنى، وتحمل كيسًا بلاستيكيًا يحوي بعض الفكة في يدها اليسرى، فقال:

- يا أم تشين سي، أريد أن أحدثك في أمر ما.

- ماذا؟

- مصاريف العلاج.

- ماذا تقصد؟

- من الآن فصاعدًا، سأتكفل بنفقات علاج أبي بغضّ النظر عن مدة بقائه في المستشفى.

- يا أبو هونغتشي، لم أطلب منك المجيء إلى هنا لهذا السبب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لديّ مطعم في مدينة شيآن، رغم كونه مشروعًا تجاريًا صغيرًا، فإنه يحقق لي دخلاً شهريًا، وبإمكاني تحمُّل نفقات العلاج؛ لو لم أقدر على تحمل تكاليف العلاج ما أتيت إلى هنا.

- لا أخفيك سرًا، زوجي عاطل بلا العمل، ولا يفعل أي شيء طوال اليوم سوى التسكع أمام محل البقالة المجاور، قلت له: أنت تتسكع أمام محل البقالة طيلة اليوم، وصاحب البقالة مستمر في بيع بضاعته طوال اليوم، فما الفائدة التي تعود عليك من هذا التسكع؟ لدرجة أنني أشعر بالحرج من استدعائه لمقابلتك. وأنا لست سوى موظفة صغيرة، أمي عاملة في مصنع الخزف، وأبي عمل في السكك الحديدية طوال حياته، والجزء الأكبر من نفقات العلاج لا يمكن تسويته؛ لذلك فالأسرة غير قادرة على تحمل تلك النفقات، كما أننا لا نجرؤ على إخبار أبينا بهذه الأمور.

أضافت:

- ما رأيك أن نتقاسم تحمُّل نفقات العلاج؟

- يا أم تشن سي، أنا شخص صريح ولا أحب الالتفاف. لو أن تحملي للنفقات كاملة سيجعلك تشعرين بالحرج فأنا موافق على تقاسمها بيني وبينك؛ ولو لم يكن هذا هو السبب الرئيسي فلا تجادليني في الأمر.

- ما رأيك أن تساهم بالثلثين، وأساهم بالثلث، فهو من قام بتربيتي منذ طفولتي أيضًا.

- كما تشائين.

- هناك أمر آخر، هل تريد المبيت في منزلنا الليلة؟ لقد جهزت لك أمي السرير بالفعل بعدما علمت بقدومك.

- أما زالا يعيشان في المنزل نفسه؟

- نعم، وقد قالت أمي إنه يمكنك المبيت في الغرفة التي عشنا فيها أنا وأنت في صغرنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أفضّل المكوث في فندق قريب من المستشفى.

- حسنًا.

- عودي أنت وأمك إلى البيت لتستريحا الليلة، وسأبقى أنا في المستشفى.

في تلك الليلة عادت تشين جياينغ وويوي إلى المنزل، وبقي مينغ في المستشفى. في الغرفة خمسة مرضى، بحلول الليل تأتي الممرضات لإعطاء الأدوية للمرضى أو تعليق زجاجات المحاليل؛ بعد مغادرتهن يعتني أفراد أسر المرضى بمرضاهم، يأخذونهم إلى الحمام، يساعدونهم في الاغتسال. اصطحب مينغ أباه إلى المرحاض، ساعده في الاغتسال. ونظرًا لأن الأب يعاني من قصور في القلب والرئة، فهو يتنفس بصعوبة أثناء المشي؛ بعدما عاد إلى الفراش، تحدّث إلى ابنه لاهثًا:

- أنا بخير، عليك الذهاب إلى المنزل لتستريح.

لم يعلم أن ابنه قد حجز غرفة في فندق قريب. وقد أصر مينغ ليانغ على ذلك لأن أمه ينغ تاو قد جاءته إلى هذا المنزل قبل أكثر من أربعين عامًا؛ بعدها رأى صورتها مثبتة بمسامير فولاذية على شاهد خشبي داخل كوخ، وجسدها مثخن بالجروح؛ لذلك لم يرغب في العودة إلى هذا المكان أبدًا. لكن هذا أمر ليس بوسعه شرحه لأبيه؛ لذلك قال:

- أبي، نم أنت ولا تقلق بشأني، لقد جئت من بعيد، دعني أرافقك لبعض الوقت.

توقف الأب عن الإلحاح.

في الصباح عندما رأى مينغ الشمس مشرقة خارج النافذة قبل الظهيرة، سأل الممرضة إذا كان بإمكانه مساعدة أبيه على النزول للاستمتاع بأشعة الشمس. أخبرته أن ذلك مفيد له بشرط ألا يتعرض للفحات الهواء. طمأنها مينغ، ساعد أباه على النزول إلى الحديقة الصغيرة في باحة المستشفى، جلسا، ليس غرض مينغ الأساسي جعل أبيه يستمتع بأشعة الشمس بقدر رغبته في مكان منعزل يمكن لهما التحدث فيه، لكنهما عندما جلسا بمفردهما، لم يعرفا ماذا يقولان، فبقيا صامتين حتى سأله أبوه:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل أخبرتك بخسارتي في الأعمال التجارية؟

أومأ مينغ ليانغ برأسه.

- علمت أنهما ستخبرانك، لكن لا مشكلة في ذلك، لم أعد أشعر بالحرج من هذا الأمر.

تنهّد وأكمل:

- لا يمكنني إلقاء اللوم على الآخرين فيما حدث، إنه خطئي، لقد عشت فقيرًا طيلة حياتي. عملت وقادًا، وسائق قطار، اشتغلت لساعات إضافية قدر المستطاع، مثل الحمار الذي يدور في الطاحونة، رأيتني كبرت في السن وما زلت فقيرًا، لم أتقبل ذلك، فكرت في مشروع لكسب المال، وفي النهاية وصل بي الحال إلى ما أنا عليه الآن، لم أكتفِ بفشلي فقط، بل جعلت من نفسي مزحة.

- لا تقُل مثل هذا الكلام.

- أعلم أنهما طلبتا منك دفع نفقات العلاج. نحن لم نتقابل منذ أكثر من أربعين عامًا، وعندما نتقابل تنفق مالك من أجلي.

- لقد قضيت عشر سنوات تنفق عليّ دون علم زوجتك منذ كنت في السادسة إلى أن بلغت السادسة عشرة؛ لنعتبر هذا سدادًا لجزء مما أنفقته خلال تلك الفترة.

- كم أود لو صفعت نفسي لعدم تمكني من مساعدتك في إكمال دراستك الثانوية.

سكت، تنهّد، ثم أكمل:

- في بعض الأحيان أشعر بالرغبة في لقاء يانشنغ.

- ما رأيك أن أهاتفه وأطلب منه القدوم؟

- ما الذي يمكنني قوله لو التقينا؟ لقد أوكلت له أمر رعايتك، لكنه جعلك تتجه للعمل في مطعم الكوارع بمجرد أن قطعت عنك مصاريف الدراسة والمعيشة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لقد اضطر لذلك حينها.

- أنا محرج من مقابلته، لكني لا ألوم سوى نفسي.

سأله أبوه عن أسرته، فأخبره مينغ بالتفاصيل.

- هل ستكون مضطرًا إلى إخفاء أمر تحمُّل نفقات علاجي عن زوجتك؟

- لا، فأنا من يقرر ولا دخل لزوجتي في ذلك.

- أنت أفضل مني.

يعتقد مينغ أن أفضليته عن أبيه قد حدثت بسبب تعلمه كيفية طهو الكوارع في ذلك الوقت في مطعم المارشال في يانجين بعد أن قطع عنه الرسوم الدراسية ونفقات المعيشة.

تذكّر أمرًا آخر، فسأل والده:

- لا يوجد سوانا هنا الآن، وأريد أن أسألك سؤالاً.

- ماذا؟

- كيف ماتت أمي؟ هل فعلاً بسبب حفنة من الكراث كما قيل؟

سعل الأب حتى احمرّ وجهه. سارع مينغ يربت على ظهره. وبعدما توقف السعال رد:

- بسبب الكراث، وليس بسبب الكراث.

- ماذا تقصد؟

- في ذلك اليوم، تشاجرنا بسبب حفنة من الكراث، لكن عندما غادرت المنزل لاحظت أنها ليست على ما يرام؛ ومع ذلك تركتها وغادرت، لكنها لاحقًا شنقت نفسها.

أكمل:

- لطالما تشاجرنا، توقعت أن تفعل ذلك في أي وقت، فالخلافات بين الأقارب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبغض وأشد من تلك التي بين الأعداء.

استمر يقول:

- هي من قتلت نفسها، لكنني المتسبب الحقيقي في موتها.

ضدم مينغ مما سمعه، فلأكثر من أربعين عامًا ظل ينسب مسؤولية انتحار والدته إلى خروجه لشرب المياه الغازية؛ في الوقت الذي يعتبر فيه والده نفسه مسؤولًا؛ ربما هما شريكان. تنهّد متحسرًا. قال أبوه وهو يلهث:

- لقد أخطأت مرتين في حياتي.

تطلّع مينغ إلى أبيه الذي أكمل قائلاً:

- الأولى، عندما أديت دوري في مسرحية أسطورة الأفعى البيضاء ضمن فرقة أوبرا خنان في يانجين، كان يجب ألا أتحدث مع ينغ تاو ويانشنغ باللغة المستخدمة في المسرحية.

حاول التقاط أنفاسه واستمر يتكلم:

- لو لم أستخدم لغتي في المسرحية، لما تزوجت من أمك.

لم ينطق الابن.

- أما الثانية فهي صعودي إلى المسرح في حفل مستودع القاطرات خلال عيد العمال، وتأديتي جزءًا من مسرحية أسطورة الأفعى البيضاء، هل تتذكر ذلك؟

فكر مينغ لبعض الوقت، ثم أومأ برأسه.

- لو لم أفعل لما تزوجت من تشين جياينغ.

فكّر مينغ، لو لم يتزوج أبوه مجددًا، فمن المرأة البديلة التي كانت ستوافق على الزواج؟ وما الفارق بين زوجته الحالية أو أي واحدة أخرى؟ حبس مينغ ما يفكر به داخله والتزم الصمت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مكث في ووهان لمدة أسبوع حتى استقرت حالة أبيه، سأل الطبيب عن حالته، فأجابه بأنها مضطربة دائمة التأرجح، تتحسن أحيانًا وتسوء بشدة في أوقات أخرى.

لا يزال لدى مينغ الكثير من العمل في شيآن، ولن يتمكن من البقاء هنا طوال الوقت، لذا عندما سمع ما قاله الطبيب، تناقش مع ويوي بخصوص رحيله، فوافقت قائلة:

- يا أبو هونغتشي، اذهب، وسنعتني أنا وأمي به.

أضافت:

- يكفي أنك دفعت أكثر من نصف نفقات العلاج، وجعلتني غير قلقة حيال الأمر.

- يا أم تشن سي، رعاية المرضى أكثر صعوبة من دفع المال.

في الليلة التي سبقت عودة مينغ إلى شيآن، سمع في حلمه امرأة تقول:

- هل نسيت ما قلته؟

- ماذا؟

أجاب صوت المرأة:

- ما قلته لك في عامك السادس، لقد ساعدتك في إنقاذ أمك، بعدها ألقيتها أنت في نهر اليانجتسي.

تذكّر مينغ عندما جاءت والدته المنتحرة ووهان، حينها قالت له الخنفساء إن عليه مساعدتها عندما يعود إلى ووهان مرة أخرى بعد عقود. وها هي جاءته الآن. رد مينغ:

- لقد نسيتك تمامًا، لكني تذكّرتك الآن.

- لقد أرشدتك لطريق إنقاذ أمك، والآن عليك أن تنقذني أيضًا.

- من أنتِ؟

- أنا العرّافة التي ثبتت صورة أمك بالمسامير الفولاذية حينها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

احتار مينغ، سأل:

- لماذا إذن تحولتِ إلى خنفساء لإنقاذها؟

- أنا من آذاها، وتعيّن عليّ أنقذها. يقول المثل، تخلص من شرورك فتصبح من الصالحين.

دهش من كلامها.

- وكيف يمكنني أن أنقذك الآن؟

- أخرجني من ووهان.

- لماذا؟

- هنا مارست الشر طيلة حياتي؛ وبعد أن مت، عليّ أن أغادر هذا المكان المشؤوم.

- لماذا اخترتِني أنا بالذات؟

- خطر ببالي أنك ستظل قويًا بعد أكثر من أربعين عامًا، لو كنت ساعدت شخصًا بالغًا حينها، فربما سيكون قد مرض أو توفي في الوقت الحالي.

- وكيف أخرجك من هنا؟

- لقد تلبّست بصورتي مثلما فعلت أمك، كل ما عليك هو اصطحاب الصورة معك.

- أنا ذاهب إلى شيآن.

- لا تهمني وجهتك بقدر الخروج من هنا.

أدرك مينغ السبب الخفي وراء قدومه إلى ووهان؛ سألها:

- هل لكِ علاقة بمرض والدي كي تجبريني على القدوم؟

- على الإطلاق، هو من جلب المرض لنفسه.

- وأين صورتك الآن؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- في برج الكركي الأصفر، هناك مقصورة فوق التل. صورتي مخبأة أسفل العمود عند الزاوية الخلفية اليمنى من المقصورة.

- ومتى مت؟

- قبل ثلاث سنوات، ومنذ ذلك الحين أنتظرك كل يوم.

استيقظ مينغ، أضاء النور، نظر إلى ساعته فوجدها الثالثة صباحًا، نهض، ارتدى ملابسه، غادر الفندق، استقل سيارة إلى برج الكركي الأصفر. تذكّر رحلته المدرسية عندما شارك مئات التلاميذ في الذهاب إلى البرج، وفي وقت لاحق عندما جاءت جدته اصطحبهما والده إلى هناك. توقفت السيارة أسفل البرج، نزل من السيارة، تطلع إليه من مسافة بعيدة، وجده مختلفًا تمامًا عما رآه قبل أكثر من أربعين عامًا.

المكان فارغ، بوابة البرج مغلقة، سار نحوها ففُتحت تلقائيًا، علم أن العرّافة هي من فعلت ذلك، وهو ما يدل على أن صورتها مخفية هنا بالفعل. صعد أعلى التلة ووصل إلى البرج. تحت ضوء القمر رأى سطرين مكتوبين فوق الأعمدة على جانبي البرج: غادر الأسلاف راكبين فوق طائر الكركي الأصفر، وبقي برج طائر الكركي الأصفر هنا مهجورًا. توجّه إلى التل خلف البرج، وجد على جانبه مقصورة. الصورة مخفية تحت العمود عند الزاوية الخلفية اليمنى، لكنها راسخة مثل جبل، فكيف يمكن سحب العمود؟ عندما لمسه مينغ تحرك من تلقاء نفسه، تقدم وسحبه للأعلى بكل سهولة كأنه يقتلع عشبًا. رأى المقصورة تتحول إلى ماكيت صغير يمكن حمله باليد، التفت يتطلع إلى البرج فوجده أيضًا قد تحول. حمل الشرفة بيده، فرأى صورة أسفل العمود الخلفي الأيمن، لكن الصورة لطفلة تبلغ من العمر أربع أو خمس سنوات، تلف شريطًا أحمر حول رأسها. لم يتمالك نفسه وسأل:

- أيتها العرّافة، هل هذه أنت؟

- نعم، عندما كنت طفلة.

التقط مينغ الصورة، أعاد المقصورة مكانها، فعادت إلى هيئتها الأصلية وعاد البرج إلى حجمه الأصلي المهيب يقف شامخًا على حافة نهر اليانجتسي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أين أضع صورتك بعد عودتي؟

رفعت الفتاة الصغيرة من خلال الصورة:

- في مكان مرتفع.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي ذهب مينغ إلى المستشفى ليودع أباه. قالت تشين جياينغ:

- امكث معنا بضعة أيام أخرى.

تدخلت ويوي:

- دعي أبو هونغتشي يعود، فلديه الكثير من الأعمال في شيآن.

قال أبوه:

- من الأفضل أن تعود لتهتم بأمور مطعمك، حينها سأطمئن وأتعافى.

لاحظ مينغ أن أباه بدا أكثر جرأة على الحديث أمام زوجته وابنتها؛ لماذا؟ لأن ابنه دفع أكثر من نصف نفقات العلاج. رغم أن هذا كلام يصعب قوله لكنه الواقع، فلولا الحالة المادية الجيدة لمينغ ما سعت ويوي للتواصل معه، وربما لم تتح له فرصة رؤية أبيه حتى مماته. قال مينغ:

- سأعود إلى شيآن لمتابعة بعض الأعمال العاجلة، سأعود مرة أخرى.

- بعدما أتعافى من مرضى سأذهب إلى شيآن لزيارتك.

- رائع، يمكنكم جميعًا الحضور، وسأصحبكم لزيارة برج الإوز البري، ومقابر الجنود الصلصال، وأدعوكم لتناول الخبز المحشو بلحم الضأن.

ضحكت زوجة أبيه وقالت:

- وسنذهب أيضًا إلى مطعمك لتناول الكوارع.

ضحك الجميع، سعل أبوه بشكل غير متوقع حتى احمرّ وجهه؛ استمر يسعل بشدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لخمس أو ست دقائق، دون توقف. سارعت ويوي ونادت الممرضة التي جاءت ووضعت له قناع الأكسجين. نظر مينغ وقال:

- ما رأيك أن أبقى ليومين آخرين؟

لوّح أبوه بيده رافضًا وقال من تحت القناع:

- غد، لن أموت بسبب بعض السعال.

غادر المستشفى. أثناء جلوسه في سيارة الأجرة، فكر في حالة أبيه، ربما لن يموت قريبًا، لكنه لن يتعافى قريبًا أيضًا؛ من الممكن أن يبقى على قيد الحياة راقدًا في المستشفى، لكن التعافي مستحيل. أخبره أنه سيذهب لزيارته في شيآن، لكن على ما يبدو أن هذا لن يحدث، بينما روح العرافة التي يحمل صورتها ستذهب معه إلى شيآن. لم يتمالك نفسه، تنهّد من عبثية الحياة.

خرج من محطة القطار، لم يعد إلى المنزل، طلب سيارة أجرة، أخذته إلى منطقة تلال تشينلينغ. تسلّق التلال وأخذ يتطلع حوله، رأى خلف أحد التلال سلسلة أخرى من التلال، وخلف إحدى الغابات مساحات أخرى من الغابات. أخرج صورة الفتاة الصغيرة من جيبه وسألها:

- هل يمكنني وضعك هنا؟

- المكان هنا مرتفع، والمشهد رائع أيضًا.

- أريد أن أسألكِ سؤالاً قبل الفراق.

- ماذا؟

- طوال الوقت أسأل نفسي، أين ذهبت أمي بعد أن ألقيت صورتها في نهر اليانجتسي؟

- لقد غادرت ووهان، وليس لي قدرة على معرفة ما يدور خارجها.

تنهّد متحسرًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أين ستذهبين؟

- إلى حيث أتيت.

- أليست ووهان هي المكان الذي أتيتِ منه؟

- لا أعني المكان.

- ماذا تعنين؟

في هذه اللحظة، هبّت رياح جبلية، تعالى صوت حفيف أشجار الصنوبر من وسط الغابات، سارعت تقول متلهفة:

- دعك من طرح الأسئلة فلن تفهم إجاباتي، اتركني أذهب بسرعة كي أستفيد من الريح المواتية، لو فاتت هذه الفرصة، ربما تتوقف الرياح بعدها.

- اعتني بنفسك.

ترك الصورة من يده، وطارت الفتاة الصغيرة التي بداخلها في السماء وسط الريح، أخذت تتأرجح صعودًا وهبوطًا حتى حلقت فوق الغابة، إلى أن اختفت وسط صوت حفيف أشجار الصنوبر.

3

يمر الوقت سريعًا، مضت خمس سنوات على موت الكلب سون أرهو. قبل موته بثلاثة أيام توقف عن تناول الطعام. أحب سون أكل الكوارع، بالطبع ليست تلك الكوارع التي طُهيت للتو، بل عظام الكوارع التي يخلفها الزبائن بعد الانتهاء من الطعام؛ فبعدما يغادر الزبائن، يغلق المطعم، ثم يضع مينغ العظام التي خلفها الزبائن في وعاء مخصص للكلب. في وقت لاحق، لم يعد يحب أكل عظام الكوارع؛ فبجانب الكوارع المطهوة، يقدم مطعم المارشال أيضًا بعض الأطباق الأخرى والمشروبات، من بين هذه الأطباق كبدة الدجاج بالسبانخ؛ وبعدما يغادر الزبائن، يغلق المطعم أبوابه، ويضع مينغ كبدة الدجاج وعظام الكوارع المتبقية من الزبائن في وعاء طعام الكلب، إلا أنه سون أرهو كان ينتقي كبدة الدجاج ويأكلها وحدها. حينها يركله مينغ بقدمه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويقول: هل تعلمت التمرد؟

في ذلك الوقت تردد مينغ يوميًا قبل الفجر على سوق الخضار في الضاحية الجنوبية لشراء الكوارع والدجاج والبط والأسماك والخضراوات المختلفة بالجملة، بينما تذهب زوجته إلى المطعم لتجهيز أدوات الطبخ، قبل ذهابها توصل ابنها هونغتشي إلى روضة الأطفال. يسكن مينغ في الطابق الأول، وهناك حديقة صغيرة خلف المنزل بني فيها بيتًا خشبيًا لسون الذي تعلّم الخروج في الصباح والمساء لقضاء حاجته. بعدها يركض إلى المطعم بمفرده، وبحلول الليل يعود إلى المنزل. في إحدى الليالي، عاد الزوجان إلى المنزل بعد إغلاق المطعم. جلسا يتناولان الطعام، خرج سون من بيته الخشبي ودخل إلى المنزل، ركض نحو طاولة الطعام، أخذ يسحب بنطال مينغ من تحت الطاولة. ركله وقال:

- هذا وقت تناول الطعام، العب وحدك بعيدًا.

استمر سون يسحب بنطال مينغ الذي لم يفهم ما يريد؛ فنهض ليعرف ماذا يجري، سار خلف الكلب مغادرًا المنزل، تبعه مينغ حتى وصل إلى المطعم. وجد مينغ ماءً يسيل من شق في باب المطعم. فتح الباب، فوجد المياه غمرت المطعم من الداخل بالفعل، سار وسط المياه حتى وصل إلى المطبخ، اكتشف أن تساو العجوز الذي يعمل في غسل الكوارع نسي إغلاق صنبور المياه في حوض الغسيل فامتلأ الحوض حتى سالت منه المياه على الأرض. ولو ظلت تتدفق بتلك الطريقة طوال الليل لكانت غمرت الثلاجات ومخازن المعكرونة والأرز والزيت والملح، بالإضافة إلى مئات من قطع الكوارع، والدجاج والبط، والأسماك والخضراوات المختلفة، كما ستتلف جميع المقابس والتجهيزات الكهربائية. سارع بإغلاق الصنبور، وحينها فهم مقصد سون فربت على رأسه وقال:

- أنت وفيٌ حقًا.

تطلّع الكلب إليه مبتسمًا، ثم استدار وركض مغادرًا. في اليوم التالي وبّخ مينغ تساو وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل لديك عقل أم لا؟ أنت حتى أقل فائدة من الكلب.

مرة أخرى تناول مينغ بعض الشراب رفقة أصدقائه، خلط عدة أنواع من النبيذ وشرب حتى ثمل ثم فقد وعيه في غرفته. بحلول الساعة الحادية عشرة صباحًا، لاحظ سون عدم قدوم صاحبه إلى المطعم، ركض عائداً إلى المنزل، أخذ ينبح وينهش باب غرفة مينغ، لم يستطع الوصول إلى المقبض، ركض مذعورًا إلى المطعم ثانية، وصل إلى شياومنغ وسحبها من ملابسها. عادت معه، فتحت الباب، رأت مينغ راقدًا في غيبوبة. هاتفت العاملين في المطعم الذين جاؤوا وحملوا مينغ إلى المستشفى. بعد فحص الدم قال الطبيب إن تركيز الكحول في دمه مرتفع للغاية وسارع يعلق له المحاليل، ثم أخبرهم أنهم أحضروه للمستشفى في الوقت المناسب، فلو تأخروا قليلاً لربما فقد حياته. بعد خروجه من المستشفى أخبرته زوجته بما فعله سون، فتطلع له وقال:

- تخشى أن أموت؟

هزّ رأسه بسعادة، بعدها استدار وركض مغادرًا.

يوجد متجر للحلي الفضية بجوار المطعم، مالكه يُدعى جين. كل يوم يُحضر مع اثنين من العمال السبائك الفضية، يضعونها على سندان، يطرقون عليها ليشكلوها على هيئة أساور، وقلائد، وأقراط، وخواتم وغيرها من الحلي، ثم يستخدمون المثقاب لشقها وتركيب ملحقات أخرى. في بعض الأحيان، بعدما يغادر الزبائن المطعم بعد الغداء حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة عصرًا، يخرج مينغ ليجلس رفقة جين، يشاهده وهو يطرق على الحلي، يتأمل تحول سبيكة الفضة في يد جين العجوز إلى أنواع مختلفة من الحلي، يمتدحهم:

- يا لها من مهارة.

- الممارسة تصنع المهارة.

- اختلاف المهنة يجعل المرء كأنه يعيش في وادٍ آخر، لا يمكنني فهم سر صنعتكم.

- المهم شيء واحد فقط، الصبر، من لا يمتلكونه لا يمكنهم أداء هذا العمل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- مثل طهي الكوارع.

- يمكن القول إن المبدأ واحد.

في بعض الأحيان يرافق سون مينغ إلى متجر جين، يستلقي على بطنه بجواره، يُخرج لسانه لاهثًا، أشار جين إلى سون قائلاً: كلب وديع، يرقد أمام المطعم كل يوم، ولا يغادر بعيدًا. حينها حدّثه مينغ عن إنقاذ سون لحياته وواقعة تسرُّب المياه داخل المطعم. علّق جين وهو يطرق على الفضة:

- كلب وفي، والأهم أنه ذكي يفكر في أشياء لا تصل لأذهان الآخرين.

- هل تعرف سبب ذكائه؟

- ما هو؟

- رغم أنه كلب بكيني عادي، فإنه كبير الرأس، لاحظ ذلك، ستكتشف أن رأس الكلب العادي أقل من هذا الحجم، أنا قلق حقًا من عدم قدرة رقبته على حمل رأسه.

مد جين يده لامسًا رأس سون:

- هذا صحيح، إنه مختلف عن رأس الكلب العادي.

هزَّ سون ذيله فرحًا.

مرت خمسة عشر عامًا في غمضة عين، هرم الكلب. عندما يهرم الناس تقل قدرتهم على المشي، وكذلك الكلاب. صارت خطواته ثقيلة؛ جسده يترنح، وهن جسده، يرقد نائمًا خلال النهار أسفل الشمس خارج المطعم، وعندما يستيقظ يبدو في حالة شرود. نقله مينغ إلى مستشفى الحيوانات الأليفة. أجرى الطبيب فحصًا شاملاً، بما في ذلك فحوصات الدم الروتينية، ومخطط القلب، وأشعة الصدر، والأشعة المقطعية، أظهرت النتائج أنه مصاب بتصلب في الأوعية الدموية الدماغية، ودهون في الدم، كما أنه يعاني من ارتفاع ضغط الدم. سأل مينغ الطبيب:

- وكيف ستعالجه؟ هل يحتاج إلى إجراء عملية جراحية؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كم عمره؟

- خمسة عشر عامًا.

- إنها تعادل ثمانين أو تسعين عامًا من عمر الإنسان. لقد هرم لدرجة تجعله لن يتحمل إجراء جراحة، عُد واعتنِ به جيدًا.

سمع مينغ نصيحة الطبيب وأعاده إلى المنزل. تدريجيًا بدأ سون ينسى العودة إلى المنزل بعد خروجه لقضاء حاجته، وصار على مينغ أن يبحث عنه في الشارع لإعادته. علم أن ذاكرة كلبه بدأت في التدهور. في أحد الأيام لم يعُد سون إلى المنزل ليلًا، ذهب مينغ للبحث عنه، لم يعثر عليه. في اليوم التالي لم يعد فشعر الزوجان بالقلق، بدآ يبحثان عنه في المنطقة المحيطة، طلبا من عمال المطعم البحث أيضًا، لكنهم لم يتمكنوا من العثور عليه. حينها قام مينغ بطباعة إعلان للبحث عن الكلب، وصف فيه مظهره، لون فرائه، متى فقده، وجّه الشكر مسبقًا لمن يعثر عليه، وأرفق بالإعلان صورة للكلب ورقم هاتف للتواصل، نشر المئات من هذا الإعلان في جميع الشوارع والأزقة القريبة من برج الإوز البري الطائر. مر يوم ولم ترد أي أخبار، فحدّث نفسه قائلاً: أرجوك لا تفت في الخارج.

في صباح اليوم الثالث، اتصل أحدهم بهاتف مينغ وقال إنه رأى كلباً يشبه الموصوف في الإعلان أسفل جسر في حديقة الضاحية الجنوبية. هرع مينغ إلى هناك فوجد سون مستلقيًا نصف نائم أسفل جسر داخل الحديقة. صاح:

- لقد كدت أموت قلقًا عليك.

بدا الكلب خائر القوى، لم ينهض من رقدته؛ حمله مينغ إلى المنزل. مر أسبوعان آخران، توقف سون عن الأكل تمامًا. أحضر له مينغ كبدة الدجاج، شمها بأنفه ولم يأكلها، ثم خفض رأسه واستلقى على الأرض. أخذه مينغ إلى مستشفى الحيوانات الأليفة مرة أخرى، وقال للطبيب:

- لم يأكل لمدة ثلاثة أيام، هل سيموت؟

وضع الطبيب السماعة على جسد سون ثم قال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- حان أوان موته، إنه يعاني من فشل في أجهزة الجسم، والحياة بالنسبة له معاناة.

- إذن لماذا لم يمت؟

- الكلاب أنواع. بعضها ترغب أن تموت في بيوتها؛ وبعضها لا ترغب في ذلك. في البداية لم أعِ الأمر، لكن بعدما تعاملت مع الكثير من الكلاب، أدركت الحقيقة.

حينها أدرك مينغ سبب نوم سون أسفل الجسر في حديقة الضاحية الجنوبية. سأل الطبيب ثانية:

- وبالنسبة للكلاب التي لا ترغب أن تموت في بيوتها، ما المكان الذي ترغب أن تموت فيه؟

- مكان لا يستطيع الناس رؤيتها فيه. إنها تحافظ على كرامتها عندما تحتضر.

هزّ مينغ رأسه بعدما استوعب كلام الطبيب، ثم خرج من مستشفى الحيوانات الأليفة، ووضع سون في السيارة، وبدلاً من الذهاب إلى المنزل، قادها متجهًا إلى الضواحي خارج المدينة، قال لسون:

- بما أن الحياة أصبحت معاناة بالنسبة لك، فلتمُت إذن.

أومأ الكلب برأسه.

- وبما أنك تريد أن تموت بعيدًا، فلنذهب بعيدًا قدر الإمكان.

أومأ برأسه من جديد، ثم تحرك وارتمى بين ذراعي مينغ الذي واصل قيادة سيارته وهو يحتضنه. بعدما خرج من مدينة شيآن ووصل إلى الضواحي، واصل القيادة نحو المناطق الجبلية؛ كان الطريق خاليًا تمامًا. عندما وصل أمام منحدر إحدى التلال، رأى حقل ذرة كبيرًا. أوقف سيارته، حمل سون، ثم سار باتجاه حقل الذرة. وعندما وصل إلى عمق الحقل، نظر حوله يمينًا ويسارًا، وعندما أيقن أنه لا يوجد أحد، وضع سون على الأرض وقال له:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ما رأيك في هذا المكان؟

أومأ سون برأسه، سار يعرج، ابتعد تدريجيًا، لم يلتفت وراءه.

عاد مينغ إلى منزله، لكنه لم ينم طوال الليل. في وقت مبكر من صباح اليوم التالي قاد سيارته وعاد إلى الضواحي ثانية، ذهب إلى حقل الذرة، فكر أنه لو رأى جثة سون سيدفنها، لكنه لم يجد شيئًا، بحث طويلاً، يئس، بكى وقال:

- أين ذهبت؟ أنا أفتقدك.

مرت خمس سنوات في غمضة عين. وفي يوم ذهب مينغ إلى الحمام ليستحم، سمع من قونغ العجوز الذي يفرك أجساد الزبائن أن سون أرهو الذي عمل مديرًا لسوق داوبي للخضراوات أصيب بالخرف. عمل قونغ كبائع للخضار لعدة سنوات قبل مجيئه للعمل في الحمام. لقد ذكّر مينغ بالأمر كلبه الذي تركه وسط حقل الذرة في الضواحي، ولم يعرف أين ذهب بعدها. أطلق مينغ على كلبه هذا الاسم نسبة إلى سون مدير سوق الخضار على سبيل الانتقام؛ لكن لأنه الآن يفتقد كلبه، قرر الذهاب لزيارة المدير سون. استفسر مينغ عن عنوانه، وفي صباح اليوم التالي اشترى زجاجتين من النبيذ وأربع عبوات من السجائر، إنها الأشياء نفسها التي أهداها له عندما زاره لأول مرة في السوق، وضع الأغراض في كيس بلاستيكي وحمل الكيس متجهًا إلى منزل سون. طرق الباب، ففتح له شاب ذو شعر مصبوغ باللون الأصفر وقال:

- عمّن تبحث؟

- هل هذا منزل المدير سون أرهو؟

- من أنت؟

أخرج مينغ بطاقة عمل وسلّمها إلى الشاب الذي قرأها وقال:

- أوه، أنت صاحب مطعم المارشال. لقد ذهبت مع صديقي مؤخرًا إلى مطعمك لتناول الكوارع اللذيذة، هل تعرف أبي؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجاب:

- كلانا من يانجين، عملت ببيع الخضار في الماضي، اعتنى أبوك بي كثيرًا، لذلك جئت لزيارته بمجرد علمي بمرضه.

أخذ ابن سون السجائر والنبيذ من يد مينغ، طلب منه الدخول إلى المنزل، ثم صحبه إلى الغرفة الخلفية. رأى مينغ رجلًا عجوزًا أشيب الشعر جالسًا على أريكة في وضع القرفصاء ورأسه يتأرجح ذهابًا وإيابًا. لم يره منذ عشرين عامًا، ولم يتخيل أبدًا أن سون المتجبر الذي تبوَّل على وجهه في الماضي سيصبح على هذه الحالة الآن. أستدار سون برأسه وسأل بصوت عالٍ:

- من أنت؟

- أنا مينغ ليانغ.

- هل أنت سيهاي؟

تدخل ابن سون موضحًا:

- سيهاي أحد أصدقائه، وقد توفي العام الماضي. لذلك كلما رأى شخصًا ناداه باسم سيهاي.

- أنا لست سيهاي، أنا مينغ ليانغ.

- سيهاي، أخيرًا جئت.

لم يعرف مينغ كيف يتصرف. هذا المخرف يعتبره شخصًا آخر. في تلك الأثناء لاحظ مينغ الفرق بين سون الجالس أمامه والكلب الذي مات منذ خمس سنوات، الكلب سون أرهو له رأس كبير مثل البطيخة؛ أما ذلك الجالس أمامه فرأسه صغير مثل الكمثرى. اعتقد ابن سون أن مينغ صديق مقرَّب لوالده، لكن الغرض من زيارة مينغ أنه رغب بمعرفة متى سيموت سون. قبل مغادرته، تحدَّث إليه ابن سون قائلاً:

- أيها العم، إنه لم يعد يعرفك، لا داعي لزيارته مستقبلاً، فهذه مضيعة للوقت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هو لا يعرفني، لكني أعرفه.

في وقت لاحق، كلما شعر بافتقاده لكلبه زار سون. أثناء إحدى الزيارات ذهب ابن سون أرهو إلى غرفة أخرى ليلعب إحدى ألعاب الفيديو، ولم يبقَ في الغرفة سواهما. انتهز مينغ الفرصة وسأل:

- منذ عشرين عامًا، أذللت مينغ ليانغ وزوجته وأجبرتهما على مغادرة السوق. هل تتذكر؟

- من هو مينغ ليانغ؟

- لا داعي لأن تعرف، فقط أخبرني هل تجبّرت على الآخرين أم لا؟

بشكل غير متوقع، قال سون متحمسًا:

- وما الخطأ الذي ارتكبه هؤلاء إذن؟ أنا لا أعاقب أحدًا دون مبرر.

لم يرغب مينغ في تكرار حكي ما حدث سابقًا لشخص أحمق؛ فالدافع من هذا السؤال الانتقام، وقد أصبح الحديث الآن بلا جدوى. تنهّد مينغ متحسرًا، ثم نهض وغادر.

بدأ كل من مينغ وزوجته ينام في غرفة مستقلة، حيث ألقت شياومنغ باللوم على مينغ بسبب شخيره خلال نومه، وألقي مينغ باللوم عليها لأنها تستيقظ كثيرًا خلال الليل للذهاب إلى الحمام؛ لذلك بدآ ينامان بشكل منفصل. يعرف مينغ أن الشخير والاستيقاظ المتكرر لدخول الحمام ليسا السبب الرئيسي لهذا الفراق، لكن السبب الرئيسي هو أن ما يجب أن يكون صلبًا في جسد مينغ ليانغ قد صار ليّنًا، وأن ما يجب أن يكون ليّنًا في جسد شياومنغ قد صار صلبًا. اكتشف مينغ أيضًا أن لسان زوجته الطويل لم يعد كذلك. ورغم عدم وجود اتصال جسدي بينهما، اعتادا التواجد معًا، عندما يقع خطب ما يشعر كلاهما بالراحة لوجود الآخر بجانبه. سبق أن عانى مينغ من حصوات في المرارة تسببت له في التهاب حاد بالقنوات الصفراوية، وهو ما تطلب عملية جراحية لإزالة الحصوات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قبل إدخاله إلى غرفة العمليات، ذهبت زوجته إلى المرحاض ولم تعد، طلب مينغ من طاقم العمليات الانتظار حتى تعود، فقال الطبيب:

- لا أستطيع الانتظار، هناك طابور من المرضى في انتظار إجراء جراحات مماثلة.

- إذن لن أجرى هذه العملية.

نادى الطبيب ممرضته، طلب منها الإسراع إلى المرحاض لاستدعاء الزوجة. بعدما عادت شياومنغ قال الطبيب:

- قل لها ما تريده سريعًا.

لم يقل مينغ أي شيء، بل طلب من طاقم التمريض إدخاله إلى غرفة العمليات، ثم خدّروه كليًا. وعندما استيقظ بعد إجراء العملية ألقى باللوم عليها لذهابها إلى الحمام قبل إدخاله إلى غرفة العمليات. ردّت:

- لقد شعرت برغبة في التبول بسبب خوفي عليك.

بعد تناول العشاء في مساء أحد الأيام، جلس مينغ على الأريكة يشاهد التلفاز لبعض الوقت، ثم تصفح هاتفه المحمول، شعر بالنعاس، دخل إلى غرفته، خلع ملابسه، استعد للنوم، جاءت زوجته ترتدي ملابس النوم، سألها مستغربًا:

- ماذا تريدين؟

- لا تفهمني خطأ، أريد أن أخبرك بشيء.

- ماذا؟

جلست بجوار السرير وقالت:

- هل تتذكر شيانغ شيو؟

إنها من نشرت الإعلان الذي يحمل صورة شياومنغ قبل عشرين عامًا؛ تذكّرها مينغ، هي من أجبرتهما على ترك يانجين والمجيء إلى شيآن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لماذا تذكّرينني بها؟

- اتصلت بي اليوم.

- كيف يُعقل هذا؟!

- حصلت على رقم هاتفي من عمتي في يانجين.

- وماذا تريد أن تفعل بنا ثانية؟

- تريد أن تأتي إلى منزلنا.

ضحك مينغ، قال:

- ألستما عدوتين؟

- لقد أبدت ندمها، وتريد المجيء للاعتذار لي وجهًا لوجه.

وأضافت:

- قالت إنها تسببت في مغادرتنا مسقط رأسنا، ولو لم تعتذر وجهًا لوجه فلن تشعر براحة الضمير لبقية حياتها.

يعتقد مينغ أن هذا السبب غير حقيقي، تذكّر ثأره مع سون، وسأل نفسه: لو أن هذا العجوز يعاني من الخرف ولم يعتذر لي، هل سأقبل اعتذاره؟ إن قبول الاعتذار يتوقف على حالتي، فلو أنني ما زلت أضعف منه لن أقبل، ولو صرت في موضع قوي فقد أقبل الاعتذار، هذا ما يسمى العفو عند المقدرة. لم يتخلّ عنه إحساس القلق، سألها:

- ألا تعتقدين أن هناك مؤامرة؟

- مرت عشرون عامًا، سار كل منا في طريقه، وأصبحنا كبارًا، فما هي المؤامرة التي يمكن أن تحيكها ضدي؟

- أنت محقة، أين هي؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- تعمل في حلب الأبقار بإحدى المزارع في مدينة بمنغوليا الداخلية.

فهم مينغ وضعها وقال:

- كلها أمور صارت من الماضي، دعيها تأتي.

- هذا رأيي أيضًا، لكن المشكلة أنها تريد إحضار شخص آخر معها.

- رجل أم امرأة؟

- امرأة.

- بيتنا لن يضيق بوجود شخص آخر، يمكنهما المجيء.

- قالت شيئًا آخر بخصوص تلك المرأة.

- ماذا عنها؟

- وجهها مصاب بتشوهات.

تسمّر مينغ مذهولاً، هذا أمر لم يتوقعه، سأل:

- من هذه المرأة؟

- صديقة شيانغ شيو المقرّبة، عملت أيضًا في المهنة نفسها في الماضي، ثم أصيبت بمرض ولم تتعافَ منه إلى الآن.

عقد مينغ يديه خلف رأسه، ثم اتكأ على مقدمة السرير دون أن يتكلم. حينها قالت زوجته:

- لست وحدك من يشعر بالتردد، لقد ترددت أنا أيضًا بعدما سمعت هذا الكلام، ما رأيك أن نصرف النظر عن هذه الزيارة؟ فالأمر لا يتعلق بنا وحدنا، لدينا طفل يسكن معنا.

- أتفق معك.

- سأعاود الاتصال بها غدًا. لو جاءت بمفردها فسنسمح لها بالحضور؛ ولو أرادت أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تُحضر معها تلك المرأة، فلن أوافق.

- حسنًا.

نهضت شياومنغ وغادرت.

في ذلك اليوم، هاتفه فان يوتشي الذي كان يقود حافلة في داوبي وقال إن ابنته فورونغ ستتزوج في الثامن من هذا الشهر، وإنه يدعوه لحضور حفل الزفاف. ثم أتبع مكالمته برسالة عبر تطبيق ويتشات يقول فيها: «يُرجى التأكد من الحضور قبل الساعة العاشرة من صباح يوم الثامن من مايو إلى حديقة سون يات صن بمنطقة داوبي».

خلال العطلات والأعياد غالبًا ما يذهب مينغ لزيارته، فقبل عشرين عامًا عندما جاء هو وزوجته للمرة الأولى إلى شيآن، ساعدهما فان يوتشي في استئجار مسكن والعثور على عمل. وبعد عشرين عامًا عانى من مشكلة في عظمة الفخذ أجلسته على كرسي متحرك، ولم يعد قادرًا على قيادة الحافلة، وظل حبيس بيته ينفق من معاشه الشهري.

في التاسعة والنصف من صباح يوم الزفاف، وصل مينغ إلى حديقة سون يات صن بمنطقة داوبي، يومها اكتشف مينغ أن عائلة زوج فورونغ تمتلك شركة للتطوير العقاري في مدينة شيآن، اسمها عائلة جين، وأن تلك العائلة صاحبة المشروع الذي يقع ضمنه منزل مينغ ليانغ. نُصبت منصة على أرضية الحديقة، وأقيم عند المدخل باب مقوس من الزهور، وفُرشت المسافة من الباب إلى المنصة بسجادة حمراء، ووُضعت مئات الطاولات المغطاة بالمفارش البيضاء، وزُينت الكراسي حول الطاولات بشرائط من الحرير الأحمر، عج المكان بالمدعوين، عزفت فرقة نحاسية فوق المنصة. وضع مينغ النقوط على طاولة المدخل، ثم أخذ زهرة وعلقها في جيب بدلته العلوي، وسار وسط الحشد، إلى أن عثر أخيرًا على فان يوتشي جالسًا على كرسيه المتحرك جوار إحدى الطاولات أسفل شجرة خوخ عند طرف الحديقة مرتديًا بدلة ورابطة عنق حمراء. تقدم مينغ وصافحه قائلاً:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنا سعيد للغاية من أجل فورونغ، لقد تزوجت من عائلة مرموقة.

- شكرًا على تهنئتك.

سحب مينغ من يده يُجلسه بجانبه، قال بصوت منخفض:

- لقد تزوجت من عائلة مرموقة، وصرت أنا مهملاً.

- ماذا تقصد؟!

- يزعجها كوني أعرج، طلبت مني قبل أيام قليلة أن أتظاهر بالمرض وأبقى في المنزل حتى لا أحضر حفل الزفاف، لكني غضبت بشدة، وصممت على الحضور.

- ما هذا الكلام؟ من العيب أن تطلب عائلة العريس شيئًا كهذا.

- ليست عائلة العريس من طلبت، بل ابنتي فورونغ، قالت إن جميع المدعوين من عائلة زوجها من وجهاء المجتمع، لذلك فهي تشعر بالحرج من وجودي، عندما رأتني جئت إلى الحفل، أجلستني هنا بعيدًا، ولم تسمح لي بالجلوس على الطاولة الرئيسية لتناول الطعام.

نظر مينغ فوجد اثنتي عشرة طاولة تفصلهما عن منصة الزفاف؛ فواساه قائلاً:

- لا يهم أين تجلس، فالطعام المقدم على جميع الطاولات هو نفسه.

همس فان يوتشي في أذنه:

- عائلة العريس تبدو غنية، لكن في الواقع الكل يعرف أصلها الفقير، فوالد العريس من صعاليك منطقة داوبي في الماضي.

- يا أخي، الواقع الآن مختلف.

وبينما يتحدثان، عزفت الفرقة لحن الزفاف وبدأ الحفل. وفوق السجادة الحمراء الممدودة من الباب المقوس حتى المنصة سارت طفلتان في المقدمة، تحمل كل منهما سلة من الزهور، ينثرن بأيديهما منها على السجادة؛ ومن خلف الطفلتين ظهر العروسان محاطين بزوجين من وصيفات العروس ورفقاء العريس، وهناك صبيّان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يرتدي كل منهما بدلة يسيران خلف العروس يحملان أطراف فستانها، صعد العروسان على المنصة، وأعلن مقدم الحفل عن البدء، سأل العروسان أولاً عن قصة حبهما، فتعالت حينها صيحات المدعوين وضحكاتهم؛ ثم دعا بعض الحضور للصعود إلى المنصة وإلقاء كلمة، عرف مينغ على الفور كل من صعد إلى المنصة، فكثيرًا ما شاهد وجوههم على شاشة التلفزيون، إنهم جميعًا من أثرياء المدينة، إما يعملون في التطوير العقاري، أو في الصناعة المالية، أو في الإنترنت، أو في مناجم الذهب أو الفحم.

يتحدث كل ضيف، يمزح، يطلق النكات، فتنفجر عاصفة من الضحك والتصفيق من الجمهور، بعد الانتهاء من هذه الفقرة، طلب مقدم الحفل من الزوجين أن يُلبس كل منهما الآخر خاتم الزواج، أعلن زواجهما وطلب منهما تبادل القبل. استغرقت هذه العملية أكثر من ساعة، ثم انتهت مراسم حفل الزفاف وبدأت المأدبة.

في حفلات الزفاف العادية يصعد والدا العروسين على المنصة، ويُلقي كل واحد منهم كلمة، بعدها يقدم الزوجان الشاي لكلا الوالدين، ولكن حُذفت هذه الفقرات من حفل اليوم. فهم مينغ السبب، وأدرك أيضًا صحة ما قاله أبو العروس. نظر مينغ إليه فوجده يتصبب عرقًا، همس في أذن مينغ:

- لقد فعلت فورونغ الشيء الصحيح. لحسن الحظ أنهم لم يطلبوا من أحد من عائلتنا الصعود إلى المنصة، فعائلة العريس جميعهم من كبار الشخصيات، وبارعون في الحديث، ولو صعدت لصرت أضحوكة بينهم.

تفحّص مينغ هيئة فان يوتشي، شعر أن ما قاله صحيح، فالمدعوون أنفسهم يتصببون عرقاً من الرهبة، فما بالك بمن يصعد إلى المسرح؟ لكنه واساه قائلاً:

- لقد أصبحتم أسرة واحدة، لذلك لا داعي للاهتمام بمثل هذه الأمور.

عندما بدأ النادل في تقديم الأطباق على الطاولات، صعد مقدم الحفل إلى المنصة ثانية وقال:

- الطقوس التي انتهت للتو كانت على الطراز الغربي، فلتستمتعوا الآن بتناول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطعام والشراب.

بينما يتناول الضيوف الطعام، دعت عائلة جين فرقة من أوبرا خنان لإحياء الحفل، فالعديد من الضيوف تعود أصولهم إلى خنان، وبالتأكيد سيحبون الاستماع إلى هذه الأوبرا. ثم دقت الصنوج والطبول، وعزفت الأوتار مقدمة أوبرا خنان. ظهر الممثلون على خشبة المسرح، وبدؤوا يؤدون مشهد «الجسر المكسور» من مسرحية «أسطورة الأفعى البيضاء». حيث التقى شيو شيان والأفعى البيضاء للمرة الأولى عند البحيرة الغربية، وبسبب المطر، استمرا يودعان بعضهما هنا، ثم يعودان ويودعان بعضهما ثانية هناك لأنهما لا يملكان سوى مظلة واحدة. لم ينتبه مينغ ليانغ في البداية، ولكن عندما استمع وشاهد شعر أن الممثلة التي تلعب دور الأفعى البيضاء على المسرح تشبه والدته تمامًا؛ ليس من حيث الشكل فقط، بل الصوت واحد تقريبًا؛ قبل أربعين عاما، ألقى مينغ صورة والدته في نهر اليانجتسي ولم يعرف أين ذهبت. لاحقًا، اصطحب العرّافة معه من ووهان إلى تلال شيآن، سألها عن مصير أمه فلم تعرف، ثم سأل العرافة عن المكان الذي ستذهب إليه، فأجابت بأنها ستذهب إلى حيث أتت؛ حينها لم يستوعب مينغ المقصود بالمكان الذي أتت منه، لكنه بدأ يفهم الآن ويربط جملة العرافة بأمه؛ المكان الذي أتت منه هو المسرحية، ففي عالم البشر هي ينغ تاو، لكنها في المسرحية أفعى؛ إنها تعود إلى الحياة عندما تؤدي دور الأفعى في المسرحية، مما سمح لمينغ برؤيتها؛ لكنه يعي جيدًا أن المسرحية والأفعى غير حقيقيين؛ يمكن القول إن أمه تعيش بشكل مجازي داخل المسرحية.

لم تعرف العرافة أين ذهبت ينغ تاو، لكن الآن من خلال كلماتها عرف مينغ وجهة والدته، لقد ذهبت إلى العدم. لم يتمالك نفسه، ذرف الدموع أثناء سماعه الأفعى البيضاء تغني على المسرح. سأله فان يوتشي:

- ماذا بك؟

- لا شيء، أنا فقط سعيد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في أحد الأيام قبل نهاية ذلك الشهر، جاء ابن سون أرهو إلى الفرع الرئيسي لمطعم المارشال للبحث عن مينغ. عندما قابله، قال:

- أيها العم، أبي يطلب لقاءك.

- ماذا جرى؟

- لم أسأله.

قبل نهاية الشهر يتعين على الفرع الرئيسي والفروع الخمسة تسوية الحسابات، قال مينغ:

- ما رأيك أن آتي بعد يومين؟ فأنا مشغول قليلاً هذه الأيام.

- هذا تصرف لا يليق بك.

- ماذا تقصد؟

- خلال العامين الماضيين، جئت لزيارة أبي أكثر من عشر مرات، وفي كل مرة كان ينتظرك في المنزل؛ وهو الآن يطلب منك زيارته لأول مرة، لكنك تعتذر.

- كلامك منطقي.

- أنت من تسبب في ذلك بزياراتك المتكررة له، لقد جعلته يظن أنك صديقه سيهاي.

ارتدى مينغ معطفه وذهب رفقة الابن. فور أن رآه سون ربت على رأسه وقال:

- سيهاي، لا أعتقد أنني سأعيش للعام القادم.

نظر مينغ ليانغ إلى ابن سون أرهو الواقف بجواره، وقال:

- المكوث في المنزل طويلاً أصابه بالهلاوس.

قال الابن:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنا عادة لا أكلف نفسي عناء التحدث إليه عندما يهذي هكذا.

أكمل:

- لديّ عمل أقوم به اليوم، لذلك لن أرافقك. فقط تذكّر أن تغلق الباب من الخارج عندما تغادر، حتى لا يخرج أبي بمفرده ويضل طريقه، فلو ضاع ستكون أنت المسؤول.

بعد أن انتهى من حديثة، استدار وغادر المنزل. لم يعرف مينغ كيف يتصرف، التفت إلى سون وسأله:

- لماذا أرسلت في طلبي؟

- أريد منك فعل أمر مهم من أجلي.

- ما هو؟

- هناك شخص اسمه دونغ العجوز يعيش في مسقط رأسي في يانجين، يجيد قراءة الطالع، أريد منك أن تتصل به وتخبره بتاريخ ميلادي، وتطلب منه أن يقرأ لي الطالع فيما يتعلق بحياتي القادمة. لم أرغب في إزعاجك، لكن ليس لديّ هاتف محمول، وقد طلبت من ابني الاتصال به، لكنه تجاهلني، وعندما أردت الخروج للاتصال به من الشارع، حبسني في المنزل.

أكمل:

- إجراء مكالمة هاتفية لن يكلفك الكثير، ولن يستغرق منك وقتًا طويلاً.

دهش مينغ من كلامه. فعندما أتى إلى هنا، فكّر في سبب طلب سون لقاءه؛ خطرت على باله عشرات الاحتمالات، لكن لم يخطر بباله أبدًا ما يطلبه هذا العجوز الآن، سأله:

- لماذا الحياة القادمة؟

- حياتي الحالية هذه سيئة للغاية، انظر كيف انتهى بي الحال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- وماذا تريد أن تكون في حياتك القادمة؟

- أي شيء، المهم ألا تشبه هذه الحياة.

- لا تريد أن تكون نفس الشخص في حياتك القادمة، أليس كذلك؟

أومأ سون برأسه موافقًا، ثم أخرج من جيبه دفترًا مهترئًا بحجم كف اليد، وقال:

- هذا الدفتر مدون داخله رقم هاتف دونغ العجوز، لقد دونته هنا عندما ذهبت إلى يانجين قبل عشر سنوات، حينها طلبت منه أن يقرأ لي الطالع لمعرفة من سرق شاحنتي، ونسيت أن أطلب منه قراءة الطالع بخصوص حياتي القادمة.

قبل عشرين عامًا طلب مينغ من دونغ العجوز أن يخبره بحياة سون السابقة، فعلم أنه كان قطًا؛ لدى مينغ فضول بشأن حياة سون القادمة.

دونغ قوانغ شنغ ابن دونغ العجوز ومينغ ليانغ كانا زميلي دراسة، وبالتالي فلدى مينغ رقم هاتفه، لكنه فضّل التظاهر بالنظر في دفتر سون، ثم أخرج هاتفه المحمول، وهاتف زميله القديم، ثم أخبره بطلب سون أرهو فأجاب أن والده يقرأ الطالع فقط، ولا علم له بالحياة القادمة. تذكّر مينغ قواعد العراف العجوز في قراءة الطالع، إنه يقول إنه لا شأن له بالقادم، يفعل هذا ليس فقط من أجل كتم الأسرار الغيبية، ولكن أيضًا من أجل مصلحة الناس. لو علمت بشأن حياتك السابقة والحالية والقادمة، فما الهدف من الحياة إذن؟ بعدما سمع ما قاله زميله، غطى مينغ هاتفه بيده وقال لسون:

- الإشارة داخل المنزل ضعيفة، سأخرج إلى الشرفة.

عندما وصل إلى الشرفة، أغلق بابها وقال:

- أبوك بإمكانه ألا يخبر الطيبين بشأن حياتهم القادمة، لكن لا ضرر لو كشف للأشرار عن مصيرهم.

- مَن هذا الشخص؟

- قبل عشرين عامًا طلبت من أبيك قراءة الطالع الخاص بهذا الشخص، فأخبرني أنه عاش قطًا في حياته السابقة، لقد أذاقني وزوجتي مُر المعاناة في شيآن. وقبل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عشر سنوات أيضًا طلب من أبيك أن يقرأ له الطالع ليعرف من سرق شاحنته، سأسأله عن تاريخ ميلاده على الفور، ثم أخبرك به.

- أنا أفهم ما تقصده، لكن حتى لو وافق والدي على قراءة الطالع له في حياته القادمة، فتاريخ الميلاد وحده غير كافٍ.

- لماذا؟

- لقد أصيب بنزلة برد العام الماضي. في البداية، اعوجّ فمه، ولكن لاحقًا لم يعد يقدر حتى على شرب الماء، وهو الآن لم يعد قادرًا على الكلام.

- وهل من الممكن أن نسأله عن هذا الأمر؟

- لا يستطيع التحدث، لكن يمكنه عمل الاتصال المباشر.

- كيف ذلك؟

- الاتصال المباشر يحدث عبر وسيط، ويمكن لأبي استخدام لغة الإشارة.

- لنطلب منه القيام بالاتصال المباشر إذن.

- هذا ما أحاول شرحه لك، الاتصال المباشر يختلف عن قراءة الطالع، فتاريخ الميلاد كافٍ للأول، أما الثاني فيتطلب وجود صاحب الشأن في المكان.

- يعاني سون من الخرف، كما أن ابنه يحبسه في المنزل ولا يسمح له بالخروج، فكيف يمكنه إحضاره إلى يانجين؟ وهل من طريقة أخرى غير هذه؟

- لا يوجد حل سوى قص خصلة من شعره وإحضارها.

- هل يمكن للشعر أن يحل محله؟

- المعلومات التي تخص الناس كلها موجودة في شعرهم.

عاد مينغ من الشرفة إلى الغرفة، وأخبر سون أرهو بما قيل، صاح على الفور:

- أحضر المقص!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أكمل:

- سيهاي، لقد وهن جسدي لدرجة أنني أخشى ألا أتمكن من الذهاب إلى يانجين، لذلك خذ شعري واطلب من دونغ إجراء الاتصال المباشر، وإلا فلن يهدأ لي بال حتى بعدما أموت.

أضاف:

- لا تقلق، سأدفع لك نفقات السفر وتكلفة الاتصال المباشر أيضًا.

تردد مينغ قليلاً، قال:

- هل يمكنك الاستعانة بشخص آخر بدلاً مني، نحن في نهاية الشهر ولديّ الكثير من المشاغل.

- لا.

- لماذا؟

- لا يمكنني الوثوق بالآخرين. لقد جلست في هذه الغرفة لمدة ثلاث أو أربع سنوات، فهل جاء أي شخص لرؤيتي؟ أنت فقط يا سيهاي.

قبل أن ينهض مينغ لإحضار المقص قام سون، سحب مقصًا من الدرج، ثم سار إلى المرآة، أمسك شعره بإحدى يديه وأمسك المقص باليد الأخرى، ثم قص خصلة كبيرة من شعره وأعطاها إلى مينغ.

- عليك أن تذهب على الفور، فالوقت لا ينتظر أحدًا.

لا خيار لمينغ إلا الذهاب، أخذ خصلة الشعر وغادر.

5

رغم أن مينغ قد وعد سون أرهو بالذهاب إلى يانجين فورًا، فإنه لم يذهب على الفور لسببين، الأول أن سون شخص مصاب بالخرف، ولا يأخذ كلامه عن وفاته قبل العام القادم على محمل الجد؛ والثاني أن هذا الرجل ليس صديقه حقًا لينفذ له ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أراد بسرعة، إنه عدوه، وقد ذهب لزيارته ليتذكر كلبه، أي شخص غير مينغ لن ينفذ ما يطلبه منه خصمه. بالإضافة إلى ذلك، لم يتحدث معه سون على أنه مينغ، بل على هو بالنسبة له سيهاي، فلماذا يأخذ مينغ كلامًا وجّهه سون إلى سيهاي على محمل الجد؟

لا يزال مينغ يحتفظ في شرفة منزله ببيت الكلب سون الذي مات قبل خمس سنوات. بعدما عاد إلى بيته ألقى بخصلة الشعر داخل بيت الكلب، وبهذا ترك هذه المهمة جانبًا. في البداية ظل يتذكرها، لكن بعد مدة تراكم عليه العمل، تراخت عزيمته حيال الذهاب، نسي الأمر تدريجيًا.

قبل عيد منتصف الخريف من ذاك العام، تلقى مينغ مكالمة هاتفية من ويوي، أخبرته فيها أن تشن تشانغ يون ابن عم والده اتصل وأبلغهم أن الحكومة ستبني طريقًا سريعًا يربط بين مدينة جيوان في خنان ومدينة هيزي في شاندونغ، وأن هذا الطريق سيمر عبر يانجين، وتصادف أن أحد أجزائه سيمر بمقابر أسلاف العائلة حيث دُفن جداه؛ والحكومة تحث الجميع الآن على نقل مقابرهم من هناك إلى مقابر جديدة وفرتها لهم بجوار النهر الأصفر. قالت أيضًا إنه عندما سمع الوالد بهذا الأمر أصر على العودة إلى يانجين، لكنه لا يزال طريح الفراش في المستشفى، وأنهم قلقون من عدم قدرته على تحمل مشاق الطريق، ولو حدث أن أصابه مكروه فستكون العواقب وخيمة، لذلك اتصلت به لترى إمكانية ذهابه إلى يانجين. ولأن الأمر يتعلق بجده وجدته فقد قرر الذهاب على الفور، فقبل أكثر من أربعين عامًا ذهبت جدته إلى ووهان لزيارته قبل وفاتها، وعندما ماتت عاد أبوه إلى يانجين لحضور جنازتها، وقد أراد مينغ حينها الذهاب معه، لكن والده رفض خوفًا من تعطيل واجباته المدرسية، فهرب وركب القطار بمفرده، ولأنه ركب القطار الخاطئ وصل إلى مدينة تشوتشو ثم نزل وسار على خط السكة الحديد عائدًا إلى يانجين، حيث استغرق الأمر منه شهرين كاملين.

قال مينغ لويوي:

- لا تقلقي حيال ذلك، سأذهب، أخبري أبي أن يطمئن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد عودته إلى المنزل، تناقش في الأمر مع شياومنغ التي شجّعته على الذهاب بسرعة. وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي، حزم أمتعته وانطلق إلى يانجين. قبل عشرين عامًا استقل مينغ وزوجته القطار الأخضر تاركين يانجين إلى شيآن في رحلة استغرقت يومًا وليلة، والآن بعد أن ظهر القطار فائق السرعة لم تعد الرحلة تستغرق سوى أربع ساعات للسفر.

بعد وصوله لم يرغب مينغ في النزول في بيت أي من زملائه أو أصدقائه، فبجانب رغبته في عدم إزعاج الآخرين فهو يفضل الإقامة بمفردة، اختار فندقًا عند أحد تقاطعات الشارع الرئيسي. شعر بالجوع، لم يتناول الغداء بعد، خرج من الفندق وسار من التقاطع متجهًا إلى الشارع الغربي. تغيرت المدينة، لم يزرها منذ عشرين عامًا. لم يعرف أحدًا ممن قابلهم في الشارع، وبالطبع لم يعرفه أحد. بدا كل شيء غريبًا، بما في ذلك مينغ. شاهد لافتة مطعم مكتوبًا عليها: خبز محمص، وحساء أعضاء الخروف، إنها أطعمة لطالما فضّلها في طفولته، دخل إلى المطعم المزدحم، جلس، طلب قطعتي خبز ووعاء من حساء أعضاء الخروف. أثناء انتظاره الطعام سمع بعض الجالسين بجواره يتحدثون عن وفاة العراف دونغ. فوجئ، قاطعهم على عجل:

- أخي، هل تقصد دونغ العجوز الذي يسكن في زقاق الجنادب؟

- نعم.

- متى؟

- لقد دُفن أمس.

عندما سمع بخبر الوفاة، تذكّر نفسه في عمر السادسة عشرة حين عجز والده عن تحمل نفقات دراسته، فغادر منزل يانشنغ وذهب للعمل في «المارشال»، ثم التقى بذلك العراف داخل المطعم. وعندما أخبره مينغ بما حدث معه خبط الأرض بقدمه وقال إنه علم بهذا الأمر في وقت سابق لتولي مسؤولية تعليمه، لو حدث ذلك حينها لانتقل إلى منزل دونغ ليعيش رفقة أسرته. أحضر النادل الأكل، تناوله مينغ، لم يشعر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بطعم الخبز أو الحساء في فمه، فنهض ودفع الحساب ثم خرج متجهًا إلى زقاق الجنادب.

عندما وصل إلى منزل دونغ شاهد ابنه يمسك بمكنسة وينظف الفناء، وجد أمامه أكوامًا من رماد الورق الجنائزي المحترق وحطام المفرقعات النارية، فعلم أن هذه آثار الجنازة، صاح يقول:

- دونغ قوانغ شنغ.

رفع زميله رأسه، ذهل للحظة. عندما استوعب رؤيته لمينغ، انتابته رغبة في البكاء، ألقى بالمكنسة وهرع يستقبله ويسأله متى عاد؟

- عدت للتو.

- لم أبكِ قبل مجيئك، لكن عندما رأيتك انتابتني رغبة في البكاء.

قالها وبكى، شعر مينغ برغبة في البكاء أيضًا. بعد انتهاء الدموع سأله عن سبب عودته إلى يانجين، فعرّفه مينغ بأمر نقل المقابر، ثم سأله عن سبب وفاة أبيه.

- لم يُصَب بأي مرض مفاجئ، فقط أمال رأسه ومات، حدث ذلك أثناء إجرائه اتصالاً مباشرًا وهو يرتدي زي الكاهن.

فكّر مينغ، سأل نفسه: هل علم ذلك العرّاف الأعمى بطريقة موته؟ ثم واسى زميله قائلاً:

- أعلم أنك حزين، لكن عزاءك أنه رحل سريعًا دون معاناة، يمكن اعتبارها ميتة مريحة.

- ليس بوسعي سوى التفكير بالطريقة ذاتها.

- هل سترث مهنته وتمارس العرافة وقراءة الطالع؟

- أرغب في ذلك، لكن ليس لديّ القدرة.

- كيف؟ لقد عملت معه لفترة طويلة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- العرافة تتطلب بصيرة ثاقبة، ولا علاقة لها بطول الوقت أو قصره؛ لا تنظر إلى والدي كرجل أعمى، فهو يمتلك بصيرة نافذة، أما أنا فلا، ولو مارست العرافة سأكون مخادعًا، يمكن خداع الناس بطرق أخرى، لكن خداعهم بطالع مزيف أمر مشين.

تنهّد مينغ متحسرًا، فعلى ما يبدو أن مهنة العرافة هنا ستندثر من الآن فصاعدًا. تذكّر فجأة طلب سون الذي يستحيل تنفيذه الآن بوفاة دونغ، لن يعرف هذا المخرف كيف ستبدو حياته القادمة. تذكّر أيضًا أنه نسي إحضار خصلة شعره أثناء مغادرته، وهذا يعني استحالة تنفيذ المهمة حتى لو بقي دونغ على قيد الحياة.

- لقد ظل أبوك يقرأ الطالع للآخرين طيلة حياته، فهل سألته من قبل كيف ستكون حياته القادمة؟

- سألته، أخبرني أنه لن يصاب بالعمى فيها.

- هل سألته عن عمله القادم؟

- نعم، لكنه قال إن هذه الأسرار لا يمكن تسريبها.

أضاف:

- قال فقط إننا سنتقابل يومًا ما داخل محطة قطار خلال الحياة القادمة.

في الماضي، حكت جدة مينغ له عن رؤيتها لوالدها من الخلف داخل السوق بعد سنوات عديدة من وفاته. قال مينغ:

- هذا هو القدَر.

ثم سأل:

- بما أنك لن تعمل في قراءة الطالع، فماذا ستفعل بعد وفاة والدك؟

- ما زلت أفكر، هل تتذكر فنغ مينغ تشاو زميلنا في المدرسة الإعدادية؟

- بالتأكيد، إنه من علمني العزف على الناي أثناء المدرسة الإعدادية، كما جاء من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تشنغتشو خصيصًا لحضور حفل زواجي.

- عمل كمندوب تسويق في أحد متاجر مدينة تشنغتشو، ثم ذهب للعمل في مطعم ياباني في مدينة شنغهاي، جاء يعزيني أمس الأول، وعندما رأى فناء منزلي قال إنه يتمتع بطاقة مكانية رائعة، ويريد مشاركتي في فتح مطعم ياباني هنا. إنه الأول من نوعه في يانجين.

أكمل:

- أعتقد أنه لم تعد هناك فائدة لهذا الفناء بعد وفاة والدي، لذلك أفكر في استغلاله، وبما أنك تدير مطعمًا، فهل ترى المشروع مجديًا؟

تحوّل المكان الذي مارس فيه دونغ العجوز العرافة في الماضي إلى مطعم ياباني أمر لم يتخيله مينغ أبدًا؛ هل علم بذلك؟ فكر في إجابة للسؤال، كون المطعم الأول من نوعه يعطي أفضلية كبيرة للنجاح، لكن ذلك قد يجعله فاشلاً أيضًا؛ أجاب:

- للإجابة عن هذا السؤال يجب معرفة هل يفضل الناس في يانجين تناول الساشيمي الياباني أم لا.

هناك أكثر من مائتي شخص مدفونين في مقابر أسلاف عائلة مينغ. يقال إن أولى هذه المقابر وُضعت لبنتها خلال فترة حكم الإمبراطور تشيان لونغ في عهد أسرة تشينغ قبل مئات السنين، ثم تجمعت قبور الأحفاد لاحقًا. ومنذ ذلك الحين وصولاً إلى الوقت الحاضر، تعاقب على هذه المقابر أكثر من عشرة أجيال. امتدت الروابط بين أحفاد الأجيال ممن بقوا في يانجين، لكن أولئك الذين غادروا يانجين صاروا غرباء عن بعضهم البعض، ما يجمعهم فقط كونهم أحفاد سلف واحد، وأنهم ينحدرون من عائلة تشن. بعدما ودّع مينغ زميله ذهب لمقابلة ابن عم والده الذي اصطحبه لمعاينة الموقع الجديد للمقبرة، المكان محاط بالتلال الخضراء ويواجه النهر الأصفر، والمناظر حوله رائعة. قال ابن عم والده إن المناظر ليست خلابة فحسب، بل سمع من أحد العرافين أن الطاقة المكانية لهذا الموقع رائعة؛ وبسبب هذه المميزات، بالإضافة إلى التعويضات التي ستدفعها الحكومة، وافق الجميع على نقل مقابرهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد الظهيرة تجمّع أكثر من مائة فرد من أحفاد عائلة تشن في فناء منزل تشن تشانغ يون الذي قال:

- بداية من الجد الأكبر لعائلة تشن، وبعد أكثر من عشرة أجيال، هناك الآن ستة وعشرون فرعًا لعائلة تشن؛ ولتجنب الفوضى سيُلزم فرد من كل فرع بنقل المقبرة الخاصة بعائلته، لكن هناك مشكلة واحدة فقط، تشن تشوانكوي، المسؤول عن نقل مقبرة عائلته نيابة عن أحد الفروع، لديه عمل طارئ في مستودع النفط في مقاطعة قانسو، ولن يعود إلا بعد أربعة أيام، فهل ننتظره؟ أعتقد أنه علينا انتظاره. فلو نقل الجميع مقابرهم وبقيت تلك المقبرة وحيدة هنا، ستصبح محط سخرية الآخرين.

وأضاف:

- نحن جميعًا أبناء سلف واحد، والانتظار لأربعة أيام فقط مقبول، فما رأيكم؟

قال الحضور:

- دعنا ننتظر، ليست سوى أربعة أيام فقط.

لم يعرف مينغ كيف يتصرف. لو تأخر نقل المقابر لمدة عشرة أيام أو أسبوعين، يمكنه العودة، لكنها أربعة أيام فقط، هاتف شياومنغ يستشيرها، فقالت:

- لا داعي لتكبّد مشقة السفر ذهابًا وإيابًا، ليس هناك ما يتطلب وجودك في المطعم هذه الأيام، يمكنك أيضًا الاستفادة من هذا الوقت لتستريح ليومين.

- لكن عيد منتصف الخريف يتخلل هذه الأيام.

- لا ضرر لو لم نحتفل به هذا العام.

شعر بمنطقية ما قالته زوجته. يبدو أن الصدفة دفعته لقضاء عيد منتصف الخريف في يانجين. أنهى المكالمة وتوجّه سيرًا نحو معبر يانجين. وصل إلى المعبر قرب المساء، رأى قرص الشمس يغرب فوق النهر الأصفر، توهجت المياه بضوء ذهبي يتدحرج باتجاه الشرق. مشى مينغ على امتداد الشاطئ، فاكتشف أن متجر بقالة والد زوجته قد تحول الآن إلى ملهى ليلي. لافتته مصنوعة من مصابيح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النيون التي تومض باسم الملهى المكتوب بالإنجليزية: ملهى باريس الليلي (Paris Nightclub). في هذا المكان عاشت أسرة زوجته في الماضي، وفي عامها الخامس عشر تحرش بها زوج أمها، وبسببه ذهبت للعيش في السكن المدرسي، ووقعت في حب زميلها، وفشلت في اجتياز امتحان القبول الجامعي، بعد ذلك ذهبت إلى بكين، وعملت في الدعارة. كل هذه الأحداث الماضية مرتبطة بفعل أمها. وها قد مرت الأعوام في غمضة عين، رحل العجوز، رحلت حماته، ورحل الماضي أيضًا. لدى زوجته أخ غير شقيق يعمل في منجم جياوتزو، ابنه يعمل الآن لدى مينغ ليانغ في مطعم المارشال. بينما مينغ يفكر في هذه الأمور، خرج من الملهى الليلي رجل وامرأة؛ الرجل شعره مقصوص على طريقة الموهوك، والمرأة ترتدي قميصًا خفيفًا بلا أكمام؛ لوّحت المرأة للرجل تودعه، ثم سارت باتجاه مركز المدينة، مال الرجل بجسده على تمثال الأسد الحجري عند باب الملهى، أخرج سيجارة وأشعلها؛ حدّق الرجل في مينغ الذي تجاهله، قال الرجل:

- هل أنت مينغ ليانغ؟

ألقى مينغ نظرة فاحصة، اكتشف أن هذا الشخص هو سيما نيو الصغير زميله في المدرسة الإعدادية. كان الاثنان في نفس الصف، لكن في فصول مختلفة. أبوه المعلم سيما نيو الذي درس الكيمياء في فصل مينغ. قال مندهشًا:

- هل أنت سيما نيو الصغير؟ مضت أكثر من ثلاثين عامًا، كما أن قصة شعرك مختلفة عن الماضي، لم أتعرّف عليك.

- متى عدت؟

- هذا الصباح.

أخبره بأمر نقل مقابر أسرته لبناء الطريق السريع. اعتقد مينغ أن زميله جاء ليلهو هنا، فقال:

- الليل لم يحل بعد، أليس الوقت مبكرًا على المجيء إلى الملهى؟

- أنا مالك الملهى، لم يحن وقت مجيء الزبائن بعد، لذلك خرجت أشم بعض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهواء.

- يبدو المكان فخمًا للغاية، من المؤكد أنه عمل مربح.

- ليس كما تظن، فالزبائن في يانجين لا يمكن مقارنتهم بالزبائن في المدن الكبيرة.

- وكيف حال أبيك؟

- لقد توفي العام الماضي.

- لم أتوقع ذلك، أتذكّر أن صحته كانت على ما يرام.

تذكّر مينغ رغبة المعلم سيما نيو في كتابة سيرة هوا آرنيانغ التي تزور الناس في أحلامهم بحثًا عن النكات، وتقتل الكثير منهم. خلال دروس الكيمياء، غالبًا ما تطرّق المعلم للحديث عنها أثناء شرحه للتفاعلات الكيميائية، وعادة ما يقول إنه يريد كتابة سيرتها. ليس فقط لسرد أفعالها، بل أيضًا بهدف دراسة التفاعل الكيميائي بين هوا آرنيانغ ومدينة يانجين بسبب النكات؛ سأل:

- أتذكّر رغبة أبيك في تدوين سيرة هوا آرنيانغ، فهل انتهى من كتابتها قبل موته؟

- لقد جمع الكثير من المراجع طوال حياته، حتى إن هذه المراجع صارت مكدّسة مثل كومة قش، لكنه لم يشرع أبدًا في الكتابة. لازمه دومًا إحساس عدم كفاية هذه المراجع؛ ما إن يبدأ في كتابة بضع جمل حتى يتوقف.

- هذا أمر مؤسف، وأين المراجع التي تركها؟

- أحرقتها أمي يوم وفاته بدلاً من حرق الورق الجنائزي.

- بهذه السهولة تُحرق المراجع التي أفنى حياته في جمعها!

- لا أحد يهتم بهذه الأشياء سوى أبي، هو فقط من يعتبرها كنزًا، بالإضافة لذلك فترك المراجع التي تخص هوا آرنيانغ في منزلنا كارثة، ألسنا بذلك ندعوها لزيارتنا في أحلامنا؟

شعر أن ما قاله سيما معقول، سأله:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لقد قلت للتو إن والدك كتب مقدمة لهذا الكتاب، فما الذي كتبه فيها؟

- لقد أحرقت أمي كل الأشياء، كيف لي أن أعرف؟

يبدو أن كتاب المعلم قد أصبح من الماضي مثله مثل بقالة زوج أم شياومنغ، ولا جدوى من الحديث عن شيء لم يعد موجودًا. تحدثا على عجل عن بعض الأمور الأخرى، ثم ودعا بعضهما، استمر مينغ في طريقه. سار حتى وصل شارع المأكولات الخفيفة قرب المعبر. داهمه الجوع، تذكّر أنه لم يشبع وقت الغداء. نظر إلى الساعة فوجدها تجاوزت السادسة مساءً، وحان وقت العشاء. رأى لافتة على باب مطعم عليها: كعك كايفنغ، وحساء الفلفل الحار. لم يتذوق هذا النوع من الكعك والحساء منذ وقت طويل؛ كما أن هذا المطعم يضع طاولاته بالخارج أسفل شجرة صفصاف كبيرة، حيث تهب الرياح المسائية المنعشة. توقف عند مدخل المطعم، رأى رجلاً وامرأة مشغولين بطهو الكعك، ورأى قِدراً من حساء الفلفل الحار يغلي فوق الموقد. تقدّم وسأل الرجل:

- أخي، هل أنت من يانجين؟

رد الرجل وهو يضع الخبز في الفرن:

- كيف يمكن لشخص من يانجين طهو كعك كايفنغ الأصلي؟ أنا من مدينة كايفنغ.

ابتسم مينغ، جلس على طاولة أسفل شجرة الصفصاف، وطلب بعض الكعك وطبقًا من حساء الفلفل الحار. رأى رجلاً في منتصف العمر يتصبب عرقاً بغزارة، يحمل أمتعته على ظهره، ويمسك بسوط في يده ساحبًا قردًا خلفه. حول عنق القرد حلقة بها سلسلة حديدية، بدا واضحًا أنه قرداتي؛ تطلّع الرجل حوله ثم جلس أخيرًا على طاولة بجوار مينغ الذي لم يكترث لوجوده. وبشكل مفاجئ، وقف الرجل، وهوى بالسوط على جسد القرد يضربه دون مقدمات. صرخ القرد وتقافز من مكانه، لكن الطوق منعه من القفز بعيدًا. ومع كل ضربة يزداد غضب الرجل، استمر في ضرب القرد حتى سالت الدماء من جسده ورأسه. لم يُطق مينغ تحمُّل ما يجري، فقال:

- لماذا تضربه بهذه القسوة؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مسح الرجل العرق من على جبينه، أجاب:

- إنه ماكر. في كل مرة أطلب منه أن يدور عشر مرات، يخدعني ويدور ثمانية؛ وعندما أطلب منه أن يتشقلب عشرين مرة، يخدعني ويتشقلب خمس عشرة؛ من يكتشفون أمره، يعلمون أنه ماكر؛ ومن لا يكتشفون أمره، يعتقدون أنني أخدعهم، هذا ما يغضبني، إنه يشوه سمعتي؟

- كم عمره؟

- اشتريته منذ خمسة عشر عامًا.

إن متوسط عمر القرد خمسة عشر عامًا، لقد تقدم في العمر، هكذا فكر مينغ ثم قال:

- ربما لأنه كبر في السن، وأرجله لم تعد قادرة على الحركة والركض كالسابق.

- ولماذا يركض بمجرد أن أضربه؟ إنه ماكر.

وبينما يتكلم الرجل، بدا عليه الغضب مرة أخرى، هوى بالسوط على جسد القرد، فقفز القرد يصرخ ثانية. قال مينغ:

- أنت رجل كثير الترحال والخبرات، لا تجعل قردًا كهذا يعكر مزاجك، وإلا فلن تتمكن حتى من الاستمتاع بوجبتك.

توقف الرجل عن ضرب القرد، ربطه إلى شجرة الصفصاف وهو يقول:

- سأصفي حسابي معك لاحقًا.

ارتجف القرد من شده الخوف. وبعد فترة من اللهاث، خفض رأسه ليلعق الدم الذي يسيل على جسده. نظر إلى القرد، القشور الصلبة على مؤخرته وباطن قدمه سميكة كالعملات المعدنية النحاسية، تتخللها طبقات من الشقوق، تأكد أنه ليس صغيرًا في السن، بالمقاييس الإنسانية هو في عمر مينغ ليانغ الحالي. قرد كهذا كبر في السن ما زال يؤدي أعمالاً بهلوانية أمام الجمهور، يتعرض للضرب؛ هذه الأمور جعلته يتنهّد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حزنًا عليه. في تلك الأثناء جاءت عاملة المطعم تحمل طبقًا من الكعك، وسألت:

- سيدي، هل تريد تناول حساء الفلفل الحار مع الكعك أم بعد قليل؟

- بعد أن أنتهي من الكعك، فأنا أحبه ساخنًا.

التقط كعكة من الطبق وأخذ قضمة، حشو الكعكة طري ولذيذ يتفوق على المباع في شيآن، نظر إلى القرد، فوجده يحدق فيه بضعف شديد. شعر نحوه بالشفقة، التقط كعكة ومدّها له، لكن القرد لم يجرؤ على أخذها، تطلّع إلى صاحبه، الذي صاح فيه:

- خذها.

تناولها، أكمل الرجل صياحه قائلاً:

- لماذا لا تشكره؟

سارع القرد يرفع رأسه ممسكًا الكعكة في يده، انحنى أمام مينغ يؤدي التحية، فسارع مينغ ليانغ يقول:

- لا داعي للشكر، إنها مجرد كعكة.

أحنى القرد رأسه ثانية وانهمك في الأكل.

بعدما انتهى من تناول وجبته، نهض مغادرًا، طالع صاحب القرد الذي ما زال يحتسي الخمر، بينما نام القرد مستندًا على شجرة الصفصاف واضعًا يديه على بطنه.

في صباح اليوم التالي ذهب مينغ إلى منزل يانشنغ لزيارته، لقد ترعرع في بيته، ولو لم يذهب لمطعم المارشال حين ترك الدراسة في عمر السادسة عشرة لما امتلك الآن ستة مطاعم في شيآن، كما أنه لن ينسى أبدًا العشرين يوانًا التي أعطاها له عندما زارهم واستخدمها مينغ مع بقية مدخراته في ركوب القطار إلى يانجين، لكنه استقل القطار الخاطئ وقتها.

وصل إلى هناك، لا يزال المنزل نفسه الذي عاش فيه قبل أكثر من أربعين عامًا. بدا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

له أقدم وأقل ارتفاعًا، لاحظ نافذة فُتحت في الجدار المواجه للشارع، لتحول المنزل إلى محل بقالة. تذكّر وظيفة يانشنغ في شبابه، عمل ببيع صلصة الصويا والخل والمخللات والتوفو واليانسون في متجر البقالة بالشارع الشرقي.

قبل ذهابه، سمع بإصابة يانشنغ بالتهاب العظم الذي يسبب ألمًا لا يُحتمل. في إحدى الليالي لم يتحمل الوجع، نهض من سريره عاريًا، خرج من الغرفة، صعد الدرج نحو السطح، ثم قفز راغبًا الانتحار، لكنه لم يمت، كُسرت ساقه فقط.

في طريقه إلى يانشنغ اشترى مينغ أربع زجاجات من النبيذ وأربع عبوات من السجائر. وعندما دخل للمنزل رأى سريرًا عند أحد جوانب متجر البقالة، يستلقي عليه يانشنغ، بينما جلست زوجته شياوفنغ خلف الطاولة، تطرز وتنتظر الزبائن. نادي مينغ:

- عمي! عمتي!

ذهل الزوجان. نهض يانشنغ من سريره وسأله:

- متى عدت؟

- أمس.

تدخلت زوجته قائلة:

- أثقلت على نفسك، لا داعي لإحضار هذه الأغراض.

سأله يانشنغ:

- سمعت أنني قفزت من أعلى السطح، أليس كذلك؟

علقت شياوفنغ:

- كلما قابل شخصًا سأله عن الأمر، وكأنه حقق إنجازًا كبيرًا.

- كفي عن الثرثرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- مَن الثرثار؟ أنت من قلت ذلك أولاً.

قاطعهما مينغ:

- عمي، لقد سمعت بالأمر، ما فعلته خطأ.

- أنا حقًا عديم الفائدة، أردت أن أموت، لكنني فشلت.

أكمل:

- جعلت من حياتي مزحة.

تذكّر مينغ أن والده قال نفس العبارة عندما جلسا معًا في حديقة مستشفى قاطرات ووهان.

أثناء حديثهم، رأى مينغ صورة معلقة على حائط محل البقالة تجمع يانشنغ وتشن تشانغ جيه وينغ تاو وهم يؤدون مسرحية أسطورة الأفعى البيضاء، صورة عمرها أكثر من خمسين عامًا، هذه الأعوام جعلت الصورة صفراء باهتة، تعلوها البقع، بها العديد من الثقوب. لاحظ يانشنغ تطلعه إلى الصورة فقال:

- في العام الماضي، هُدم المسرح القديم لبناء مبنى تجاري مكانه.

أكمل:

- المخزن ضم مجموعة من الملصقات القديمة. رئيس العمال المسؤول عن هدم المسرح هو ابن أخت عمتك، وقد أخبرها بشأن الملصقات فذهبت وأخذت واحدًا.

- لقد كنت في ريعان شبابك.

- لم أتوقع أبدًا أن تصل حياتي إلى ما هي عليه الآن.

قالت زوجته:

- مينغ ليانغ، أتذكّر حبك للمشروبات الغازية. لدينا منها في بقالتنا، فهل تريد واحدة؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- معدتي لم تعد على ما يرام، كما أن المياه الغازية باردة جدًا، لا أستطيع شربها.

قال يانشنغ:

- منذ ستة أشهر اتصلت بي ابنة زوجة أبيك وسألت عن رقم هاتفك. أخبرتني أن والدك يمر بوعكة ويريدك أن تذهب لزيارته، فهل فعلت؟

- نعم.

- وهل تحسنت صحته؟

لم يرغب مينغ في إخبار يانشنغ بالوضع الصحي الحقيقي لوالده لسببين: أولهما أن يانشنغ طلب من مينغ الذهاب للعمل وهو في سن السادسة عشرة، مما جعل والده لا يزال غاضبًا من صديقه حتى الآن؛ وثانيهما أن كلا الصديقين مريض الآن، وليس باستطاعة أي منهما مساعدة الآخر؛ لذلك شعر أن الحديث كثيرًا لا فائدة منه؛ قال:

- عانى من نزلة برد لذا مكث في المستشفى لبضعة أيام، وقد أصبح بخير.

- هذا نبأ سار. لقد قلقت بشأنه.

- قال أبي أيضًا إنه يخطط للعودة إلى يانجين الربيع المقبل.

- لقد آن الأوان كي يعود، عندما يفعل سأدعوه لتناول الكوارع.

بعد ظهر ذلك اليوم ذهب مينغ إلى دار يانجين للمسنين لزيارة قو باوتشن والد زميل دراسته قو تسيكاي. قو باوتشن عمل في الماضي في كنس الشوارع، عشق المقامرة، وقد قرأ العجوز الطالع له، وأخبره أنه عمل وزيرًا في حياته السابقة. قبل عشرين عامًا ذهب قو تسيكاي للدراسة في المملكة المتحدة، وقبل مغادرته ذهب إلى مدينة باوجي لزيارة أحد أساتذته، وفي طريق عودته ذهب إلى شيآن لزيارة مينغ. يومها شربا حتى الثمالة، ولم ينقطع التواصل بينهما بعد ذلك. في البداية تبادلا الرسائل المكتوبة، ومن خلال تلك الرسائل علم مينغ أن زميله قد حاز على الدكتوراه، وتحصل على وظيفة في لندن، وتزوج من امرأة إنجليزية، أنجبت له طفلين؛ وبعدما صار لديهما هواتف محمولة، وحساب على تطبيق ويتشات، تواصلا من خلاله، شاهد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مينغ صورة جماعية تجمع قو تسيكاي مع زوجته الجميلة وطفليه، وها قد مرت أكثر من عشرين عامًا في غمضة عين.

وصل مينغ ليانغ إلى دار المسنين، وجد قو باوتشن جالسًا على السرير يحك رأسه. قالت الممرضة إنه يعاني الآن من تصلب الشرايين الدماغي، وبعض أعراض الخرف، ولا يتحدث كثيرًا، وعندما يتحدث ينطق ببعض العبارات المعتادة في صالات القمار، مثل: «حان دورك للعب، هيا أسرع!».

جلس مينغ بجانب السرير، لم يتعرّف عليه العجوز. أخبره مينغ بالعلاقة التي تربطه بابنه قو تسيكاي، لكنه لم يستوعب ما قاله. أخرج مينغ هاتفه، فتح التطبيق المخصص للتوقيت العالمي، ليعرف التوقيت في لندن، اكتشف أنهم في الصباح، اتصل بزميله عبر الإنترنت. رد عليه قائلاً:

- لم أتوقع اتصالك، غالبًا ما تحدثني ليلاً.

- خمّن أين أنا؟

- شيآن كبيرة جدًا، كيف لي أن أخمّن؟

- أنا الآن في دار يانجين لرعاية المسنين لزيارة أبيك.

- لم أتوقع ذلك، فلنتحدث فيديو كي أرى أبي، فهو يعاني من الخرف، ولا يعرف كيفية استخدام الهاتف المحمول، لم أتمكن من رؤيته منذ وقت طويل.

اتصل مينغ وحوّل كاميرا الهاتف نحو قو باوتشن، وقال:

- انظر، أبوك بصحة جيدة.

ثم خاطب العجوز:

- عمي! ابنك يريد التحدث إليك.

- أبي، كيف حالك الآن؟

لوّح قوه باوشن بيده وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- توقف عن هذا الهراء، هيا ارم أوراقك!

بدا أن الحديث معه غير مُجدٍ، لذا حوّل مينغ الكاميرا على وجهه وقال:

- بخلاف عقله المشوّش، فهو يتمتع بصحة جيدة.

- يبدو أنه صار سمينًا، يظهر ذلك بوضوح على وجهه، أخبر المسؤولين في الدار ألا يتركوه يأكل على هواه.

- حاضر، كيف أحوالك في لندن؟

- ذهبت للتو إلى المغسلة لتنظيف ملابسي، والآن أسير عائدًا إلى المنزل. انظر، هذا نهر التايمز.

وجّه قو تسيكاي الكاميرا إلى النهر، فرأى مينغ قاربًا يبحر، حرّك الكاميرا إلى الضفة فشاهد رجالاً ونساء بريطانيين وسياحًا من بلدان أخرى يتجولون.

حوّل زميله كاميرا الهاتف إلى جهة أخرى وقال:

- انظر، هذه ساعة بيج بن.

- رأيتها، لندن جميلة حقًا.

- صحيح، لكن عندما رأيت أبي هكذا، شعرت أنه لم يجب أن آتي إلى إنجلترا.

- ماذا تقصد؟ أنت الأكثر نبوغًا بيننا.

- بل الأكثر خيبة. لقد جئت من سنوات عديدة، ولم أتمكن من جعل أبي يقيم معي، وها قد فات الأوان على ذلك الآن بعد إصابته بالخرف.

- من الصعب الجمع بين العمل والعائلة، وأنت تفعل ذلك من أجل مستقبل حياتك المهنية.

- لا يتعلق الأمر بحياتي المهنية، بل بالفوارق الثقافية بشكل أساسي.

- ماذا تقصد؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كما تعلم، تزوجت من امرأة إنجليزية. أردت إحضار أبي للعيش معي قبل بضع سنوات. سألتني: من سيدفع تكاليف السفر؟ قلت: بالطبع أنا. ردت: إذا رغب والدك بالقدوم إلى إنجلترا فيجب عليه تحمل تكاليف السفر. سألتني ثانية: أين سيعيش؟ قلت: بالطبع سيعيش في منزلنا. ردّت: عليه السكن في فندق على نفقته؛ ولو أراد السفر من مانشستر إلى لندن فعليه شراء تذكرة القطار بنفسه. تشاجرنا بسبب الأمر، وتأجل مجيئه، حتى صار أبي يعاني من الخرف.

أكمل:

- أريد العودة للعمل في الصين، لكن إنجلترا صارت عبئًا لا أستطيع التخلص منه، فبخلاف زوجتي، لديّ طفلان. أعيش في مأزق حقيقي، هذه خيبتي التي لم أخبر بها أحدًا من قبل.

تذكّر مينغ ليانغ ما قاله له أبوه في حديقة مستشفى عمال سكة حديد ووهان: «لقد عشت حياتي فقيرًا»؛ كما تذكّر ما قاله فان يوتشي خلال حفل زفاف ابنته، قال:

- اللوم لا يقع على زوجتك، ولا على الفوارق الثقافية.

- وعلى من يقع إذن؟

- على الوقت الخطأ.

- ماذا تعني؟

قال دونغ إن والدك عمل وزيرًا في حياته السابقة. لو كنا نعيش الآن في تلك الحياة، فزيارته إلى المملكة المتحدة ستُعد زيارة رسمية، حينها لن تُضطر إلى تحمّل تكاليف سفره.

- هذا صحيح.

- وعندما يأتي الوزير إلى لندن، لن يسكن في منزلك.

- هذا صحيح أيضًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لو ذهب الوزير إلى رقم 10 شارع داونينج للقاء رئيس الوزراء البريطاني وطلب من زوجتك البريطانية الذهاب معه، فهل ستذهب؟

- بكل تأكيد.

- ولو أعطاها والدك عشرين ألف جنيه إسترليني قبل مغادرته كمصروف جيب، فهل ستقبل هذا المال؟

- بالتأكيد ستقبل.

- هل هذه فوارق ثقافية؟

لم يتمالك قو تسيكاي نفسه وتحدّث بلهجة خنان قائلاً:

- اللعنة.

انخرطا في موجة من الضحك. ثم قال قو تسيكاي:

- مينغ ليانغ، هذا هو أسعد يوم أمضيته هذا العام.

- لديّ شعور آخر.

- ما هو؟

- عندما أفكر في الأحداث السيئة التي وقعت لي في الماضي، والتي اعتقدت أنني لن أتجاوزها، وأتذكّر إحساسي بالاختناق، بعد كل هذا العمر أراها محض هراء.

- لديّ ما أقوله أيضًا.

- ماذا؟

- رغم أنني درست في الخارج، وحصلت على الدكتوراه، لكنك أكثر معرفة مني.

- أنا رجل جاهل، لذا لا تمازحني بهذه الطريقة.

- أقول لك الحقيقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نحن أصدقاء مقربون ونتحدث إلى بعضنا حديث القلب للقلب، وهذا يُشعرني بالسعادة.

أضاف:

- عندما تعود إلى الصين لا بد أن تأتي إلى شيآن لنتناول الكوارع معًا كما اعتدنا.

- بالتأكيد، وسنشرب ثانية حتى الثمالة.

أنهى مينغ المكالمة، وتذكّر أنه دعا قو تسيكاي للمجيء إلى شيآن، لكن صديقه لم يدعُه للذهاب إلى لندن؛ يبدو أنه يخشى زوجته الإنجليزية بالفعل.

في اليوم التالي، والذي وافق عيد منتصف الخريف، سمع تشو العجوز صاحب مطعم المارشال في يانجين بعودة مينغ، فطلب من أحد العاملين الذهاب لدعوته لتناول العشاء معه ليلة عيد منتصف الخريف. في الموعد المحدد ذهب مينغ ليانغ إلى تشو بعد أن اشترى ست زجاجات من النبيذ الفاخر وست عبوات من السجائر من متجر التبغ والكحول عند التقاطع. رأى تشو واقفًا عند مدخل المطعم، تذكّر شعره الغزير وقارنه برأسه الحليق الآن، عندما لاحظه تشو تحسس رأسه الحليق مبتسمًا. قبل أكثر من ثلاثين عامًا عمل مينغ هنا، ولم ينادِ تشو بالمدير أبدًا، بل كان يناديه «السيد» أو «المعلم». وعندما رآه الآن قال:

- أيها المعلم.

رأى تشو الأغراض التي يحملها مينغ في يده، لم يقُل أي شيء عنها، فقط قال:

- عودًا حميدًا، عودًا حميدًا.

لم يصطحب مينغ إلى المطعم، لكنه دار حوله متجهًا إلى الفناء الخلفي للمطعم. جلسا على طاولة جهزها لمينغ تحت شجرة الصفصاف التي علق عليها مصباحًا. قال:

- الأجواء هنا هادئة. لو جلسنا بالداخل، سيتعين عليّ النهوض وإلقاء التحية كلما قابلت شخصًا أعرفه، كما أن هناك ميزة أخرى؛ سيسطع القمر بعد قليل، وسنستمتع برؤيته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- تفكير صائب يا معلمي.

تناولا الشاي، سأله مينغ عن كبار السن الذين عملوا في مطعم المارشال في الماضي، أخبره أن معظمهم قد غادر، كما أن هوانغ الذي علّم مينغ طهو الكوارع تقاعد أيضًا العام الماضي بعد معاناة من مرض في القلب تطلّب تثبيت أربع دعامات، وبعد عيد الربيع هذا العام ذهب إلى مدينة تشينغداو ليقيم مع ابنه الذي يعمل في بيع المأكولات البحرية هناك.

سأله تشو عن أحواله في شيآن، أخبره عن مطاعمه. وبينما يتحدثان جاء شخص لتقديم الطعام على الطاولة. لم يتعرف مينغ ليانغ على هذا الشخص في البداية، ولكن عندما تفحّصه بدقة، اتضح أنه وي الصغير الذي عمل في غسل الكوارع في الماضي. لم يتقابلا منذ أكثر من عشرين عامًا، ابيضّ شعر وي الصغير أيضًا. وعندما جاءه وي ثانية يحمل بقية الأطباق، قال مينغ:

- ألست وي الصغير؟ لماذا لم تتحدث إليّ؟

ابتسم وي وقال:

- رأيتك منخرطًا في الحديث مع المعلم، فكيف لي أن أقاطعكما؟

أكمل:

- رجاء لا تنادِني باسم وي الصغير، لقد أصبحت كبيرًا الآن.

أشار تشو إلى وي وقال:

- لقد أصبح الآن من قدامى العاملين في المطعم، ويدعوه الجميع وي العجوز.

أضاف:

- منذ عشر سنوات أعفيته من مهام غسل الكوارع، وقررت جعله يتعلم طهوها، لكنه لم يفلح في ذلك العمل، وفكرت في إعادته لغسل الكوارع ثانية، لكني راعيت كبر سنه، فأوكلت له تقديم الأطباق للزبائن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابتسم وي بامتنان وقال:

- شكرًا على مراعاة ظروفي.

- عندما عمل في غسل الكوارع تعرّض للتوبيخ؛ والأمر نفسه عندما عمل في طهوها.

- ذاكرتي ضعيفة، وأنسى سريعًا.

وضع وي الأطباق وغادر مسرعًا. علّق تشو قائلاً:

- عندما تحدثت عن توبيخه فرّ هاربًا.

ثم سأل مينغ:

- لقد وبّختك كثيرًا عندما عملت هنا، فهل تحمل أي ضغينة تجاهي؟

- متى وبّختني، لا أتذكّر؟

- ذات مرة أتلفت بعض الكوارع أثناء تنظيفها، حينها لم أوبّخك فحسب، بل ركلتك بقدمي.

- بما أنني أتلفت الكوارع، أستحق الضرب.

أضاف:

- أنا أيضًا أوبخ العاملين لديّ لو ارتكبوا خطأ.

أمسك مينغ بكأس النبيذ ونهض وهو يقول:

- لنشرب نخبك يا سيدي.

- ماذا تقصد؟

- أفكر دومًا أن الفضل يعود إليك فيما وصلت له، فلولا أنني تعلمت هذه المهنة في مطعمك في البداية، لما امتلكت مطعمًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- غير صحيح، لقد عمل لديّ الكثيرون على مر السنين، ولا يوجد واحد منهم حقق مثل نجاحك. أو كما يقول المثل، المعلم يفتح لك الباب فقط، لكن النجاح يعتمد على اجتهادك.

وبينما يتحدثان ويشربان، لاح القمر في السماء مثل طبق جليدي يتلألأ فوق شجرة الصفصاف، فتتمايل ظلالها على الأرض؛ ويسطع على صفحه النهر الواقع خلف المطعم فتتراقص أمواجه. منذ أكثر من عشرين عامًا عمل مينغ وشياومنغ في هذا المطعم، وأثناء فترات الراحة أحب الوقوف على الجانب الآخر من النهر للعزف على الناي. هذا الجانب الآخر صار الآن غابة من حقول الذرة التي لا نهاية لها. هبت رياح قادمة منها، شعر مينغ ببعض البرودة، نهض على عجل وأمسك بمعطف تشو المعلق على ظهر الكرسي ووضعه على كتف العجوز، ثم سأل:

- سيدي، أما زلت تغني الآن؟

- لا للأسف، فصوتي لم يعد كالسابق.

أضاف:

- ليس هذا السبب الوحيد، فانا لم أعد مهتمًا بالأساس، وأنت هل ما زلت تعزف على الناي؟

فكر مينغ قليلاً، لم يعزف على الناي منذ عشر سنوات على الأقل، أجاب:

- مر وقت طويل منذ آخر مرة عزفت، أنا أيضًا لم أعد مهتمًا.

في تلك الأثناء أحضر وي طبقًا من كعك القمر، فأشار له تشو وقال:

- فعلت الشيء الصحيح هذه المرة. نحن في ليلة منتصف الشهر القمري، ومن المفترض أن نتناول هذا الكعك.

- وي، أنت لست غريبًا، اجلس وتناول قطعة.

ابتسم وي، تطلّع إلى تشو الذي قال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- زيارة مينغ لنا فرصة لا تتكرر، وما دام قد طلب منك الجلوس فلتفعل.

ابتسم وي ثم جلس. وبينما يتناولون الكعك استفسر تشو عن سبب عودة مينغ فأخبره مينغ بتفاصيل نقل مقابر عائلته، قال تشو:

- كانت جدتك امرأة عطوف، في صغري لم تكن تبيع كعك العناب، بل التوفو المجفف. عانى جدك من ضعف البصر، لذلك اعتدت أنا ومجموعة من الأطفال الأشقياء على سرقة التوفو منه. ذات مرة أمسك بي وأنا أسرقه، همّ بضربي، لكن جدتك أوقفته قائلة إن هذا الطفل ليس شقيًا، وأفلتُ من عقاب جدك.

- أيها المعلم، لديك ذاكرة جيدة.

- لاحقًا، بدأ جدك وجدتك في بيع كعك العناب اللذيذ عند التقاطع، سمعت من جدتك أنها تصنعه من ثمار العناب التي تطرحها شجرتكم.

- شجرة العناب هذه بلغ عمرها أكثر من مائتي عام، وتنتج عدة أجوله من العناب كل عام، لكن لاحقًا، ماتت جدتي، وماتت الشجرة، ألا تعتقد أن هذا غريب؟

- كل شيء يحدث لسبب.

- بعد ذلك، اختفت شجرة العناب تلك.

- أعرف مكان وجود تلك الشجرة.

قال مينغ بلهفة:

- أين؟

- في ذلك الوقت، بعد أن ماتت الشجرة، قطعها أحد أقارب والدك، ثم باعها لعائلة فان العجوز الذي يعمل نجارًا في تابو، أخذها إلى بيته وقطعها إلى ألواح لصنع الطاولات والكراسي. عائلة جدتي تقطن هناك، وقد ذهبت لزيارتهم قبل بضع سنوات، وسمعت فان يتحدث عن الأمر.

في تلك الليلة، وبينما كان مينغ نائمًا في الفندق، حلم أن جدته جالسة أسفل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شجرة العناب في الفناء تحكي له بعض الحكايات وهي تصنع الكعك، حينها تحولت الشجرة الكبيرة إلى طاولات وكراسي، جلست الجدة رفقته على تلك الكراسي، وتناولا الطعام الذي تكوّن من فطائر البيض المخفوق مع البصل الأخضر المفروم على الطاولة.

6

تابو بلدة تابعة لمدينة يانجين. في وقت مبكر من صباح اليوم التالي استقل مينغ سيارة أجرة ذاهبًا إليها، سأل على منزل فان. وصل إلى هناك، رأى عجوزًا أمام البيت يتكئ على كومة من سيقان الذرة، يستمتع بأشعة الشمس.

تقدم مينغ وألقى عليه التحية، سأله فان:

- من أنت؟

- لن تعرفني، لكنك تعرف أبي. اسمه تشن تشانغ جيه، عمل مغنيًا في أوبرا خنان في يانجين في الماضي.

- عرفته، إنه ممثل مشهور أدى مسرحية أسطورة الأفعى البيضاء.

- سيدي، لقد جئت إليك اليوم لأطلب منك شيئًا.

- ماذا؟

- لقد اشتريت شجرة العناب التي قُطعت من باحة بيتنا بعد وفاة جدتي منذ أكثر من أربعين عامًا؟

- نعم، في ذلك الوقت عرضت دفع خمسين يوانًا، لكن أسرتك أصرت على سبعين يوانًا، تفاوضنا، وفي النهاية دفعت ستين يوانًا.

- هل قطعتها لاحقًا إلى ألواح، وصنعت منها طاولات وكراسي؟

- نعم، فأشجار العناب التي يبلغ عمرها مائتي عام تنتج خشبًا ممتازًا.

- هل ما زالت هذه الطاولات والكراسي موجودة؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا تقصد؟

- أنا أرغب في شرائها بأي ثمن.

- لسوء الحظ لم تعد تلك الأشياء موجودة.

- أين ذهبت؟

- لم تذهب إلى أي مكان. لم تعد موجودة من الأساس.

- كيف؟

- لديّ خمسة أبناء، وزعت عليهم ممتلكات البيت قبل ثلاث سنوات، بما فيها تلك الطاولات والكراسي، لكن هؤلاء الأوغاد ظنوها قديمة وعديمة الفائدة، فأحرقوها كحطب وقود.

تسمّر مينغ ليانغ في مكانه مذهولاً.

- لماذا تريدها؟

- لطالما عاملتني جدتي جيدًا في طفولتي، لذلك وددت الاحتفاظ بها كتذكار، أتطلع إليها كلما افتقدتها.

- فهمت، أنت شخص بار، لكن جئت متأخرًا بكل أسف.

نهض مينغ مودعًا فان الذي تذكّر شيئًا فجأة، قال:

- انتظر.

توقف مينغ، انتبه له.

- صحيح أن الخشب لم يعد موجودًا، لكن هناك قطعة باقية من الشجرة.

- أي قطعة؟

- قلبها، يمتاز قلب شجرة العناب بالصلابة الشديدة، في الماضي استُخدم كأرجل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للمحراث، لذا فمن الإسراف استخدامه في صنع الطاولات والكراسي. احتفظت بتلك القطعة، لكن منذ عشر سنوات، بعتها إلى شخص اسمه جينغ العجوز في بلدة تانغين، أخبرني أنه سيستخدمها لصنع لافتة يعلقها على الباب.

- وماذا كتب على اللافتة؟

- لا أعرف.

ملحق

اللافتة

السيد جينغ من بلدة تانغين التابعة لمدينة آنيانغ، وهي قريبة من أطلال تانغينغ القديمة الشهيرة، لذلك فموقعها ملائم لبيع التحف. وقد عمل السيد جين في هذا المجال منذ بلغ العشرين. وبعد مرور مثلها، ربح أموالًا كثيرة، فاشترى قطعة أرض بجوار المكاتب الحكومية القديمة وبنى منزلاً، ومنطقة المكاتب الحكومية القديمة في تانغين من أكثر المناطق ازدهارًا في المدينة.

يتكون المنزل الذي بناه جينغ من ثلاثة مداخل وثلاثة مخارج. بعدما انتهى من بنائه فكّر في تعليق لافتة على الباب. نظر إلى اللافتات المعلقة على أبواب البيوت الكبيرة التي بُنيت في عهد أسرة تشينغ وجمهورية الصين الأولى، فوجد معظمها منقوشًا بكتابات مثل: «الرخاء والثروة» أو «البركة والحظ السعيد» وغيرهما. لافتات الأبواب معرّضة للرياح والشمس والمطر والثلوج طوال الوقت، لذا ينبغي صنعها من خشب صلب، إما خشب الأرز أو الصندل أو العناب. تسكن عائلة إحدى عمات جينغ في بلدة تابو، وقد ذهب لزيارتها، وأثناء تناول الطعام في بيتها سمع أن فان العجوز أحد النجارين المعروفين هناك، اشترى العام الماضي شجرة عناب عمرها مائتي عام وقطعها إلى ألواح وصنع منها طاولات وكراسي، لكنه لا يزال يحتفظ في بيته بقلب الشجرة، فذهب إليه وعاينه ليجده قديمًا وصلبًا كالحديد، ثم اشتراه بمبلغ مائتي يوان.

تشتهر بلدة لينتشو بمدينة آنيانغ بوجود نجارين متخصصين في نحت الخشب؛

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهؤلاء المتخصصون يتقاضون أجورًا أعلى بثلاثة أضعاف من النجارين العاديين، أكثرهم مهارة يُدعى جين العجوز، وقد دعاه جينغ إلى منزله لفحص قلب الشجرة، نقر عليه بأصابعه، قلبه مرارًا وتكرارًا لفترة طويلة، ثم أومأ برأسه وقال:

- قطعة خشب ممتازة.

- هل تصلح كلافتة باب؟

- جدًا، المهم هو ما الكلام الذي تريد نحته عليها؟

- «الثروة والرخاء» أو «البركة والحظ السعيد».

- أيهما تحديدًا؟

- الكلمات المنقوشة على لافتات الأبواب كلها تحمل نفس المعنى، يمكنك نحت ما تراه مناسبًا.

يستغرق العمل من ثمانية إلى عشرة أيام، لذلك أقام جين في منزل جينغ الجديد. لم تنتقل أسرة جينغ للسكن هناك بعد، لذلك نُصب سرير لينام عليه جين العجوز في غرفة جانبية في الفناء الأمامي للمنزل. في صباح اليوم الأول من إقامة جين العجوز، نسخ كلمتي «الثروة والرخاء» على الورق، وكذلك «البركة والحظ السعيد». وضعهما أمامه يفكر أي واحدة منهما سينحتها على اللافتة الخشبية. ظل يتطلع إلى الورقتين يمينًا ويسارًا، دون أن يحسم قراره. لم يستطيع الحسم، ليس ذلك بسبب إعطاء الاثنين نفس المعنى، لكن لأنه فكر أيهما أصعب في النقش، فبعد تفريغها تكون الكلمات المعقدة صعبة في النحت، وعليه أن يحسب جيدًا كل حركة يؤديها بسكين النقش، فكر في الأمر بكل حرص؛ فهذا الخشب سميك وقاسٍ، لذا عليه اختيار الأيسر بالنسبة له.

بعد تفكير وجد أن الجهد متساوٍ في الجملتين، لكنه ظل مترددًا، دخل أحدهم إلى الفناء، عاقدًا يديه خلف ظهره، أخذ يتجول فيه، اعتقد جين أنه من أقارب جينغ، لذا لم يهتم، لكنه عاد ورأى في نظراته إلى الفناء ما يوحي بأنها زيارته الأولى للمكان، علم أنه غريب، فقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- الضيوف يتفرجون ويغادرون سريعًا، وأنا لست صاحب هذا المنزل، فقد استأجرني صاحبه من أجل بعض العمل، وإذا بقيت لفترة طويلة سيعرف صاحب المنزل وسأشعر بالحرج أمامه.

- هل تصميم هذا المنزل مقتبس من منزل عائلة «ما» في آنيانغ؟

- أنا مجرد نجار، ولست عامل بناء، ولا علم لي بتصميم المنزل.

- لكن تصميمه مشابه لمنزل عائلة «ما». نفس طريقة البناء، مع اختلاف في الجودة، لقد فشل صاحبه في استغلال هذا الموقع الرائع.

أضاف:

- رغم ضعف جودة البناء، يمكن ملاحظة أن صاحب المنزل رجل متعلم.

- هل أستنتج من كلامك هذا أنك أيضًا رجل متعلم؟

- لا يمكنني القول إنني متعلم، أنا فقط أحب التجول.

أضاف:

- أثناء مروري لزيارة المكتب الحكومي القديم رأيت هذا المنزل الجديد، وعندما رأيت بوابته مفتوحة دخلت لألقي نظرة، آسف على إزعاجك.

تحرك الضيف للمغادرة، شاهد لوحتي «الثروة والرخاء» و«البركة والحظ السعيد» على الأرض، توقف وسأل:

- ما الهدف من هذه اللوحات؟

- أنا نجار، وصاحب المنزل يريد نحت لافتة للباب، وقد طلب مني اختيار واحدة.

- لا أحب التدخل في شؤون الآخرين، لكن اسمح لي، هاتان العبارتان مبتذلتان للغاية، مثل طريقة بناء هذا المنزل.

- أنا متردد الآن، فقد قضيت حياتي كلها في نحت العبارتين، وقد سئمت نحتهما،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنت رجل متعلم، هل ليك فكرة أفضل؟

- نعم لديّ، لكنك لست سوى عامل لدى صاحب المنزل، ولا يمكنك اتخاذ قرار.

- لقد فوّضني صاحب المنزل في اتخاذ القرار بشأن ما يُنقش على لافتة الباب.

- هذا هو الفرق بين المتعلم والجاهل. دعني أفكر قليلاً.

أحنى الضيف رأسه وفكر طويلاً، ثم رفع رأسه وقال:

- أعجبتني عبارة قرأتها في كتاب طالعته أثناء ركوبي القطار هذا الصباح، سبق أن طالعت تلك العبارة كثيرًا من قبل، لكن العبارة أخذت سياقًا مختلفًا داخل الكتاب هذه المرة. إنها «يوم بثلاثة أعوام»، أي أن فراقنا ليوم واحد يساوي ثلاثة أعوام، وهي مثل عبارة «رب جملة بعشرة آلاف جملة» التي يقولها الناس.

- هل مناسب كتابة هذه العبارة على الباب؟

- عندما تكتبها هنا سيتغير معناها، ستتجاوز الجملة العلاقة بين الناس وبعضهم، لتشمل العلاقة بين الناس والأماكن. أي أن العيش ليوم واحد في هذا المكان أفضل من العيش في مكان آخر لثلاث سنوات، ألا تعتقد أنها مناسبة؟

صفق جين العجوز بكفيه وقال:

- معنى عميق غير مبتذل. لقد أعجبتني وسأنحتها.

بعدما غادر الضيف، بدأ جين في نحت عبارة «يوم بثلاثة أعوام» على لوح خشب العناب. في الواقع لم يوافق على نحت العبارة بسبب معناها. بل لأنه بالمقارنة مع عبارتي «الثروة والرخاء» أو «البركة والسعادة»، تُعد أبسط في الكتابة بشكل كبير، وستأخذ مجهودًا أقل في النحت. وما دام جينغ قد فوّضه فهو المسؤول الآن. بعدما انتهى طلب من جينغ الحضور لمشاهدة اللافتة. بعدما شاهدها ذُهل وقال:

- لماذا نحت هذه العبارة؟ ألم تقُل إنك ستختار من بين «الثروة والرخاء» و«البركة والسعادة»؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إنهما مبتذلتان للغاية، لكن هذه ليست مثلهما.

ثم شرح له ما قاله الضيف، فقال جينغ:

- معناها جيد لكن لا بد من شرحه للناس، أما عبارتا «الثروة والرخاء»، و«البركة والسعادة»، وبرغم ابتذالهما، يمكن فهمهما بسهولة، ونحن بهذا كمن يعقد الأمور البسيطة. لماذا لم تخبرني مسبقًا؟

- ألم تفوّضني في اتخاذ القرار؟

- أردت منك اختيار إحدى العبارتين، لا اختيار ثالثة مختلفة.

- يمكنك إحضار لوح جديد، وسأنحته لك كما ترغب.

- لا داعي لذلك، إنها مجرد لافتة باب، ولا داعي لتعقيد الأمور.

أضاف:

- «يوم بثلاثة أعوام» ليست عبارة سيئة.

تنفّس جين الصعداء وقال:

- هذا رأيي أيضًا.

7

سمع مينغ من فان أن قلب شجرة العناب نُحت على شكل لافتة باب، واللوحة موجودة الآن في منزل جينغ في تانغين. استقل سيارة أجرة من تابو متجهًا إليه. قطعت السيارة المسافة في أكثر من ثلاث ساعات. وصل ثم سأل على منزل جينغ.

رأى مينغ مبنى على الطراز الغربي، وهذا مخالف لما قاله فان عن المنزل. عند بابه غرفة الحراسة. تقدم مينغ وألقى التحية على الحارس الذي خرج من غرفته يسأله عما يريد. سأله مينغ عن جينغ فأخبره الحارس أنه هاجر وعائلته إلى كندا قبل عامين، وأن هذا المنزل ملك لشخص اسمه تشو العجوز.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل بُني المنزل على هذا الطراز؟

- سأخبرك.

قال الحارس إن جينغ بنى منزلًا له ثلاثة مداخل وثلاثة مخارج. وتشو التاجر العجوز مهتم بموقع المنزل نفسه، لذا فقد هدمه بعد شرائه، وبني مكانه هذا المبني المكون من أربعة طوابق. وقد ذهبت عائلة تشو إلى جزيرة هاينان للتنزه قبل بضعة أيام.

- هل تتذكر اللافتة المعلقة على باب المنزل القديم؟

- كنت موجودًا وقت هدم المنزل القديم، ورأيت لافتة على الباب بالفعل.

- أتذكر العبارة التي نُقشت عليها؟

- تقريبًا «يوم بثلاثة أعوام». سمعت أن نجارًا من لينتشو اسمه جين هو من صنعها، فمدينة لينتشو تشتهر بوجود نجارين متخصصين في نحت الخشب؛ وهم يتقاضون أجورًا أعلى بثلاثة أضعاف من النجارين...

قاطعه مينغ:

- ماذا عن اللافتة؟ أين هي؟

- لا أعرف أين تخلّص منها تشو وقت هدم المنزل.

- تلك لافتة قيّمة، ألم يحتفظ بها؟

- إنه لا يحب هذه الأشياء القديمة، لقد أقدم على هدم المنزل القديم ذي الطابع الصيني، فهل سيفكر في لافتة؟ انظر، هل يتمتع هذا المبنى بأي طابع صيني؟ كل ركن فيه مفعم بالطابع الغربي.

تطلّع مينغ إلى المبنى فوجده على الطراز الغربي مثل تلك التي شاهدها على ضفاف نهر التايمز في إنجلترا خلال مكالمة الفيديو مع قو تسيكاي. سأله مينغ:

- هل تتوقع مكان اللافتة الآن؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أعتقد أنه تخلص منها رفقة حطام المنزل القديم، لقد أخذ أشخاصًا من قرية مجاورة كل ما يمكن استخدامه من خشب وطوب وبلاط.

بدا مينغ محبطًا تمامًا. ولم يكن لديه خيار سوى مغادرة المكان، بعدما سار خطوتين عاد وقال للحارس:

- اللافتة لم تهم تشو، لكنها تهمني بشدة، من فضلك أخبرني حال توافرت لديك أي معلومات عنها.

أضاف:

- سأدفع مائة ألف يوان لمن يعثر على تلك اللافتة.

طلب من الحارس قطعة ورق، كتب عليها عنوانه ورقم هاتفه، وأعطاها له.

استغرق طريق العودة من تانغين إلى يانجين يومًا كاملاً، شعر ببعض الإرهاق. لذلك، وبعد العشاء، ذهب مينغ إلى حمام الشارع الشمالي للاستحمام. لا تزال أسعار الاستحمام في يانجين أرخص من شيآن. سعر الاستحمام هناك أربعون يوانًا، وسعر فرك الجسد خمسون؛ أما هنا فسعر الاستحمام عشرة يوانات ومثلها لفرك الجلد. بعد الاستحمام عاد إلى الفندق، وما إن استلقى على السرير حتى طرق أحدهم الباب، فتح، فوجد فتاة ترتدي قميصًا مفتوح الصدر بلا أكمام، تضع أحمر شفاه، تقف متكئة على الباب:

- سيدي، هل تريد أن أخدمك؟

علم أنها عاهرة، لم يرد مينغ خدمتها، ليس لأنه لا يحب ذلك، بل لأن شياومنغ عملت عاهرة في شبابها، وقد فعلت ذلك مع عدد لا يُحصى من الناس خلال خمس سنوات، لذا تولدت لديه بعض الحواجز النفسية تجاه العاهرات؛ أجاب:

- لا أريد.

- لماذا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنا متعب اليوم.

- سأخلصك من التعب.

- أنا لست من هذا النوع من الأشخاص.

- أنت من أصحاب الأخلاق الرفيعة إذًا.

استدارت مغادرة تهز مؤخرتها. تنهّد قائلاً لنفسه، ليس للأمر علاقة بالأخلاق، لديّ حاجز نفسي، وما دام وُجد هذا الحاجز فلن أتمكن من فعل شيء. استلقى على سريره ونام. بحلول منتصف الليل أيقظه أحدهم، فتح عينيه فوجد فتاة بجوار سريره. اعتقد أنها نفس الفتاة التي جاءت له من قبل، قال:

- لماذا جئتِ ثانية؟

- هل جئتُ من قبل؟

تفحّصها، اكتشف أن الفتاة التي تقف أمامه ليست هي التي جاءت من قبل، فملامحها وجسدها أجمل بكثير؛ كما أنها تحمل على ذراعها سلة مليئة بثمار الكاكي الأحمر التي تشبه الفوانيس. ابتسمت له وقالت:

- دعك من النوم، واحكِ لي نكتة.

أدرك مينغ فجأة أن هذه الفتاة هي هوا آرنيانغ، وأنه الآن في حلم؛ فأحلام سكان يانجين هي عالمها الذي تحكمه؛ وكل من تزوره في أحلامه عليه أن يحكي نكتة تضحكها لتمنحه ثمرة كاكي حمراء، أما إذا أخبرها بنكتة سخيفة فسوف تجعله يحملها على ظهره لتذهب لشرب حساء الفلفل الحار، ومن ثم تسحقه كالجبل حتى الموت في لمح البصر.

قابل مينغ سيما نيو الصغير عند معبر يانجين قبل أيام قليلة، وتحدثا عن والده وهوا آرنيانغ، ولم يتوقع أبدًا أن تظهر له في حلمه بعد حديثه عنها. ظل مشغولاً طوال الأيام القليلة الماضية التي قضاها هنا، ونسي تجهيز نكتة. فكر أن يانجين كبيرة للغاية، يقطنها أكثر من خمسمائة ألف شخص، وأنه لم يأتِ إليها إلا مرة واحدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خلال أكثر من عشرين عامًا، فقدومها له أمر مستبعد. في الماضي عاش في يانجين لأكثر من عشرين عامًا، ولم تأتِ لزيارته أبدًا؛ لذلك تغافل عن الأمر، ولم يجهز نكتة، لكنها الآن أمامه بهذا الشكل المفاجئ، فمن أين له بنكتة؟ تصبب العرق البارد من جسده. لكن خطر الاقتراب من الموت ولد حنكة، فقال لها:

- أنا لا أعترض على مجيئك في الأحلام طلبًا للنكات، لكنك جئت إلى حلم الشخص الخطأ اليوم.

- ماذا تعني؟

- لقد جئت إلى يانجين لإنجاز ببعض الأمور، لكني لست من هنا.

- لقد تقصيت عنك قبل أن آتي إلى حلمك، أليس اسمك مينغ ليانغ؟ لقد وُلدت في يانجين وعدت الآن إليها، فكيف لا تكون من أهلها؟

أضافت:

- المراوغة لن تفلح معي.

- سأريك بطاقة هويتي.

أعطاها بطاقته التي كُتب عليها بوضوح أنه من منطقة برج الإوز البري بمدينة شيآن.

- رغم أنك الآن من مدينة شيآن، لكن أصولك تعود إلى يانجين؛ سأعتبرك نصف يانجيني، وسأطلب منك نصف نكتة.

- لا أفهم.

- يجب أن تقول نكتة، لكن ليس عليك أن تجعلني أضحك، فقط يكفيني الشعور بالسعادة، يمكنني التنازل هذه المرة، لكن لا يمكن أن تصبح نتيجة مجيئي لا شيء.

لقد أصبح المطلوب نصف نكتة، لكن ذهنه فارغ. تذكّر الفتاة التي طرقت الباب قبل نومه وسألته هل يريد خدمة أم لا؛ تلك الفتاة عاهرة، وزوجته شياومنغ عملت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كعاهرة في شبابها أيضًا، وقد أخبرته عن أكثر الأمور الشائعة التي واجهتها وهي تعمل في الدعارة قبل أكثر من عشرين عامًا، قال:

- لديّ نكتة جنسية بعض الشيء، هل تمانعين؟

- لا يهم نوع النكتة، المهم هو أن تجعلني أشعر بالسعادة.

- هناك فتاة عملت في الدعارة لمدة خمس سنوات، ونامت مع آلاف من الرجال، ولكن نصفهم لم يضاجعها، هل تعرفين السبب؟

- هذا مستحيل، إنه إهدار لأموالهم.

- نصف هؤلاء الرجال عاجزون جنسيًا.

ابتسمت، قالت:

- لم أتوقع هذه الإجابة.

أضافت:

- تقول إنك لا تستطيع إلقاء النكات، أليست هذه واحدة جيدة؟

ثم أخرجت ثمرة كاكي حمراء من السلة.

- سأكافئك بواحدة، استمتع بتناولها.

اختفت وهو ممسك بثمرة الكاكي وجسده يتصبب عرقًا. الفضل في نجاته يعود إلى سرعة بديهته، لقد أنقذ حياته بنكتة من ماضي زوجته القذر، شعر بالخزي. فكّر أيضًا أنه فعل ذلك لقلة حيلته. شعر أن مسقط رأسه مكان مخيف. فقبل عشرين عامًا، أجبرته يانجين على المغادرة، وعندما عاد إلى يانجين الآن، أعادت نكتة شعوره الداخلي بالعار، هذا ما فعلته النكتة، وهذا ما فعله مسقط الرأس.

لم يتمالك نفسه، تنهّد قائلاً: يانجين، لن أعود إليكِ ثانية. ثم نظر من النافذة وطالع الشمس المشرقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

8

بعد يومين عاد تشن تشوانكوي الذي يعمل في مستودع النفط في منطقة يومن بمقاطعة قانسو إلى يانجين. بدأ ممثلو العائلة بنقل أكثر من مائتي مقبرة تخص ستة وعشرين فرعًا إلى ضفة النهر الأصفر. زرع مينغ بعض أشجار السرو بشكل منفصل حول قبور أجداده، وسقاها، ثم جثا على ركبتيه احترامًا لأسلافه معلنًا انتهاء مهمته. بعد مجيئه إلى يانجين أراد زيارة قبر والدته، أو نقله إلى مكان آخر مناسب، لكن والدته ماتت منتحرة، ولا يجوز دفنها في مقابر الأجداد، لذلك دُفنت في المقبرة الجماعية. كانت المقبرة الجماعية تقع في جنوب المحافظة، ولكن فيما بعد توسعت المحافظة، وشويت المقابر الجماعية الأصلية بالأرض، وبُني مكانها العديد من المباني الشاهقة، وبالتالي لم يعد لدى ينغ تاو مقبرة معروفة؛ ولم يعرف أين يزورها، لذلك لم يملك إلا الاستسلام للأمر الواقع.

بعد ظهر ذلك اليوم، استقل القطار السريع مغادرًا إلى شيآن. وصل إلى بيته بحلول المساء، سألته شياومنغ الكثير من الأسئلة التي أجاب عنها كلها، لكنه لم يخبرها عن بعض الأشياء، ومنها زيارة هوا آرنيانغ له في منامه.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، ذهب إلى الفرع القديم لمطعمه، بمجرد وصوله جاءه ابن سون أرهو يقول:

- أيها العم، أبي يطلب مقابلتك.

- ماذا جرى؟

- سمع أنك عدت من يانجين، ويريد أن يعرف ماذا جرى بخصوص قراءة الطالع.

- كيف عرف أنني ذهبت إلى يانجين؟

- أنا من أخبرته بذلك. قبل عدة أيام، جئت لتناول الكوارع رفقة أصدقائي، وعلمت من أحد العاملين في المطعم.

بدا مينغ مترددًا بشأن زيارة سون، فرغم وفاة دونغ العراف، فإنه لم يأخذ خصلة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشعر معه أصلاً، لذا فمسؤولية عدم إنجاز المهمة تقع على عاتقه. إضافة لذلك فقد عاد لتوه، ولديه كثير من الأعمال المؤجلة، قال:

- لديّ الكثير من المشاغل، هل يمكن تأجيل الأمر ليومين؟

- لا، أبي الآن يكاد يُجن بسبب الانتظار.

اضطر مينغ للذهاب رفقة ابن سون الذي بمجرد أن رآه سارع يسأله:

- سيهاي، هل ذهبت إلى يانجين من أجل المهمة التي كلفتك بها؟

اضطر للكذب قائلاً:

- نعم.

- هل طلبت من دونغ إجراء الاتصال المباشر من أجلي؟

- استمر في الكذب:

- نعم.

- وماذا قال عن حياتي القادمة؟

- ستكون شخصًا صالحًا فيها.

- كيف؟

- ستعيش زاهدًا تتلو الترانيم البوذية طوال حياتك، وستصبح راهبًا في العشرينات من عمرك.

- هل قال ذلك حقًا؟!

- بالحرف الواحد.

- هز سون رأسه مثل البندول، قال:

- قراءته للطالع غير صحيحة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا تقصد؟

- هذا خلاف ما ظننته.

- وماذا ظننت؟

- في حياتي القادمة، سأكون إما شخصًا ذا نفوذ أو ذا ثروة.

ضحك مينغ على ذلك المخرف الذي لا يزال يحمل داخله طموحات كبرى. سأله:

- ولماذا تريد الثروة؟

- كي أفي بوعودي، وأعيش كما يحلو لي، هلا نظرت إلى حالي الآن، فباستثناء البعوض، لا يوجد أحد سواي في المنزل، لو ملكت السلطة والمال، ألن يزورني الناس؟

- ألستُ قد جئت لزيارتك؟

- سيهاي، أنت الشخص الوحيد الذي لا يزال لديه ضمير في هذا العالم، ولو تمتعت بالسلطة والمال، فبالتأكيد ستكون من المقربين عندي.

ضحك مينغ مجددًا. تذكّر قو باوتشن والد قو تسيكاي، الذي عمل وزيرًا في حياته السابقة، لكنه الآن يعمل في كنس الشوارع. أخبر سون بهذه القصة، قائلاً:

- لا تهم السلطة أو الثروة، قد تملكها في حياتك الحالية، لكنك قد تعمل كناس شوارع في حياتك القادمة.

- يكفي العيش سعيدًا في هذه الحياة، ولا داعي للاهتمام بشأن الحياة القادمة، ومن الأفضل عدم الحديث عنها.

أراد مينغ أن يقول ألست السائل عن الحياة القادمة؟ لكن بدلاً من ذلك قال:

- هذا ما قاله دونغ، إنه مصير لا مفر منه.

- لم أتخيل مطلقًا حياتي القادمة بهذا الشكل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في المساء تلقى مينغ مكالمة من مركز شرطة الضاحية الجنوبية، علم فيها بتشاجر ابنه هونغتشي مع أحد الأشخاص وإصابته بجروح، فتوجب عليه الذهاب لمركز الشرطة لانتظار ما تسفر عنه التحقيقات. في بداية رحلة مينغ مع مطعمه كان المكان مستأجرًا، وكذلك المسكن. أثناء طفولة ابنه عاش مينغ وزوجته ظروفًا صعبة من كافة النواحي، وقد انعكس ذلك على ملابس ابنهما، في الشتاء لم يشتريا ملابس وأحذية الطفل الثقيلة من المتاجر مطلقًا، بل حاكتها زوجته على ضوء المصباح بعد إغلاق المطعم. ولكن نظرًا لأن العائلة تمتلك مطعمًا، لم يعانِ هونغتشي بشأن الطعام، تناول اللحوم كل يوم. تذكّر مينغ حياته خلال الثلاث سنوات التي عاشها رفقة أبيه بعنبر العذاب في مستودع ووهان للقاطرات. أثناء سفر أبيه خلال وردية عمل، لطالما حمل طبقه وذهب لغرف الطعام من مطعم العمال، الطعام حينها انقسم نوعين، الأول به لحوم ويباع بخمسة عشر فنًا، والثاني يحوي الخضراوات فقط ويباع بخمس فنات. والثاني هو الذي داوم مينغ على شرائه، لذلك فعندما اشتكى هونغتشي من ملابسه السيئة مقارنة بما يرتديه زملاؤه كان يركله على مؤخرته ويقول:

- كن قنوعًا، حياتك الآن أفضل مما عشته في طفولتي.

منذ التحاقه بالمدرسة الإعدادية، بدأ ابنه يعيش في السكن المدرسي. في ذلك الوقت ازدهرت تجارة مطعم المارشال، صار له عدة فروع، ولم تعد ملابس هونغتشي أقل من ملابس بقية أطفال المدينة كالسابق، بل حتى إنه ارتدى ثيابًا أفضل من بعض أطفال المدينة.

توجّه مينغ على عجل إلى مركز الشرطة. وجد شرطيًا في الثلاثينيات من عمره يجلس خلف مكتبه؛ وأمامه يجلس هونغتشي على أحد الكراسي، ورجل أربعيني يجلس على الكرسي الآخر؛ فور دخوله رمقه الرجل الأربعيني بنظرة غاضبة. سأله الشرطي:

- هل أنت أبو هونغتشي؟

- ماذا فعل؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لعب مباراة كرة قدم في المدرسة بعد الظهر؛ وبسبب ركلة حرة دخل في عراك مع أحد لاعبي الفريق الخصم، لقد تسبب في إصابته وسقوط ثلاث من أسنانه الأمامية، وعندما نُقل إلى المستشفى لإجراء فحوصات تبين معاناته من ارتجاج طفيف، يجب أن تعي العواقب جيدًا، فهذه الإصابات كافية لحبسه.

ثم استطرد:

- كلا الوالدين حاضران، سأتوسط بينكما لحل المشكلة وديًا أولاً، ولو فشلت الوساطة فسنتعامل مع الأمر وفقًا للقانون.

أدرك مينغ أن الأربعيني الذي رمقه بنظرة غاضبة للتو هو والد الطالب الآخر، فسارع يقول:

- أوافق على الوساطة.

- ابنك هو من ضرب ابني، بالطبع ستوافق على الوساطة.

- التعدي بالضرب بالتأكيد تصرف خاطئ، لكن الأمور قد وصلت إلى ما هي عليه الآن، رجاء اعف عنه، وسنبذل قصارى جهدنا لتعويضكم.

- وكيف ستعوضنا؟

- سقطت أسنان ابنك، وسنتكفل بعلاجها. يمكنك أخذه إلى أفضل مستشفى لزراعة الأسنان، إنها تقنية متطورة جدًا الآن. لقد زرعت سنًا العام الماضي، ولا يزال بحالة جيدة، مثله كالأسنان السليمة تمامًا؛ أما بخصوص الارتجاج الطفيف فسأذهب به إلى أفضل مستشفى وسأتكفل بدفع جميع تكاليف العلاج والأدوية والفحوصات.

- أهذا ما تقدمه؟

- ما مقدار التعويض الذي تريده؟ أخبرني كم تريد.

- أريد مائة ألف يوان.

نهض هونغتشي غاضبًا معترضًا، جذبه مينغ وأجلسه على الكرسي، وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- حسنًا، أخبرني برقم حسابك، وسأحوّل لك المبلغ المطلوب.

- هذا هو التصرف الصائب، خسارتنا أكبر منكم، لقد فقد ابني أسنانه، ولا نعرف هل سيتعافى كليًا من الارتجاج أم لا.

تدخل الشرطي قائلاً:

- من الجيد قبولكما للصلح، كما تعلمون، مراهقو المدارس الثانوية سريعو الاندفاع، كنا جميعًا مثلهم.

رمق الرجل الأربعيني مينغ بنظرة غاضبة وقال:

- عليك تربية ابنك جيدًا.

- سأفعل.

وقّع الطرفان اتفاقية تصالح، ثم اصطحب مينغ ابنه وخرجا من مركز الشرطة، بعد خروجهما قال الابن مغتاظًا.

- كيف توافق على إعطائه مائة ألف يوان؟ أليس هذا ابتزازًا؟

- لنفترض أنه يبتزنا، هل تريد الذهاب إلى مركز الاحتجاز؟ عليك أن تعلم أنه بمجرد دخولك إلى هناك ستظل تلك نقطة سوداء لن تُمحى أبدًا لبقية حياتك. إن الشجار أمر معتاد، ولكن أنت مخطئ في عنفك تجاهه بهذا الشكل.

- أنا لم أضربه.

- هل سقطت أسنانه الأمامية الثلاث وأصيب بالارتجاج من تلقاء نفسه؟

- أنا فقط نطحته برأسي.

ذهل مينغ ليانغ وقال:

- نطحة واحدة أسقطت أسنانه الأمامية الثلاث وأصابته بارتجاج طفيف في المخ، هل لديك رأس حديدي؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لم أتوقع أن يكون بهذا الضعف.

- ولماذا نطحته؟

- تفوقنا عليهم بفارق ثلاثة أهداف. فقد أعصابه وأسقطني عمدًا عندما ركضت بالكرة نحو منطقة الجزاء، احتُسبت لصالحي ركلة حرة، وقبل أن أسددها وقف أمامي وقال إن أمي كانت عاهرة.

تسمر مينغ مكانه مذهولاً. الآن بعد أكثر من عشرين عامًا، بعدما اعتقد أن أمر زوجته صار من الماضي؛ عادت هذه الحادثة إلى الظهور بشكل غير متوقع، وانتشرت من يانجين إلى شيآن، وإلى المدرسة التي يدرس بها ابنهما. رد مينغ بغضب:

- هذا اللقيط، لم يتوجب عليك نطحة فحسب، بل كان عليك أن تمزق فمه أيضًا.

- هل عملت أمي كعاهرة في شبابها؟

- عندما بلغت أمك التاسعة عشرة من عمرها، عملت معي في معطم المارشال في يانجين، فإلى أين ستذهب للعمل كعاهرة؟

- لو قال ذلك مرة أخرى في المستقبل، سأمزق فمه.

- أوسعه ضربًا فقط، ولا تمزق فمه، وإلا فستذهب إلى السجن بالفعل.

أثارت عودة القيل والقال حول شياومنغ قلق مينغ؛ لكن مينغ فكّر أنه حتى لو عادت تلك الأقاويل للظهور مرة أخرى، فستكون الأمور مختلفة عما كانت عليه منذ أكثر من عشرين عامًا؛ قديمًا كانت حقيقة، الآن هي شائعة.

في الماضي، وُجد دليل وحيد على عمل زوجته كعاهرة تمثّل في بطاقة صغيرة، لكن الآن ليس هناك سوى كلام فارغ، في الماضي تجرأ سون على تهديد شياومنغ وجهًا لوجه، لكن الآن لا أحد يجرؤ على ذلك، لن يتجاوز الأمر مجرد شائعة سرعان ما ستختفي، لذلك قال لابنه برحابة صدر:

- لا تُخبر أمك بهذا الأمر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- حسنًا.

في تلك الليلة جلس مينغ على الأريكة يشاهد التلفاز، ثم تفحّص هاتفه المحمول، شعر بالنعاس، عاد إلى غرفته، خلع ملابسه وأطفأ الأنوار، استلقى، جاءت زوجته التي لم ترتدِ ملابس نومها بعد مقتحمة غرفته قائلة:

- لقد وقعت كارثة.

اعتقد مينغ أن أنباء عملها القديم انتشرت في شيآن، وأنها علمت بذلك، تظاهر بالهدوء وقال:

- مهما بدا الأمر كارثيًا، سنقف جنبًا إلى جنب، أخبريني ماذا حدث.

- هل تتذكر شيانغ شيو؟

تنفّس مينغ الصعداء، لم تقصد زوجته نفسها، لكنها تتحدث عن فتاة تسببت منذ عشرين عامًا في رحيلهما من يانجين إلى شيآن.

- ماذا حدث لها؟

- لقد ماتت.

- كيف؟

ردّت شياومنغ مرتجفة:

- قبل ثلاثة أشهر اتصلت بي وقالت إنها ستحضر صديقتها المريضة إلى منزلنا، لكني لم أوافق، هل تتذكر؟

- نعم، لقد تناقشنا في الأمر.

- اكتشفت اليوم فقط أن الصديقة المريضة التي تحدثت عنها كانت هي نفسها.

خبط مينغ على رأسه بعدما فهم ما قصدته شيانغ شيو، وسأل:

- هل تفاقُم مرضها هو السبب في موتها؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا، لقد شنقت نفسها في مزرعة ألبان.

أضافت:

- كل من يشنق نفسه هو شخص فقد الأمل بالحياة. ألم أحاول شنق نفسي من قبل؟ لو وافقت على مجيئها إلى منزلنا وتحدثت معها عن همومها، فلربما لم لتفكر في الانتحار.

لم يقُل مينغ أي شيء، شعر أن ما قالته زوجته منطقي، فعندما حاولت شنق نفسها، أنقذها وأحضرها معه إلى شيآن.

- اتصلت بي عمتي في يانجين للتو وأخبرتني بهذا الأمر، أول ما شعرت به أنني السبب في موت شيانغ شيو.

انخرطت في البكاء:

- رغم عداوتنا السابقة، فإنها اتصلت بي تطلب المجيء إلى منزلنا، هلا فكرت في حجم اليأس الذي كانت تعاني منه، لماذا لم أفكر في ذلك حينها؟ هل أنا السبب في موتها؟

صمت مينغ طويلاً، لقد ظل يلوم نفسه عندما شنقت أمه نفسها، ربط بين انتحارها وبين خروجه لشرب المياه الغازية يومها. أثناء جلوسه رُفقة والده في حديقة مستشفى ووهان للقاطرات، أخبره بشعوره أنه المتسبب في موت ينغ تاو. لو هناك علاقة بين شياومنغ وحادث الانتحار، فلا بد من القول إن شياومنغ تناقشت مع مينغ بشأن رغبة شيانغ شيو في القدوم إلى منزلهم، ورفض ذلك معها، بالتالي هو أيضًا مسؤول عما حدث. تذكّر مينغ ذهابه إلى منزل هذه المرأة في اليوم الثاني من نشرها بطاقات الإعلانات التي تحمل صورة زوجته، رأى صورتها التي تبتسم فيها للكاميرا في الإطار على الحائط. لها وجه مستدير، وعيون واسعة، هناك غمازتان على خدّيها.

- لا جدوى من لوم نفسك، هي التي لم توضح لنا الأمر في ذلك الوقت.

- أشعر بالحزن الشديد، سأنام جوارك اليوم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- حسنًا، ولا داعي للتفكير في هذا الأمر، هذا خطئي أيضًا، لم أفكر في الأمر مليًا حينها، ولم أطلب منكِ أن تسأليها بوضوح.

نامت بجانبه، وظل هو مستيقظًا يتنهد، فكّر في هذا العالم القاسي.

مرّ شهران في غمضة عين. بعدما غادر الزبائن الذين جاؤوا لتناول الغداء في مطعم المارشال واحدًا تلو الآخر، استغل عمال المطعم فترة الراحة للذهاب إلى الشارع التجاري بالقرب من برج الإوز البري للتسكع. يتذكر مينغ أنه أثناء عمله في مارشال يانجين أحب العزف على الناي بجانب النهر خلف المطعم خلال فترات الراحة. صار المطعم فارغًا، وعندما رأى الشمس الساطعة في الخارج صنع إبريقًا من الشاي، وجلس على الطاولة عند مدخل المطعم يشرب الشاي ويستمتع بالشمس وهو يشاهد المارة الذين يتجولون في الشارع. شعر بالنعاس، فانحنى على ظهر الكرسي ليأخذ قيلولة، وقبل أن ينام رأى رجلاً يحمل على ظهره كيسًا قماشيًا ويسير مسرعًا. اعتقد مينغ ليانغ أنه عامل وصل لتوّه إلى المدينة بحثًا عن عمل ولم يكترث له، لكن ذلك الشخص وقف يتطلع حوله، ثم توجّه نحو المطعم، وعندما رأى لافتة المطعم وضع الكيس على الأرض، ثم مسح العرق عن جبينه وهو يقول لنفسه: هذا هو المكان.

عندما رأى الرجل مينغ جالسًا أمام الباب سأله:

- معذرة، أهذا مطعم السيد مينغ ليانغ القادم من يانجين؟

انتبه مينغ له عندما سمع الرجل يتحدث بلكنة مقاطعة خنان، أجاب:

- نعم؟ ماذا تريد؟

- أريد مقابلته.

- لماذا؟

- لأمر مهم.

لم يتمالك نفسه من الضحك وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أخبرني بالأمر المهم.

- لا أستطيع، لن أخبر أحدًا سوى السيد مينغ ليانغ.

- إنه أنا.

- لا تكذب عليّ.

حينها تحدّث مينغ بلهجة خنان وقال:

- أنصت جيدًا، ما رأيك في لكنتي؟

- إذن أنت السيد مينغ ليانغ بالفعل.

فتح الرجل الكيس القماشي، أخرج منه شيئًا ملفوفًا بقطعة قماش قطنية؛ عندما أزاحها من على الشيء ظهرت لافتة باب عريضة وسميكة، بدا واضحًا أنها قديمة، محفور عليها عبارة «يوم بثلاثة أعوام».

قفز مينغ من على كرسيه فور رؤية اللوحة.

- أين وجدتها؟

- قد يبلى حذاؤك الحديدي خلال البحث عن شيء ما دون أن تجده، وقد تجده لاحقًا بمحض الصدفة دون أدنى جهد.

- ماذا تقصد؟

- عائلتي من ريف بلدة تانغين. عندما هُدم منزل تشو العجوز ذهب جدي وآخرون لرفع المخلفات فعثروا على هذه اللافتة. قبل أيام قليلة علمت من حارس منزل تشو أنك تبحث عنها، وعن استعدادك لدفع مبلغ كبير مقابل الحصول عليها، فسألت الحارس عن عنوانك في شيآن وجئتك بها.

أشار إلى اللوحة وأكمل:

- هلا عاينتها، مصنوعة من خشب العناب، ثقيلة للغاية، حملُها من خنان إلى هنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مشقة.

أمسك مينغ باللافتة فوجدها ثقيلة بالفعل.

- لقد قلت إن من سيعثر على هذه اللافتة ويأتيك بها ستعطيه مائة ألف يوان، وها أنا قد جئتك بها، فلا تخلف وعدك.

نظر مينغ ليانغ إلى اللافتة فتذكّر شجرة العناب الكبيرة في بيت جدته، ومشهد جدته وهي تعد الكعك أسفل تلك الشجرة، فقال:

- لا تقلق، ما دامت اللافتة حقيقية فسأفي بوعدي.

بدا الرجل قلقًا وقال:

- لقد حملتها على طول الطريق من خنان، فكيف يمكن ألا تكون حقيقية؟

- لقد تركت رقم هاتفي أيضًا لدى حارس المبنى، فلماذا لم تهاتفني قبل مجيئك إلى شيآن؟

- وما فائدة المكالمة ما دمت لم تعاين الشيء بنفسك؟ وكما يقول المثل: ليس من رأى كمن سمع.

شعر مينغ أن ما قاله منطقي، سأله:

- ما اسمك؟

- تساي، يمكنك مناداتي تساي الصغير.

طلب مينغ منه الجلوس لشرب الشاي، ثم أمسك باللافتة يتفحصها. قلّبها بين يديه، لاحظ أن اللافتة تبدو قديمة من الوهلة الأولى، لكن عند الفحص الدقيق، شعر أن الطلاء الموجود عليها جديد بعض الشيء؛ قرّبها من أنفه، شم رائحة طلاء جديد. شعر مينغ بالشك، ذهب إلى جاره جين صاحب متجر الحلي الفضية المجاور للمطعم، واستعار مثقابًا كهربائيًا صغيرًا، عاد للمطعم وثقب به زاوية اللافتة، تسمّر تساي مكانه في حالة ذهول وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا تفعل أيها العم؟

همْ بمنعه قائلاً:

- أيها العم، لا تخرّب هذه القطعة الأثرية.

خرجت من الثقب نشارة خشب جديدة. سحب مينغ المثقاب الكهربائي، سأل:

- انظر بنفسك، هل تبدو لافتة قديمة أثرية؟ هل يمكن أن يكون هذا الخشب مقطوعًا من شجرة عمرها أكثر من مائتي عام؟

وقف تساي في حالة ذهول لفترة من الوقت، ثم ضحك ضحكة مصطنعة، وقال:

- أيها العم، أنت بارع حقًا، لقد اكتشفت حقيقتها.

- أنا أعمل في طهي الكوارع، ويمكنني معرفة مدى نضجها عن طريق وخزها بعيدان الطعام، ولم أفعل شيئًا سوى أنني وخزت الخشب بالمثقاب، فانكشفت الحقيقة.

Telegram:@mbooks90

رسم تساي مرة أخرى على وجهه ضحكة مصطنعة وقال:

- ما دمت قد اكتشفت الأمر سأقول لك الحقيقة، عمي هو حارس منزل تشو، وقد ذهبت الشهر الماضي إلى تانغين لزيارة بعض الأصدقاء، فمررت به وسمعت منه عن تلك اللافتة، رأيتها فرصة لكسب المال. ثم ذهبت إلى النجار جين في لينتشو، وطلبت منه نقش «يوم بثلاثة أعوام» على قطعة من خشب العناب، رفض حرصًا على سمعته، لكن ابنه وافق، فذهبت معه إلى قرية جبلية في لينتشو واشترينا قطعة من خشب العناب، بعدها جففها ونقشها؛ ثم ذهبنا إلى شخص آخر لمعالجتها لتبدو كالقديمة.

أضاف:

- وحتى لا تكون مستعدًا للقائي جئت مباشرة دون مهاتفتك، فكرت أن نتقابل فأسلمك اللافتة وتسلمني المال بسرعة وأرحل، هكذا يمر الأمر ببساطة، لكني لم أتوقع أن تكتشف الحقيقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رغم محاولة تساي خداع مينغ، شعر من طريقة حديثه أنه شخص طيب، ضحك وقال:

- كيف نويتما اقتسام المال؟

- كل منا يحصل على النصف.

أكمل:

- أيها العم، لقد سافرت من تانغين إلى لينتشو لأكثر من أسبوعين من أجل الأمر، ناهيك عن الوقت الذي أمضيته في النقش والطلاء، وكذلك العثور على شخص يجعلها تبدو قديمة، وفي النهاية جئت إليك هنا في شيآن، وما دمت قد اكتشفت أمري، فلا مجال للحديث عن السعر الأصلي، يمكنك إعطائي نفقات السفر والتكاليف التي خسرتها.

- وكم تبلغ؟

- عشرون ألفًا على الأقل، وربما لن يقتنع شريكي وينعتني بالغباء بعد عودتي.

تطلّع مينغ إلى العبارة المنقوشة على اللافتة، رآها منحوتة بحرفية ومهارة عالية رغم وجود بعض العيوب البسيطة، مظهرها القديم لا يوحي للوهلة الأولى بأنها غير أصلية، قال:

- لقد حاولت خداعي ببضاعة مقلدة، ومن حسن حظك أنني لن أستدعي لك الشرطة، فكيف تجرؤ على طلب المال؟

أكمل مشيرًا إلى الشاي الذي قدمه له:

- اشرب الشاي وخذ لافتتك وارحل.

- خمسة عشر ألفًا.

اتكأ مينغ على الكرسي، لم يرد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- عشرة آلاف.

لم يكترث له.

- ثمانية آلاف.

تجاهله مينغ.

- خمسة آلاف.

استمر في تجاهله.

- ثلاثة آلاف.

- سآخذها.

- لقد بخستني ثمن بضاعتي، هذا المبلغ لا يغطي التكلفة ونفقات السفر، لكني مضطر لقبوله فهو أفضل من لا شيء.

حوّل مينغ ثلاثة آلاف يوان إلى هاتف تساي عبر تطبيق ويتشات، وبعد التأكد من استلام المبلغ، نهض مغادرًا وهو يغمغم.

ذهب مينغ إلى متجر الحلي الفضية المجاور لإعادة المثقاب الكهربائي، أخبره بما حدث معه، وقال:

- الشيء الوحيد الذي يُقلقني أن يكون الخشب الذي صُنعت منه اللافتة رديئًا.

- أرني إياها، لقد مارست النجارة لعدة سنوات قبل عملي في صنع الحلي الفضية. لست بارعًا كما ينبغي، لكني على دراية بجودة الخشب.

عاد مينغ إلى المطعم، أحضر اللوحة، ناولها إلى جين الذي طرق عليها بيده، تفحصها مليًا، ثم دقق بعينيه في الثقب الذي صنعه مينغ في زاويتها، بعدما انتهى من المعاينة قال:

- لا أعرف من أين جاءك بها لكن جودتها ممتازة، إنه خشب عناب فعلاً لكنه صلب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كخشب الصندل، إنها صفقة رابحة، فهذه اللافتة قد تصمد من ثلاثمائة إلى خمسمائة سنة، لكنها بالطبع لا تقارن بخشب شجرة جدتك، لذا فمهما بلغت جودتها هي بضاعة مزيفة بلا قيمة.

- رغم زيفها فالقدَر أرسلها لي، تمامًا مثلما حدث مع الكلب سون في الماضي.

- هذا صحيح.

في حوالي الساعة الرابعة عصرًا عاد عمال المطعم من التسكع الواحد تلو الآخر. طلب مينغ من أحدهم مسح اللافتة وتعليقها في منتصف الجدار الأوسط للمطعم. وبعدما جاء الزبائن لتناول العشاء، شاهد زبون دائم اللوحة الجديدة فأشار إلى العبارة الموجودة عليها وسأل مينغ الذي رد عليه قائلاً:

- إنها شعار مطعم المارشال.

- وماذا يعني؟

- نطهو الكوارع بطريقتنا الخاصة ليشعر من يتوقف عن تناولها ليوم واحد أنه لم يأكلها منذ ثلاث سنوات.

في تلك الليلة حلم مينغ أن اللوحة قد تحولت إلى شجرة مرة أخرى، نفس الشجرة القديمة، لكنها غيرت مكانها وثبتت عند معبر يانجين. رآها في الحلم مورقة، تُصدر حفيفًا عندما تهب عليها الرياح، وأسفلها جلس مجموعة من الناس يروون الحكايات. منهم الجدة، والجد، ودونغ العجوز، وذو الفراء الأصفر والبقرة العنيدة اللذان حكت له عنهما الجدة، والكلب سون الذي رباه، والقرد الجريح الذي رآه عند المعبر.

عادة ما تذكّر مينغ هؤلاء الأشخاص وتلك الحيوانات، لكنه لم يتمكن من رؤيتهم ثانية، وها هم يجتمعون الآن. في الحلم العرّاف دونغ مبصر؛ الكلب سون حاضر رغم أنه لم يزر يانجين من قبل، والقرد قد شُفيت جروحه، أما الحكايات فلم يروها الناس بل ذو الفراء الأصفر والبقرة العنيدة والكلب سون والقرد، جميعهم يحكون عما واجهوه خلال حياتهم؛ كل واحد منهم يقص مرة، فينخرطون معًا في الضحك أحيانًا، وتنهمر الدموع من عيونهم أحيانًا أخرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما شاهد مينغ هذا الموقف، شعر بالرغبة في العزف على الناي. لم يعزف منذ سنوات عديدة، وجد الناي بين يديه؛ ارتجل لحنًا جديدًا. في الماضي ألّف لحنًا عن أمه وهي ترقص فوق نهر اليانجتسي، ولحنًا عن شجرة العناب المفقودة، ولحنًا عن شعوره بالغربة في يانجين؛ والآن يريد أن يعزف لحنا بعنوان «يوم بثلاثة أعوام»؛ أين هذا اليوم الذي يعادل ثلاثة أعوام؟

إنه في حلم، داخل حكايات ذي الفراء الأصفر، والبقرة، والكلب، والقرد. أمسك بالناي ليبدأ في العزف، سمع فجأة صوتًا خلفه يقول:

- توقف عن العزف، فكل هذا غير حقيقي.

التفت مينغ ليجد هوا آرنيانغ تقف حاملة سلة مليئة بثمار الكاكي الحمراء التي تشبه الفوانيس على ذراعها. غضب وقال:

- كل هذا حقيقي.

- لا، الشجرة مزيفة، فقد جاءت من لافتة «يوم بثلاثة أعوام» المقلدة، وكذلك الحكايات التي ثقال أسفل الشجرة، هل تريد العزف عن أشياء وهمية؟

- هلا أنصتّ لحقيقة كلامي، الحلم مزيف، وكذلك الأمور التي جاءت في الحلم مزيفة أيضًا، لكن زيف الزيف يعني الحقيقة، وبالتالي فالمشاعر أيضًا حقيقية؟ قد يحدث أن يبكي الناس في أحلامهم حتى تتبلل وسائدهم، أليس هذا البكاء حقيقيًا؟ وقد يحدث أن يضحك الناس بصوت عالٍ في أحلامهم، أليس هذا الضحك حقيقيًا؟ أحيانًا يكون هذا النوع من الحقيقة أكثر واقعية من البكاء والضحك في الواقع.

ذُهلت هوا آرنيانغ، فوجئت بمنطقه، قالت غاضبة:

- منطقي البحث عن نكات، وليس عن حقيقة.

- أعلم أنك جئتِ بحثًا عن النكات، لكن هذه المرة لم يكن يتعين عليك المجيء إليّ.

- نفس كلامك في المرة السابقة، هل تريد أن تقول إنك من مدينة شيآن؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- عندما زرت يانجين المرة السابقة لم تقبلي حقيقة كوني من شيآن، ولكن هذه المرة أنا في شيآن، فقط عدت إلى يانجين في حلمي. لا يمكنك قلب الحقائق الآن لتطلبي مني أن أحكي نكتة، أليس كلامي منطقيًا؟

- لم تعُد بجسدك، لكن العودة إلى يانجين في حلمك تعني أن روحك قد عادت؛ ولو أغضبتني سأسحق روحك أسفل الجبل، حينها سينفصل جسدك عن روحك، ولنرَ كيف ستعيش في شيآن.

تنهّد يائسًا، فعندما غادر يانجين في المرة الأخيرة، أقسم ألا يعود أبدًا، لكنه لم يتوقع الرجوع إليها في حلمه. من يمكنه التحكم في الأحلام؟ علم أن اللافتة المكتوب عليها «يوم بثلاثة أعوام» هي السبب في كل هذا.

قالت هوا آرنيانغ مزهوة بنفسها:

- ليس لديك ما تقوله إذن؟ لن يستطيع أحد أن يخدعني بالمنطق، ومن يخدعني فهو يخدع نفسه.

اختفى الناي الذي أمسك به في لمح البصر، فالناي لن يعزف نكاتًا؛ لم يجد مفرًا من مواجهة الكارثة، ولّد الخطر بعض الحنكة، فسارع يقول:

- بما أننا نتحدث عن المنطق، لديّ نكتة أحكيها لك.

- ما هي؟

- بالطبع لا يمكن أن يخدعك أحد بالمنطق، لكن المنطق يمكنه أن يخدع الكثيرين. ففي هذه الحياة، هناك العديد من الأمور المنطقية الخاطئة أيضًا، لكنها تتردد يوميًا على ألسنة الناس على أنها حقيقة، وبعد وقت طويل تصبح حقيقة بالفعل. الجميع يعلمون أن هذه الحقيقة خاطئة، لكنهم يتصرفون على هذا الأساس، بل ويتظاهرون بأنها حقيقية، أليس هذا مضحكًا؟ إنها حتى ليست حقيقية كما هو الحال في الحلم.

فهمت مغزى حديثه، ضحكت وقالت:

- حديثك لافت، وهذه نكتة سخيفة، فقلب الحقيقة إلى نكتة أمر ممل، بل حتى إن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذه النكتة ليست ممتعة كتلك النكتة الجنسية التي قلتها في المرة السابقة.

النكتة الجنسية التي قالها المرة السابقة نبعت من الألم الذي عانى منه دومًا؛ ولو توالدت هذه النكتة وصار منها الكثير، فلن يتحمل العيش.

بعدما انتهى من نكتته، لاحظ أن هوا آرنيانغ لا تنوي مكافأته بثمرة من الكاكي الأحمر، فقال:

- أعلم أنني غبي ثقيل اللسان، وليس لي قدرة على إلقاء النكات. لقد تعلمت الدرس، ومن الآن فصاعدًا أعدك أنني لن أعود إلى يانجين في أحلامي.

- إذا قطعت علاقتك مع يانجين فسأقطع علاقتي بك. هناك أكثر من نصف مليون شخص في يانجين، لو زادوا أو نقصوا واحدًا فلن يمثل ذلك لي أدنى مشكلة.

نهض مينغ، استدار مغادرًا؛ وبعد خطوتين، توقف وقال:

- قبل أن نفترق، أريد أن أسأل سؤالاً واحدًا.

- ماذا؟

- أنا فقط أشعر بالفضول، أرجو ألا تمانعي.

- لا داعي للتحفظ، هات ما عندك، لن أمانع.

- لقد مكثتِ في يانجين لأكثر من ثلاثة آلاف عام تبحثين عن النكات كل يوم، فهل من الممكن أن تصبح نكات سكان يانجين مثل الأسماك في البركة، ويأتي اليوم الذي تفرغ البركة من الأسماك بعدما تصطادينها كلها؟

- أنت تقلل من شأن يانجين كثيرًا، ففيما يتعلق بالنكات لا يمكن القول إن يانجين مثل بركة أسماك، لكنها نهر متدفق، وإلا ما جاورت النهر الأصفر؛ المياه في برك الأسماك راكدة، لكن مياه النهر جريانها لا ينقطع، وبما أن الحياة مستمرة، فالنكات الجديدة مستمرة. بالطبع، ففيما يتعلق بالنكات التي جمعتها، معظمها مملة وفارغة مثل النكتة قلتها للتو؛ لكن النكات لا تنضب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل هناك من أهل يانجين من قال لك نكتة رائعة لا تُنسى؟

- أحيانًا أصادف مثل هذه النكات، نكتة من جملة واحدة تُضحكني بشدة، لكن هذا لا يحدث كل يوم، لذلك يجب أن أنتظر بصبر، وبالحديث عن هذا النوع من النكات، فأنا ممتنة لنوعين من الناس.

- نوعين؟

- نعم. الأول، الأشخاص الذين قالوا إنهم سيأتون ولم يأتوا أبدًا، مثل هوا آرلانغ الذي انتظرته طويلاً ولم يأتِ، لذلك لم أجرؤ على المغادرة، وهذا ما منحني وقتًا لانتظار النكات الجيدة؛ أما الثاني فهم الأشخاص الذين غادروا ولم يعودوا، مثل والدتك ينغ تاو، فكرت أنهم لو عادوا يومًا ما، قد يكون لديهم بعض النكات الجيدة التي جاؤوا بها من الخارج.

- أنتِ مخطئة في هذا، فبصرف النظر عن امتنانك لأولئك الذين أخبروك بقدومهم ولم يأتوا، وأولئك الذين غادروا ولم يعودوا، فلماذا لا تشعرين بالامتنان أيضًا لأبناء يانجين الذين لم يتوقفوا عن حكي النكات لك رغم أن بعضها ممل، لكن من لا يستطيعون إلقاء النكات يتعرضون للهلاك بسببك؛ ومنذ قدومك إلى هنا والجميع يعيشون في حالة من الرعب.

- لا حيلة لي أنا أيضًا. قبل مجيئي برعت في إلقاء النكات، ولم أحتج قط إلى نكات الآخرين؛ ولكن بعدما جئت، أصبحت متسولة للنكات؛ فأنا لا أستطيع العيش دونها؛ هل تعتقد أنني أتعمد المجيء إلى أحلام الناس ليلاً بحثًا عن النكات؟ هذا خطأ، لست من يفعل ذلك، بل شخص يتلبس جسدي، يفعل ذلك منذ ثلاثة آلاف عام، هذا الشخص هو الذي يصر على تحويل الحياة إلى نكتة، أنا أريد المغادرة، لكني تحولت إلى جبل.

فاجأ كلامها مينغ، قال:

- كيف يمكن لشخص أن يكون بهذا السوء؟ لقد جعلك تعانين كثيرًا.

- لقد صار ذا فائدة بالنسبة لي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا تقصدين؟

- بسبب ملازمتي له صارت النكات غذائي اليومي، وهذا ما جعلني أعيش لأكثر من ثلاثة آلاف عام دون أن أهرم أو أموت. هلا نظرت، ألا أبدو كفتاة في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها؟

- لقد فهمت الآن، لكن من هو هذا الشخص؟

- هذا سر لا يمكن إفشاؤه، فلو أخبرتك باسمه سوف يغادر، حينها ستنتهي حياتي أنا أيضًا.

تابعت:

- هو أيضًا يعلم أن هذا مرض يعاني منه، وهذا المرض لا يمكن علاجه دون النكات، لذلك جعلني وأهل يانجين نمارس معه تلك اللعبة لأكثر من ثلاثة آلاف عام، لكن حالته لم تتحسن إلى الآن، مما جعله يشعر بتأنيب الضمير، يقول إنه مضطر لذلك.

- أليست هذه في حد ذاتها مزحة؟

- لقد أخبرتك بهذا لأنك تريد قطع علاقتك بيانجين، لكني لا أجرؤ على قول هذا الكلام لسكانها، فإياك أن تخبر به أحدًا، وإلا فسوف آتي إلى حلمك في شيآن، وأجبرك على حملي للذهاب لشرب حساء الفلفل الحار.

استيقظ مينغ، نظر من النافذة، فرأى ضوء القمر ساطعًا. تذكّر ما قالته هوا آرنيانغ في حلمه، ورغم عدم معرفته للشخص الذي يتلبس جسدها، أدرك فجأة المرض الذي يعاني منه هذا الشخص، فتصبب جسده عرقًا من الخوف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجزء الرابع: نكات مختارة واثنتان مهملتان

أولاً: مجموعة مختارة من نكات سكان يانجين ذات الجملة الواحدة التي أضحكت هوا آرنيانغ ودوّنتها في دفتر ملاحظاتها:

1. تبليط سور الصين العظيم بالسيراميك.

2. تجهيز طائرة بناقل يجعلها تطير للخلف.

3. تركيب سلالم متحركة على جبال الهيمالايا.

4. تجريف قاع المحيط الهادئ.

5. تركيب جهاز للنكات داخل بطون الناس.

ثانيًا: نكتتان مهملتان لم تقالا في يانجين من قبل.

1. كيف مات الفتى هوا آرلانغ؟

عاشت العديد من الأقليات العرقية في مناطق الشمال الغربي قديمًا، واحدة منها هي عشيرة لينغ يو، تلك العشيرة كانت تكسب رزقها من خلال إلقاء النكات، وهي تجول البلاد، بلا موطن يؤويها. أكثر أفرادها براعة في إلقاء النكات يُدعى الجد هوا. عندما يلقي نكتة يضحك المستمعون، لكنه لا يضحك، بل يسأل: هل هذا مضحك؟ إحدى النكات المفضلة لديه نكتة «عباد الشمس».

تقول النكتة إن زهرة عباد الشمس كانت تدور في اتجاه الشمس كل يوم، وفي أحد الأيام توقفت فجأة عن الدوران، سألتها الشمس:

- لماذا توقفتِ عن الدوران؟

- لقد انكسر عنقي.

- لكن عنقك يبدو سليمًا.

- العنق سليم من الخارج، لكن محوره مكسور من الداخل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سألت الشمس بغيظ:

- هل عنقك مركب من أجزاء أم أنه مزيف؟

يحب الجد هوا استخدام عبارة «هذه بديهيات» عند إلقاء النكات، قال:

- زهرة عباد الشمس كانت مجمعة من أجزاء بالفعل، هذه بديهيات.

كان يقول أيضًا:

- هذا القرد يمكنه أن يتشقلب على طول الطريق، هذه بديهيات؛ هذا الرجل تزوج بواحدة من الثعالب، وبعد سنوات صار لديه قطيع من البنين، هذه بديهيات، في لحظة اندفاع، طعن الشهم الوغد بالسكين، فسقط الوغد أرضًا، هذه بديهيات.

هذا هو منبع شيوع استخدام عبارة «هذه بديهيات» في النصوص القصصية خلال عهد أسرتي سونغ ويوان.

قاد الجد هوا أبناء عشيرته حتى وصلوا في أحد الأيام إلى دولة المرح. في ذلك اليوم تجمّع أفراد عشيرة لينغ يو داخل السوق يلقون النكات، ضحك الناس؛ وعندما ذهبوا إلى البلاط لإلقاء النكات ضحك الملك ومسؤولو البلاط؛ وعندما دعاهم الملك لإلقاء النكات في قصره ضحكت الأميرات والمحظيات، وضحك الأمراء والأحفاد، وأكثرهم ضحكًا كان الابن الرابع للملك. قال الملك:

- أيها الجد هوا، انظر، الناس هنا مرحون ويحبون الاستماع إلى النكات، لذلك لا داعي للترحال، يمكنك البقاء هنا. وكما يقول المثل، من السهل إلقاء النكات، لكن من الصعب العثور على من يفهمها، كما أن بقاءكم هنا يعني أن عشيرتكم صار لها موطن دائم.

تشاور الجد هوا مع أفراد عشيرته وقال:

- الشمس هنا مشرقة، والمطر غزير، والحكام عادلون والناس طيبون، والملك دعانا بنفسه، فما رأيكم أن نبقى هنا؟

أنهك الترحال الجميع، لذلك وافقوا على ما قاله الجد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استقرت عشيرة لينغ يو في دولة المرح، بنوا بيوتًا وأنجبوا أطفالاً.

بعد عشر سنوات مات الملك وخلفه ابنه الرابع. وعلى غير المتوقع لم يغد الابن الرابع يحب النكات، ففيّر اسم البلد إلى دولة الصرامة. وبعدما اعتلى العرش، أعلن بوضوح:

- من الآن فصاعدًا، آمل أن يصبح الجميع صارمين، وليذهب كل الساخرين إلى الجحيم.

قال أحد الوزراء المتملقين:

- لا تزال عشيرة لينغ يو تعيش في بلادنا، يلقون النكات ويحرّضون الجميع على الضحك طوال اليوم، فكيف نتعامل معهم؟

- السخرية تُفسد أخلاق الناس. وهذه مؤامرة خُطط لها منذ زمن طويل من قبل دولة الكره ودولة الحقد، وهذا هو الطابور الخامس الذي أرسلوه للقضاء علينا.

أصدر الملك أوامره بذبح العشيرة بأكملها. حاصرهم الضباط والجنود ليلاً، وقطعوا رؤوس أكثر من مائة من الرجال والنساء والأطفال كمن يقطع الفاكهة.

قال الجد هوا قبل إعدامه:

- من تخيل يومًا حدوث هذا، عندما ألقينا النكات أمام الملك القديم كان الابن الرابع الأكثر ضحكًا، اتضح الآن أنه بارع في التظاهر. هذا أمر لم يتوقعه الملك العجوز أيضًا. لقد عشت ألقي النكات طوال حياتي، لكن هذه هي أكبر نكتة.

ذُبحت العشيرة بالكامل، ولم ينجُ منهم سوى شاب وفتاة كانا تواعدا للقاء في البرية ليلة وقوع تلك المجزرة، ولما عادا إلى المدينة سمعا الناس يتحدثون في الشارع عن الأمر، فلم يجرؤا على البكاء، وقررا الهرب. سألت الفتاة:

- إلى أين سنهرب؟

- قابلت راويًا بارعًا في إلقاء النكات في السوق قبل عدة أيام، وسمعت أنه من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يانجين، فما رأيك أن نذهب إلى هناك؟

بينما يتحدثان، سمعا صراخ الناس في الشارع، فالضباط والجنود كانوا لا يزالون يبحثون عن بقايا العشيرة، فافترقا واتفقا على اللقاء عند معبر يانجين.

الشاب في عمر الثامنة عشرة ويُدعى هوا آرلانغ أي الفتي هوا آر؛ والفتاة في السابعة عشرة من عمرها، وتُدعى ليو ينغ ينغ، ومنذ هذا اليوم فصاعدًا غيّرت اسمها إلى هوا آرنيانغ، أي الفتاة هوا آر.

انفصل الحبيبان. لن نتحدث عن الصعاب والأهوال التي عانتها الفتاة حتى وصلت إلى يانجين، سنتحدث فقط عن هوا آرلانغ الذي ذهب شرقًا على طوال الطريق، وعانى في طريقه من الحروب والأوبئة كالكوليرا والملاريا والأرتكاريا، إلى أن وصل أخيرًا إلى يانجين ليلاً بعد ثلاث سنوات وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يومًا.

لم يجد هوا آرنيانغ التي عادت من عند المعبر للمبيت في نزل تقيم فيه. في ذلك الوقت، لم يكن هناك هاتف محمول، ولم يعرف الفتى هل وصلت حبيبته إلى يانجين أم لا، هل أصابها مكروه في طريقها خلال هذه السنوات الثلاث؛ وقف يتأمل مياه النهر الأصفر، فشعر بالاكتئاب من لون المياه. شعر بالجوع أيضًا، فدخل إلى مطعم بجوار الشاطئ، صاحبه جالس خلف المنضدة، يرتكز برأسه على يديه، ويشاهد قطتين تتقاتلان أمام برميل النبيذ. تقدّم الشاب وقال:

- ما أفضل الأطباق لديك هنا؟

- بما أننا على شاطئ النهر الأصفر، عليك تناول سمك الشبوط الكبير.

اصطحبه لاختيار سمكة من البركة في الفناء الخلفي للمطعم، رأى عشرة أسماك شبوط كبيرة تسبح في البركة، وواحدة نافقة مقلوبة وبطنها الأبيض للأعلى، سأل:

- جميعها تسبح، فلماذا ماتت هذه؟

- ماتت بسبب الغضب.

- ماذا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- غضبت لأنه لم يشترها أحد بعدما مكثت في البركة لأكثر من أسبوعين.

ابتسم الفتى، إنها أول مرة يبتسم منذ ثلاث سنوات وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يومًا.

جلس يتناول السمك مع الخبز المنقوع، جاء عدد من الزبائن. ولأن هناك العديد من المستنقعات بجوار المعبر، فهناك أيضًا الكثير من البعوض. قتل أحد الزبائن الجالسين على الطاولة المجاورة بعوضة بيده وقال:

- أيتها البعوضة، لن تتمكني من رؤية أمك بعد الآن.

رأى الشخص نفسه بعوضة أخرى هاربة. فقال:

- ذهبت لتخبر أم الميتة بوفاتها.

ضحك آرلانغ مرة أخرى. وعلم أن مجيئه إلى يانجين قرار صائب، فالناس هنا يحبون إلقاء النكات، مثلما كان الحال في دولة المرح في الماضي. جاء شخص آخر، فسأله الشخص الجالس على الطاولة المجاورة:

- هل جئت تأكل ثانية؟ ولن تشرب أيضًا هذه المرة؟

علم هوا آرلانغ أنها مزحة بين الأصدقاء، ولكن كيف يكون الرد على مزحة كهذه، فرغم أنه أحد أبناء عشيرة لينغ يو، لم يستطع التفكير في رد مناسب. لم يتوقع أن يرد الشخص الذي جاء للتو بنبرة متأنية قائلاً:

- لقد جئت آكل ثالثة وليس ثانية، وأنا لا أشرب نبيذًا مزيفًا كما الحال في المرة الأولى.

من شدة إعجابه ضرب الفتى على كفيه وهو يضحك؛ لدرجة أنه نسي أنه يتناول السمك، فعلقت شوكة ثلاثية الشعب في حلقه، ولم يستطع لفظها أو ابتلاعها فمات. يمكن القول إن النكتة هي التي قتلته. لم يتمكن الناس من إنقاذه في الوقت المناسب، حتى إن صاحب المطعم أصيب بالذعر، فالفتى مات في مطعمه، وستطاله الاتهامات. تذكّر أن الشاب تحدّث بلكنة غريبة، لذلك قال صاحب المطعم للزبائن إنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيأخذه لزيارة الطبيب. ثم حمله على كتفه وخرج. وبعدما سار به لأكثر من ميل، تطلّع حوله فلم يجد أحدًا في الجوار، فوقف أمام النهر الأصفر، وقال:

- أيها الأخ، بما أنك مت بسبب نكتة فلتذهب إلى جنة النعيم قبل أن تبرد حرارة النكتة.

ثم ألقى به في النهر الأصفر.

لأكثر من ثلاثة آلاف عام، ظلت هوا آرنيانغ تعتقد بوفاة هوا آرلانغ خارج يانجين بسبب الحروب والاضطرابات؛ ولأكثر من ثلاثة آلاف عام، استقرت هوا آرنيانغ في يانجين تنتظره أن يأتي بينما هو قد أُلقي بالنهر الأصفر الذي جرفه شرقًا نحو بحر الصين الشرقي.

لأكثر من ثلاثة آلاف عام، لم يجرؤ أحدٌ من سكان يانجين الكثيرين، الذين يعرفون بهذا الأمر، على إخبارها عندما تطلب منه نكتة.

نكتة هوا آرلانغ هي الأكبر في تاريخ يانجين.

2. أين صعدت ينغ تاو إلى الشاطئ؟

على مدار أجيال عديدة في منطقة جيوجيانغ بمقاطعة جيانغشي، يخرج الصيادون فجرًا إلى نهر اليانجتسي ويعودون قرب المساء، يبيعون حصيلتهم من الأسماك لتجار السمك في السوق. من بين هؤلاء الصيادين رجل يُدعى تشن، يُعرف بالأخ الثاني تشن، كان على وشك العودة بقاربه عند الغسق. وعندما رأى مياهًا مندفعة وأمواجًا بيضاء عند مقدمة القارب، اعتقد أنه صادف سربًا من الأسماك، فصاح:

- سيكون من المؤسف لو لم أصطدها.

رمى بشباكة ثانية في مواجهة الأمواج. عندما سحبها شعر أنها أثقل من المعتاد، فرح ظنًا منه أنها سمكة كبيرة. بذل قصارى جهده لسحبها، ثم فوجئ أن الشبكة ليس بها أسماك، بل فتاة صغيرة جميلة. تطلعت الفتاة الصغيرة إلى هيئة الصياد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقبعته، ثم مسحت مياه النهر من على وجهها، وسألت:

- أيها الأخ، من أي سلالة وعصر أنت؟

- عصر أسرة سونغ. من أنتِ؟

علمت ينغ تاو أن المياه جرفتها عبر الزمن إلى عهد أسرة سونغ، فأجابت:

- اسمي ينغ تاو.

- لماذا ألقيتِ بنفسِك في النهر؟

- هذا أمر يطول شرحه.

يوجد مطعم على الشاطئ، مالكه يُدعى سونغ العجوز، وزوجته تُدعى السيدة ما. جدف الأخ الثاني تشن بقاربه إلى الشاطئ مصطحبًا معه ينغ تاو إلى داخل المطعم. عندما رأته السيدة ما سألته:

- من أين اختطفت هذه الفتاة الصغيرة؟

- لم أختطفها، لقد اصطدتها من النهر.

من المعتاد بالنسبة للسكان على ضفاف نهر اليانجتسي رؤية أشخاص ينتحرون بإلقاء أنفسهم في مياه النهر. قالت:

- ما دمت قد أنقذتها، هيا أسرع ووجِّهها نحو النار.

في عهد أسرة سونغ المقصود بالتوجيه نحو النار الجلوس للتدفئة أمام موقد الفحم. وقبل ذلك أحضرت السيدة ملابس وطلبت من ينغ تاو ارتداءها في الغرفة الداخلية؛ ففعلت وخرجت تشكرها.

جلست ينغ تاو أمام الموقد، سألتها السيدة صاحبة المطعم:

- يبدو من لهجتكِ أنكِ غريبة عن هنا، أليس كذلك؟

- لقد جئت من مكان بعيد، آمل ألا أكون قد أثقلت عليكم؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنتِ فتاة صغيرة جميلة، ما رأيك أن أبحث لك عن زوج هنا؟

- الأمر متروك لك أيتها الخالة.

- إذن أنت لا تريدين العودة إلى بيتك؟

- لا.

- لماذا؟

- هذا أمر يطول شرحه.

- وأين بيتك؟

- أفضّل عدم الحديث عن هذا الأمر.

علمت السيدة أن هذه الفتاة الصغيرة لديها بعض الأسرار التي لا يمكن البوح بها؛ وإلا لماذا ألقت بنفسها في النهر؟ فتوقفت عن السؤال، لكنها تذكّرت أمرًا، فسألتها:

- هل أنتِ جائعة؟

- لم أتناول أي شيء قبل القفز في النهر.

طلبت من عامل المطعم أن يُحضر سمكة ويصنع حساء للفتاة الصغيرة كي تدفئ جسدها.

سارعت الفتاة تنحني أمامها وتقول:

- شكرًا أيتها الخالة.

ذهب العامل إلى بركة السمك في الفناء الخلفي ليُحضر سمكة. في تلك الأثناء، دخل شخص يرتدي وشاحًا إلى المطعم، وخلفه صبي يحمل ورقة وفرشاة ومحبرة حجرية. هذا الرجل هو ابن عم السيدة، وهو من المتعلمين المعروفين في جيوجيانغ، ولأن سونغ العجوز والسيدة ما أميًان، طلبا منه المجيء لكتابة لافتات عيد الربيع قبل حلول العيد. بعدما عاد العامل من الباب الخلفي يحمل سمكة حية في يده،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اصطدم بالصبي الذي يحمل الورقة والفرشاة والمحبرة الحجرية، فاصطدمت السمكة بوجه الصبي، صاح الصبي مفزوعًا، وألقى بالمحبرة الحجرية من يده، فاصطدمت المحبرة بصدر ينغ تاو التي صاحت مفزوعة وسقطت على الأرض. نهرت السيدة العامل قائلة:

- أنت متهور للغاية.

كما نهرت الصبي أيضًا وقالت:

- أنت متعلم، فكيف لا تستطيع التحكم في نفسك هكذا؟

ساعدت ينغ تاو على النهوض وسألتها:

- هل أُصبتِ بشدة؟

Telegram:@mbooks90

وضعت ينغ تاو يدها على صدرها وقالت:

- لا بأس، لكن قلبي يؤلمني.

ساعدتها السيدة على الدخول إلى الغرفة وطلبت منها الاستلقاء على السرير لتستريح.

بينما هي مستلقية، سمعت الرجل المتعلم والعديد من الصيادين في الخارج يحللون عواقب اصطدام المحبرة الحجرية بصدرها. قالوا إنه عندما تصطدم مجبرة حجرية بصدر مسطح، ستكون النتيجة واحدة من ثلاثة: إما أن يبقى الصدر مسطحًا؛ وإما أن يصبح غائرًا؛ أو سيصيبه التورم وينتفخ قليلاً.

عندما سمعت ذلك لم تتمالك نفسها من الغضب، تعرّضت لإصابة كهذه ومع ذلك يسخرون منها؟ كيف يتسم الناس في عهد أسرة سونغ بالوقاحة هكذا؟ همت بالخروج لتوبيخهم؛ ولكنها فكرت في الأمر، فاكتشفت أن هذه سلسلة من النكات، وكل جملة داخل هذه السلسلة هي نكتة من جملة واحدة. تذكرت أيضًا أنه وفقًا لقواعد ملاك الموت، فكل نكتة من جملة واحدة تساوي خمسين نكتة عادية؛ وبما أن هذه السلسلة من النكات كلها عبارة عن نكات من جملة واحدة، فمجموعة من هذه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السلاسل تعادل خمسين نكتة من جملة واحدة. تحوّل غضبها إلى فرح، واحتفظت بهذه النكتة لنفسها، لتحكيها لملاك الموت لاحقًا كي تتناسخ من جديد، فهذا أهم بكثير بالنسبة لها من التعرض للسخرية. تنهّدت وهي تقول لنفسها: لقد ارتحلت من يانجين إلى ووهان، ثم من ووهان إلى جيوجيانغ، وبعد كل ما مررت به محن وصعاب، لم أتوقع أن تكون عودتي للحياة في هذا المكان؛ وأن منقذي في النهاية هو شخص يعيش في عهد أسرة سونغ التي انتهت منذ أكثر من ألف عام.

هذه أيضًا بديهيات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجزء الخامس: مقدمة كتاب «سيرة هوا آرنيانغ»

المؤلف: السيد سيما نيو

هذا كتاب عن الضحك، وعن الدموع أيضًا، وفي النهاية سيصير كتابًا عن الدماء، فالكثيرون ضحوا بحياتهم من أجل نكات مضحكة، ألا يكون بذلك كتابًا عن الدماء؟

(لا شيء آخر- انتهى)

---

(1) بطلة الأسطورة الصينية الشهيرة التي تقول إن الفتاة تشانغ آه صعدت للقمر.

(2) أحد أشهر الأعياد الصينية التقليدية ويسمى أيضا عيد زيارة القبور.

(3) عادة صينية قديمة حيث يحرق من أجل الميت أوراق مالية مزيفة تعبر عن إرسال الأموال له في الحياة الجديدة بعد الموت.

(4) شخصية أسطورية صينية لبطل قديم.

(5) واحدة من الأسر الإمبراطورية الحاكمة في الصين القديمة حكمت بين عامي (- 960 1279).

(6) سلالة أسستها قبيلة توبا التي حكمت شمال الصين من عام 386 حتى 534م، وصفت بأنها جزء من عصر الاضطرابات السياسية والتغيير الاجتماعي والثقافي الشديد في الصين.

(7) عجين محشو باللحم يُطبخ بالبخار وهو من أشهر الأكلات الصينية.

(8) وحدة عملة صينية واليوان الصيني الواحد يساوي عشرة ماو.

٢٧٠٧٣١٨٢٣٧
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner